

رواية
حسن بلاسم
إيميلات مترجم إيميل سيوران
Arab_Books
المتوسط

يعد حسن بلاسم سيد المجاز دون منازع، فهو يطور فلسفته السوداء الخاصة في حكايات تتسم بالغنائية التجديفية، والرمزية المشوهة، والرومانسية الكئيبة ... ويعد عمله بولانيوياً (روبرتو بولانيو) في استطراداته الغزيرة، وبورخيسياً في تعقيده الملغز المليء بالحكمة.

جريدة ذي غارديان

قد يكون حسن بلاسم أكبر كاتب حي من كتّاب القصة في العالم العربي.

جريدة ذي غارديان

بلاسم يصنع من الرعب اليومي شيئاً من اللامألوف (gotic) وفق ذائقته ولأجل ما فوق الواقع. قد يكون شبيها بغوغول.

جريدة ذي إندبيندينت

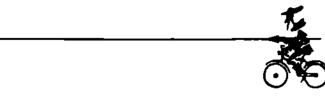
المتوسط

99 اللّٰه

إيميلات مترجم إيميل سيوران

المؤلف: حسن بلاسم / عنوان الكتاب: الله ٩٩ - إيميلات مترجم إيميل سيوران
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-10-9



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org


حسن بلاسم
إيميلات مترجم إيميل سيوران
المتوسط

إهداء إلى:

صديقي عدنان المبارك

ابني أنكيدو بلاسم

حبيبتي كاتيا بوم

عزيزي حسن. إنه الأرق الذي بعث برسالتك إليّ قبيل الفجر. أمنيّتي أن تكون الآن قد تركت وراءك عالم الذاكرة التي تعوم في ذاك الوحل المتخثّر، ولربّما الإنقاذ الوحيد هناك في دائرة النار- القلق، أن يكون الفهم العقلاني لكل شيء قد تشظّى كمرآة سقطت من اليد ... الطّبّ يقول إن البارانويا تكون المرحلة الختام في عذاب الأرق. ربّما هذا صحيح، لكن الوجه الآخر للعملة هنا هو أن هذه البارانويا عذبة حين تناطح حقائق البشر والرب. حروب هذا الأرق تطعن هنا وهناك في كل هذه الأجهزة المعقّدة للجسم، والمترابطة فيما بينها كرؤوس الأخطبوط...

ذكرت لك أن أرَقي ليس من النوع المفترس اللحوح، ولذا لم أمرّ بتلك التجربة اللعينة إلى النهاية. بوذا لم ينم ستين عاماً، لكن ذاك لم يكن أرقاً في واقع الحال، بل هزيمة شنعاء له. كما تعرف، لم يخسر بوذا ولا معركة واحدة مع الجسم والخارج أيضاً. الافتراضات كلها واردة، وبينها أن بوذا لم يكن إنساناً، بل مخلوقاً جاءنا من عالم آخر: بعضهم يجده نتاجاً لتناسخ الأرواح، أو أنه كان طفلاً من أطفال مخلوقات كونية جاءت إلينا، وتناسلت بيننا ومعنا، لذا ليس من السهل تمييزها عن البشر، أي أنهم، وعلى حدّ تعبير ويلز، (بشر كالآلهة)...

منذ أيّام طويلة أمامي كتاب سيوران (غواية الوجود)، كي أترجم فصله عن الرواية. لا أعرف كيف يتسرب الوقت كما الماء من بين الأصابع. البارحة تحايلتُ عليه، لكنْ، ليس كثيراً،

وأخـذت أترجم. إنـه مـن نصـوص سـيوران الرائعـة التي ينفـذ فيها كالعـادة إلى الحقيقة بعينـين أخريـين، لا نعثـر عـلى شـبيهتين لهـا، لا في المعـاصرة ولا قبلها...

***

بالطبـع لـم أكتشـف اليـوم أن الحيـاة قصـيرة، بـل يعمـل، كما السـكين الحـادّة، هـذا الاكتشـاف القديـم في مثل هـذا الكيـان الهشّ الـذي لا أعـرف لـمَ اختير لنـا...

سـيوران نصحنـا بعدم النبـش في الذاكـرة، إذا أردنا السـعادة. قدر علمـي، لم تكـن السـعادة هاجسـه، بـل الوعي الشـقي الـذي يرمي بـكل هـذه التعاريف السـاذجة لظاهرة الحيـوان العاقـل وأمانيه...

أقـول الآن عـن السـعادة وكُلّي اسـتغراب مـن نصيحـة سـيوران، فـالأكيـد أن مَـن يبحـث عنهـا هـو ذلك الصنـف المعـدوم الألـوان من المخبولـين وبـشر الإحصـاءات وأولئـك السـائرين في نومهـم صـوب صناديـق الاقـتراع مثلاً!

***

الكتابـة! لـدى بعضهـم تكـون العمليـة شـبيهة بحفـر قـبر للكلمـة! وعمومـاً فلهـذه الكلمـة (الكتابـة) طعـم الرماد والمـوت ... أنـا أشـعر بمتعـة كبـيرة حـين أقـوم بالطـرح أمامـك. ربمـا كلمـة متعـة ليسـت بالمناسـبة. أظـن التعبـير الأكثـر صحـة: أشـعر بأني أتنفـس الصعـداء حـين أكتـب إليـك. إذ ليـس الـكل يحتمـل مثـل هـذا الطـرح.

محبّتي

***

عمّي البي بي سي

فكّرتُ في إنشاء مدوّنة الله ٩٩ بعد الخوف والقلق الذي انتابني من عدم القدرة على الكتابة. لم يكن مصدر قلقي خسارة شهرة أو مال. فأنا كاتب غير معروف، أعيش لاجئاً في فنلندا، ولا توجد دار نشر عربية واحدة رغبتْ في نشر قصصي وقصائدي. يقولون إن لغتي قذرة، لا جمال فيها، وتتطاول على المقدسات الدِّينية. قيل الكثير في الأدب والتعلّق بالكتابة بشكل عام. بيسوا كان يقول بما معناه إن الأدب هو الوسيلة الأكثر إمتاعاً لتجاهل الحياة. بالنسبة لي، لم يكن الأدب يوفّر (مخابئ المتعة) فحسب، بل أزعم أن الأدب أنقذ حياتي، أنا الذي وُلدتُ في بلاد يرتفع منسوب العنف الوحشي فيها إلى مستويات مفزعة وفنتازيّة كلّ عقد من الزمن.

كانت مهنتكَ الرسمية في البلاد طبيب بيطري. كنتَ تعالج أبقار قرى مدينة بابل. آخر مرّة شممتَ فيها رائحة بقرة كان قبل ١٢ سنة. لديكَ قصّة طريفة بعنوان (البقرة التي يُخرِج كسُّها مجلات سكسية).

في سنوات المراهقة، قرأتُ مقولة (الأفكار ملقاة على قارعة الطريق)، فأثارتْني، وأثارتْ حمساتي. وتحديداً حين أبدلتُ بكلمة الأفكار القصص. حلم وفرة القصص والأحداث في تلك السنّ تحوَّل، مع مرور الزمن، إلى كابوس. طوفان الصور والمعلومات والأخبار والقصص تثير اليوم رعبي

وتقزّزي، وتُشعرني بالعجز وبعبث الكتابة. كتبتُ لصديقتي العزيزة أشكو من يأسي، فردّتْ عليّ إيميلي: اليأس بسبب الكتابة، أكيد أنه يأس مركّب: يأس بسبب العبثية المطلقة، يأس بسبب الشلل الكُلّي، وليس النصفي، الذي أصاب الكتابة في مختلف الأسواق. يأسٌ سببُهُ أن ما نكتبه يبدو وكأنه ليس صرخة في واد، بل ضرطة هناك.. هكذا شيّد العالم، وقناعتي أني لا أتحمّل أي مسؤولية عن هذا الطيش! لنكتب يا عزيزي وفق وصفة هنري ميللر(اكتشفتُ في الأخير أنْ ليس عليّ أن أفعل أي شيء آخر غير أن أكتب وأكتب وأكتب). أنا أفهم حالتك، لكنْ، لابد من طرد فكرة التراجع. لا شيء هناك يُنقذنا من الوقوع في حفرة القنوط غير التحدّي والمثابرة.. أكيد أن ما قلتُهُ لا يعدو كونه صفطة نصائح، لكنْ، ما العمل إن كانت هي راهنة في الوقت الحاضر وناجعة في أحوال كثيرة؟

إيميلات صديقتكَ توفّر لكَ البهجة والمتعة والعزاء! تشتهي أن تلتقي بها وجهاً لوجه، تعانقها وتشمّها.

كنت أشاهد تقريراً عن اكتشاف مقبرة جماعية جديدة في العراق، حين خطرتْ في بالي فكرة إنشاء مدوّنة ونشر قصصي وقصائدي والتحرّر من الرقابة العربية إلى الأبد. رحتُ للنت، وبحثتُ عن البلوغات المجانية. شعرتُ بالملل. كانت الساعة العاشرة مساء. غيّرتُ ملابسي، ونزلتُ للبار. فكّرتُ أن يكون للمدوّنة شكل كتابي واحد، وأن تكون النصوص كلها جديدة. شربتُ البيرة واليالو(*)، وأنا أنبش في ذاكرتي، وأقلب في فكرة مدوّنة الله. التقيتُ شاباً سنغالياً لطيفاً، سكرنا معاً حتّى إغلاق البار، وضحكنا كثيراً. حكى لي هو عن طفولته في السنغال، وحكيتُ له عن المفارقات المضحكة في أثناء عملي كطبيب بيطري في القرى والأرياف. في صباح اليوم التالي، أفقتُ

*) اليالو: كحول فنلندي محلي.

وبقايا حلم عن عمّي مازال عالقاً في ذهني. جلستُ على حافة السرير، وفتحتُ اللابتوب. فكّرتُ أن تكون البداية بسيطة ومحدّدة، وهي جمع مادّة كتابية عن طريق إجراء مقابلات مع أناس من هذا (الواقع!) ثمّ لاحقاً أفكّر بشكل القالب الذي سأصهر فيه المادة. تناولتُ فطوري، وأنا أجمع شظايا حلمي عن عمّي، وأقلّب في صفحات ذكرياتي عنه. شغّلتُ موسيقى. استمعتُ أولاً إلى ماسيف أتاك(*)، ثمّ رحتُ إلى موجة "راديوهيد"(**) إلى أن استقريتُ عند نيلز فارهم(***). غطستْ في ذهني إلى أن بدا لي أن إيقاع مدوّنة الله يمكن له أن يكون قريباً من إيقاع قصّة عمّي المشوشة.

وُلدتُ أنا في حضن عائلة فقيرة. سمعتُ حكاية ولادتي من عمّي عشرات المرّات. كان عمّي يكرّر الحكاية، ويتندّر عليها في المناسبات العائلية كلها، حتّى كرهت حكاية ولادتي الزبالة. يقول عمّي إنني وُلدتُ في مستشفى وسط المدينة. كان أبي حينها في الجبهة يقتل الإيرانيين. لم تكن أمّي تملك ثمن أجرة سيّارة التاكسي للعودة إلى البيت. اتصلت أمّي بعمّي للمساعدة. وصل عمّي إلى المستشفى بسيارة جمع النفايات. جلبتْ إحدى الممرضات من مطبخ المستشفى كارتونة بيض فارغة. وضعوني في كرتونة البيض، وعدنا للبيت بشاحنة جمع نفايات العاصمة. كان لون الشاحنة برتقالياً، ومكتوباً عليها حافظْ على نظافة مدينتك.

هجر عمّك فجأة عائلته، ورحل إلى القاهرة. حينها شعرت أن دورك قد حان للانتقام منه بطريقته نفسها، رواية حكايته في كل المناسبات العائلية، الحزينة والمفرحة.

---

*) Masiv Atak

**) اسم فرقة موسيقية (Radiohead).

***) Nils Frahm

عمل عمّي طوال سنوات شبابه سائقاً حكومياً في بلدية المدينة. سائق في سيّارة لاندكروز مع مهندسي النفط، وقاد سيّارة حمل تويوتا مع موظّفي مديرية الزراعة، ثمّ سائق لنائب المحافظ، إلى أن وصل إلى أعلى منزلة يحلم بها سائق في بلدية المدينة، قيادة سيّارة المحافظ نفسه. كان سائقاً ماهراً ورجلاً هادئاً وكاتماً للأسرار. كانت لديه مشكلة وحيدة، إفراطه غير المعقول في شرب الشاي، كان يشربه طوال اليوم. يقولون إنه كان يفيق في بعض الأحيان من النوم، ليشرب استكان شاي مع ثلاث سجائر، ويعود لينام.

ملك الشاي عمّي أوصل في إحدى الأيّام المحافظ إلى حي تسكنه الطبقة الغنية. كان المحافظ يتردّد على بيت قوّداة، انتظر عمّي خارج البيت أكثر من ساعة، كان بحاجة ماسّة إلى جرعة من الشاي، وماكو في الحي ولا مقهى! قرّر عمّي أن يقود سيّارة المحافظ إلى أقرب مقهى، يشرب شايه المقدّس، ويعود بسرعة. خرج المحافظ منتشياً من بيت الدعارة، ولم يعثر على سيارته. في أثناء عودة عمّي من المقهى مسرعاً، اصطدم بشاحنة بطّيخ. تحطّمت مقدمة سيّارة المحافظ، شُجّ رأس عمّي، وتناثر البطيخ في الشارع. عاقبه المحافظ بأن جعله يقود شاحنة جمع النفايات سنة كاملة، وبعدها يُطرَد من الوظيفة.

صار عمّي عاطلاً عن العمل. كان يقضي أغلب أوقاته متنقّلاً بين البيت ومقهى رجال الدومينو. مقهى مزدحم بالعاطلين عن العمل، رجال يدخّنون سنوات حياتهم وهماً، ويرصّون قطع الدومينو بحماس ومرح. في البيت لا يقوى عمّي على القيام بشيء سوى شرب الشاي والتدخين والاستماع إلى إذاعة البي بي سي التي كانت الحكومة تشوّش على موجات بثّها. كان

من الصعب فَهْم أخبار وتقارير البي بي سي العربية بوضوح. يلتقط عمّي القصص المشوّشة من الراديو، ليذهب إلى رجال الدومينو في المقهى، ويرويها لهم بطريقته. كان بارعاً جدّاً في إعادة الحياة للقصص المشوّشة التي كان يستمع إليها. واصلت زوجة عمّي الكفاح من أجل أن تُطعِمَ أولاده الخمسة بعملها في خياطة ملابس الفقراء. كان عمّي مفصولاً عن واقع زوجته الفاتنة التي أذبل جمالها قسوة الزمن ومرارته. عمّي تحوّل رسمياً إلى تمثال على هيئة: رجل جالس يشرب الشاي قرب راديو. لا يتكلّم مع عائلته، ولا يستمع لهمومها. حواسّه لم تعد تتفاعل سوى مع القصص المشوّشة، وقطع الدومينو.

بعد سقوط الديكتاتور، دخلت البي بي سي إلى البلاد، وأغلب وسائل الإعلام العالمية، فخسر عمّي عمله في مقهى رجال الدومينو كراوٍ للقصص. فقد امتلأ البلد بالأخبار والصور والأحداث والشخصيات والتحليلات حتّى لم تعد الناس تميّز بين ما هو حقيقي وما هو خيالي. تشوّشت القصص من جديد، لكنْ، بطريقة أخرى، هذه المرّة أُغرقتْ (الحقيقة) بطوفان الأخبار والصور والتقارير.

العقبة الأولى التي كانت أمامكَ هي تمويل مشروع الله ٩٩.

كنتُ بحاجة للسفر إلى أكثر من بلد للقاء الشخصيات التي رغبتُ في محاورتها. شخصياتٌ قرأتُ عنها في وسائل الإعلام أو التقيتُها من قبل بنفسي، أو حكى لي آخرون عنها. كانت لي من قبل تجربة فاشلة في محاولة الحصول على دعم مادي للكتابة من الجهات المانحة هنا في فنلندا. لديهم حقّ! مَن سيهتم لقصص طبيب أبقار لاجئ، يكتب في اللغة العربية. أضف إلى ذلك أنني أريد نقود الدعم هذه المرّة من أجل مشروع بلوغ، ولا أدري إن كان أحد سيهتمّ لمثل هذا الهراء! لم يكن عندي خيار

آخر، تقدّمتُ بطلب منحة لأكثر من جهة، وانتظرتُ. في أثناء فترة الانتظار، عملتُ على جمع معلومات كافية عن الشخصيات التي أنوي مقابلتها، حصلتُ على الموافقات المبدئية، ووضعتُ جدولاً زمنياً. كدتُ أتراجع عن المشروع أكثر من مرّة، لكن تشجيع صديقتي العزيزة صبّرني إلى أن حلّت كارثة تدفّق اللاجئين بأعداد هائلة على أوربا، وفرخت معجزة صغيرة من أجلي. فتحت أبواب التمويل هنا في فنلندا، فلعل المهاجر واللاجئ لديه صوت أو وجه أو قصّة يرويها. حصلتُ على دعم مادي لا بأس به بسبب الكارثة الإنسانية، وانطلقتُ باحثاً عن أسماء الله.

ستُنهي قريباً القسم الأوّل من المقابلات. لكنكَ لم تنشرْ بعد أيَّ مقابلة.

أغلب مَن قابلتُهم هم شخصيات مرّتْ بظروف حياتية متباينة، لكنْ، ربمّا المشترك بين أبطال هذه المدوّنة، أن أغلبهم مرّ بظروف حياتية مشوّشة. لستُ أكيداً أن ما كنتُ أنوي نشر المقابلات كما هي من دون إعادة صياغتها في قالب روائي أو قصصي. مازلتُ متردّداً! أغلب أبطال مقابلات القسم الأوّل هم شخصيات منغمسة في عوالمها الخاصّة، ولأهداف ورغبات وتصوّرات متباينة. أكيد أنني كنتُ أبحث (في حكاياتهم) عن بعض هواجسي كفنّان وطبيب بيطري. أو ربمّا أيضاً كنتُ أبحث باستحياء وتردّد عن حلم صديق طفولتي حبيب عن (القصص القوية القاتلة)، وأنا أنبش في حياة الآخرين. حبيب الجرح المفتوح في خاصرتي. صديق ذكرياتي الذي قدّم لي دليلاً قاسياً ومخيفاً على أننا نعيش لعبة متخيّلة، لا يمكن التكهّن بقوانينها ومساراتها.

في نيّتي تخصيص القسم الثاني من المقابلات لثيمات الجسد. هذه

المرّة سأجري اللقاءات مع شخصيات، لم أسمع عنها أو أعرفها. شخصيات تعيش في بلدان، لم أصل إليها من قبل.

لم تتمكّن من لقاء بعض الشخصيات، لأن الموت كان قد خطفهم قبل أن تصل إليهم.

نعم، مع الأسف، مع ذلك، لم أتراجعْ عن محاورتهم. فأنا أعتقد أن الأموات مازال لديهم حقّ السخرية والقصّ!

شخصية متّهمة بالإرهاب هي مَن ألهمتْكَ عنوان المدوّنة. وتخطّط للاكتفاء بـ ٩٩ مقابلة لمدوّنة الله.

مازال الطريق طويلاً لمقابلة ٩٩ الله. لم يتبقّ لي الكثير من نقود التمويل. كل ما تبقّى لي يغطّي سفرة واحدة خارج فنلندا. حسمتُ أمري، وقرّرتُ السفر بما تبقّى من نقود المنحة إلى القاهرة، لأبحث عن عمّي.

خيّم نوفمبر بعتمته قبل يومَيْن. تستعدّ لكتابة بعض الملاحظات الجنسية.

عزيـزي حسـن، انتهيتُ مـن ترجمة سـيوران. يبـدو هـو أحياناً وكأنـه يكتـب لنفسـه: جملـه طويلـة، ويأخذ طرحـه أحياناً شـكّل تيّـار للوعـي، هنـاك أيضاً خلفيّتـه الموسـوعية، إن صـحّ القـول، والتـي لا تعـين المترجم كثـيراً، ومـن هنـا موقفـي في أن أُشرك القارئ في تعـب المترجـم! أن يبحـث معـه عن المنابـع...

أفـكار وتصوّرات سرديـة كثـيرة في الـرأس، ومـا يغيظنـي حقّـاً بعبعـان تمـدّدا في حياتـي: الكسـل وحصـار الوقـت. لقـد اكتشـفتُ أنـي عاجـز عـن الأخـذ بالاسـتمرارية: الجلـوس أمـام لوحـة المفاتيـح ليـل نهـار تمامـاً كمـا لـو أنـي في زنزانة سـجين سـياسي أو غيره، سـمحوا لـه بقليـل مـن الأشـياء، بينهـا الـورق والقلـم. في الحقيقة هـو في وضـع أفضـل بكثـير، فالعالـم وراء جدرانـه الأربعة كـفّ عـن الوجـود، أو صـار مجهـولاً في نظره، وعـلى العكس مـن الحـال عنـدي...

أبعث بـ (بورتريـه المتمـدّن). سـترى بنفسـكَ أن سـيوران فيـه هو سـيوران وآخر في الوقـت نفسـه ...

محبّتي.

***

أكيـد أنه ليـس بالأمـر السـهل. أزمـة الكتابـة والتقييم يمـرّ بها

كل واحـد، صديقـي. أكيـد أنـه صراع بـين الرغبـة في الجهر: أنـا هنا! وبـين الوعـي بـأن ليس كل مـا نكتبـه يصلح للطـرح... إنها مسـألة شـائكة جـدّاً، إذ تخـصّ عالمنـا الداخـلي هـذا المتمـرّد الدائـم عـلى الآخـر الخارجي بحقائقـه وقوانينه المسـمّاة بالموضوعيـة... واصلتُ اليـوم ترجمـة النـصّ عـن سـيوران آمـلاً أن أنهيهـا في هـذه الأيّام.

***

غالبـاً مـا أفكّـر بهـذا الزحـف الإسـلاموي النياندرتـالي. وفي بلدان مثـل العـراق ولبنان سـيتحوّل مـن دون شـكّ إلى (طاعـون) كامويّ. فأصحـاب اللحـى (أكيـد أنهـا مصبوغـة ومعطّـرة بمسـتحضرات «الصليبيـين») يرفعـون بـكل صفاقـة الشـعار القديم المشـؤوم (إمّا كل شيء، وإمّـا لا شيء). هـم حذفـوا مـن عقولهم وقلوبهـم خيارات مثـل إبقـاء هوامـش لأقلّيّات فكريـة أو إثنيـة (غير خطـرة)، أو عقد هدنـات مـع البـشر الآخريـن. أبـداً، فأشـياء مـن هـذا القبيـل هـي هرطقـة لا تسـتحقّ إلا الرجـم. والآن لتنـزل رحمـة ما من سـماء ما عـلى روح نـوري السـعيد الـذي كان امتيـازه الوحيـد أن يقطر معمل مُسـيّح عَرَقـاً خصوصيـاً لـه آنـذاك! (عميـل الإنكليز) هذا لـم يسرقْ دينـاراً واحـداً مـن خزينـة الدولـة، ومعروفـة قصّتـه مـع المـصرف العقـاري الـذي رفـض، في البدايـة، منحـه قرضـاً! نعم، نحـن نعيش في زمـن عجيـب، راجـت فيـه كل أصنـاف العمـلات الرديئـة، زمـن السـحالي التي وجدتْ نفسـها بمثـل هـذه الضخامة، لكونهـا تنتمي إلى جنـس الدناصـير التـي لا تهمّ أحـداً هنـاك حقيقـة انقراضها...

***

دكتور دي جي

ســـتكون زيارتـــي الأولى إلى برلـــين. بحثـــتُ في النــت عــن روايــة حديثــة ألمانيــة مترجمــة إلى اللغــة العربيــة. لــم يكــن هنــاك الكثير. أنــا أيضــاً لم يكــن لــديّ في البيــت ســوى غونتغــراس، تومــاس مان، هاينــرش بول، ونيشـــته. أخــذتُ النمســاوي ريلكــة معــي إلى المطار، لأقــرأه فــوق الغيــوم:

إذا وطّدتَ نفسكَ من البداية أن الحياة
ليست سوى ساعات عليكَ أن تقطعها،
فسوف تجد في أصغر الأشياء معلماً
لن تقدر، في عمق أعماقكَ، ردّ الاعتبار له.

من السخرية والسذاجة أنكَ تتحدّث عن الغرابة في بلاد كل ما يحدث فيها هو أغرب من الخيال. ما هو العجيب في أن أكون امرأة ودي جي؟! أم أن الغريب بالنسبة لكَ هو تَرْكي مهنة الطّبّ والتفرّغ لموسيقى التيكنو. الغرابة بالنسبة لي هي الكآبة والضجر ووحشية الإنسان. لا يهمّني كثيراً ما يقولونه عنّي هناك (أوّل امرأة دي جي في البلاد) ما الذي يعنيه ذلك؟ ليس في ذلك أيّ فخر أو امتياز. ما أعرفه أن موسيقى التيكنو هي مخبئي الوحيد المتبقّي ضدّ هجمات الرعب والألم الذي يمزّق حياتي. دعكَ من هذه الأسئلة الصحفية السطحية، واسمعني! ستكون المرّة الأولى والأخيرة التي سأتحدّث فيها بالتفصيل عمّا حدث. ليس لديّ أيّ طموح أو حلم

فنّان، كل ما أريده هو أن تملأ إيقاعات الموسيقى ذهني ٢٤ ساعة، أن لا أصحو، أن لا أعود وأتعرّف من جديد على أصوات ما يسمّونه الواقع.

آسف، لم أكن أقصد أن أزعجكَ بأسئلة غبية. ربّما أسأتَ فَهْم سؤالي. أكرّر أسفي، هل ممكن أن نتحدّث عن المستشفى.

بعد عام من الكارثة، عُيّنتُ في المستشفى كطبيبة متدرّبة. لم أتمكّن من العمل سوى ثلاثة شهور. كانت ردهات الطوارئ مكتظّة بجرحى معارك الجيش مع الجماعات الإسلامية. لولا أهلي وأصدقائي لما تمكّنتُ من الصمود في العمل كل تلك المدّة. كانوا يحاولون أن يرفعوا من معنوياتي ((كوني قوية هديل، وواصلي حياتكِ!)) لم أكن أفهم كيف يمكن أن يواصل أحدهم حياته بعد أن تُنزع طمأنينته مثل ما تَنزع النارُ الجلدَ.

لم أتمكّن من مواصلة الاهتمام بالمرضى وأنا أسمع أنّاتهم وآهاتهم وشكواهم المتكرّرة. كل الأصوات في المستشفى من حولي كانت تتحوّل إلى مسامير من نار، تخترق قشرة دماغي، وتُدمِّره. صرتُ أخلّي الهتفون بأذني، وأسمع موسيقى التيكنو، وأسرق من الأدوية المخدّرة. اشتكى المرضى من حالتي، وتذمّر زملائي. وبّخني مدير المستشفى، وهدّد بطردي. في تلك الأيّام، كنتُ أبحث بعشوائية عن كل أنواع موسيقى التيكنو. استمعتُ في أثناء عملي في المستشفى إلى برلين كولنغ، كارل كوكس، بين كلوك، شارلوت دي وايت، وآخرين.(*)

تركتُ العمل في المستشفى، واعتزلتُ في غرفتي في بيت أهلي. أبي ساند رغبتي في العزلة، ووفّر لي الحماية من تطفّل وفضول الآخرين. في أثناء فترة انغماسي في الاستماع واكتشاف موسيقى التيكنو، كانت صور

(*) Ben Klock - Charlotte de Witte - berlin calling - carl cox

مخاوفي وآلامي تتطاير متناثرة من حولي. الصور الجليدية الحادّة التي كانت تجرح ذهني، كانت بحاجة إلى أن تذوب وتتبخّر. براكين الموسيقى الغاضبة والمعتمة تكفّلت بأمر الصور. لكنْ، ما إن بدأتُ بتأليف الموسيقى بنفسي حتّى اكتشفتُ أنني بحاجة لكل صورة ولكل تفصيل وصوت ورائحة في ذاكرتي. لم أستسلم لذكرياتي عن يوم الكارثة فحسب، بل نبشتُ في صور طفولتي وأحلامي وحياتي. رحتُ أؤلّف الموسيقى لما تعرضه شاشة ذهني. قرّرتُ الهروب من جحيم الآخرين إلى كهف التيكنو، هناك حيث أخربش في صور حياتي، وأرقص حُرّة مع نفسي، فكان القرار هو الرحيل إلى برلين.

أنت بخير؟ يمكنني أن أوقف التسجيل.

(لا تردّ، تشير إلى النادلة! لايمنعني الجو المشحون من استراق نظرة إلى طيز النادلة الرهيب. تطلب الدكتورة بيرة أخرى، وأفعل الشيء نفسه. تواصل الكلام وهي تحدّق بقلق في رجل كحولي يتمدّد فوق الرصيف)

أجلس في الصالة، أقرأ في كتاب طبّيّ عن الدم. الحرارة تخنقني. أشرب الكثير من الماء. درجة الحرارة وصلتْ للخمسين، والكهرباء مقطوعة منذ أن احتلّ الدواعشُ الحيَّ قبل أسبوع. لا ندري ما الذي حدث بالضبط، فجأة اقتحموا الحي، واختفت الشرطة المحلّيّة، وفرض الدواعش حظر التجوال. كنّا نتابع الأخبار من المذياع. احتلّوا الجزء الشرقي بأكمله من المدينة، والجيش يستعدّ لشنّ هجوم مضادّ. هل ستقصفنا الحكومةُ بالطائرات والمدفعية؟! لو استمر الوضع على هذا الحال أسبوعاً، أكيد أننا سنموت من الجوع. لم نأكل منذ ثلاثة أيّام سوى الرز. أكثر ما كان يُقلقني ويُرعبني هو مهنّد. يجلس في غرفته في الطابق الثاني، ولا يكفّ عن مراقبة الجثّة من النافذة. قبل ثلاثة أيّام جاء الدواعش بشاب، وأعدموه بالرصاص في وسط الزقاق، ثمّ قطعوا رأسه. أخذوا الرأس معهم، وتركوا

الجسد يتفسّخ تحت أشعّة الشمس اللاهبة. لم يمضِ حينها شهران على زواجنا أنا ومهنّد. لم أعشقْ من قبل إنساناً مثله، دافئاً وحنوناً وصاحب مخيّلة مثيرة. تعرّفت عليه قبل سنوات في معرض فنّيّ في بغداد. كان المعرض مخصّصاً لنحّات شابّ، ترك أعماله النحتية القليلة، ورحل. مات في حادث مروري وهو في الطريق لزيارة أخيه في السجن. كان أخوه سجيناً عند الجيش الأمريكي لانتمائه لجماعة المقاومة الإسلامية.

تشاجرتُ مع مهنّد أكثر من مرّة. منذ أن قطعوا رأس الشابّ، وهو يقلّب بين يديه كاميرته الفتوغرافية ((كل ما أريده هو أن أخرج للزقاق، وآخذ كم صورة للجثّة. أحتاج فقط ١٠ دقائق)) لم أصدِّق ما قاله! حاول أن يشرحَ لي دوافعه لالتقاط الصورة. لم يُقنعني كلامه المثالي. قلتُ له والغضب يتملّكني: حبيبي هنودي الحبيب.. «بس هاي ١٠ دقائق ممكن تطير راسك، ويمكن يلزمونك ويجوون يغتصبوني.. أنت تفهم لو ما تفهم!! ما أعرف شنو شكله ومعناه بهذه الظروف دافعك الإبداعي أو الإنساني! شنو تگول انت؟! يا دوافع ويا إنسانية.. وهاي كم لحظة ولحظة إنسانية بشعة تريد تصوّرها حتّى نتعلّم من الكابوس.. المجازفة بمثل هذي الظروف يعني انتحار.. عيد كلامك مرّة ثانية الله يخليك حتّى اسمع زين! انت تهذي وما تعرف شنو تگول ، انت اكيد جنيت.. وآني وانت وحياتنا؟ اسمعني زين، ولا تصير سخيف.. راح ترجع الحكومة كم يوم وتسيطر على الوضع ويخلص هذا الكابوس الخره ...

لم يصغ لي، وكرّر كلامه ((محد راح ينتبه لي، مراقب الشارع صار أيّام. ماكو شي! يعني كل يومين تمر منّا سيّارة الخره الدواعش لو ما تمر. لا تخافين!))

قلقي يمنعني من التركيز في مواصلة قراءة كتاب الدم. أسوي شاي، وأصعد إلى الطابق الثاني ((تعال حبيبي شاي أبو الهيل لحبيبي هنودي)) أغلق ستارة النافذة، وأبوسه من شفايفه الطيبات ((بليييس حبيب عمري.. انسى موضوع الصورة والجثّة)) نتباوس بوسات طويلة، ونشمّ بعضنا وندوخ، فيرجع نور الكهرباء (يس!) أصيح محتفلة. أوّل شي نسوّيه هو شحن الأيفونات الميتة. تصلنا في الحال عشرات الرسائل من الأهل والأصدقاء للاطمئنان على أحوالنا. أُشغل المبرّدة في غرفة النوم، وأصيح على مهنّد. نتعرّى، ونمارس الجنس في هواء المبرّدة المنعش. في الليل، ينقطع التيّار الكهربائي من جديد. أنصح مهنّد أن لا يستخدم هاتفه في سماع الموسيقى حتّى ما يخسر شحن البطّارية. لم يهتمّ! وضع الهتفون في أذنيه، وراح يسمع موسيقى التيكنو التي يُدمن عليها. لم أكنْ حينها أستسيغ التيكنو كثيراً. كنتُ مغرمة بالأغاني العربية القديمة المليئة بالشجن والرومانسية. كان مهنّد قد ترك دراسته في كُلّيّة الهندسة، وتفرّغ لهواياته. الرقص الحديث وموسيقى التيكنو والفوتوغراف. كان يبحث ويطوِّر هواياته من دون دراسة أكاديمية. كنّا نعتمد على والدي وأخ مهنّد في أمور معيشتنا. كل واحد منهما خصّص لنا راتباً شهرياً. أبي يعمل طبيباً جراحاً، وأخو مهنّد تاجر حديد. كنّا محظوظين، عائلتي وعائلة مهنّد كانتا منسجمتين، وكانا يغمراننا بالمحبّة والحنان.

في صباح اليوم التالي، كنتُ مستلقية في السرير، أفكّر في الدواعش الذين هبطوا علينا كالشياطين من سماء الله. سمعتُ باب البيت الخارجي يُفتَح. قفزتُ من السرير مذعورة، وركضتُ إلى الغرفة في الطابق الثاني. شفت من الشبّاك مهنّد رايح بخوف وحذر للجثة. أخذ أكثر من صورة. أردتُ أن أصيح عليه من النافذة، لكني خفتُ أن يسمعني أحدهم. اقترب

مهنّد من الجثّة، وأخذ صورة لموضع فصل الرأس. ثمّ ابتعد إلى الوراء، ليظهر عمق الزقاق والجثّة معاً. بعدين رجع وسجد عند قَدَمَي الجثّة، وراح يصوّرهما. عندها سقط مهنّد متكوّراً على نفسه قرب جثّة الشابّ. مرّت دقائق وأنا متسمّرة في مكاني أراقب المشهد من النافذة، وكأنه مشهد من فيلم عن حياة أحدهم! لم تصدر أي حركة عن مهنّد. لقد مات! ربمّا يكون فاقداً للوعي. أكيد أنها رصاصة قنّاص. سيصل الدواعش في أية لحظة. هل سيفصلون رأسه؟ هل سيحرقون جثّته؟ اتصلتُ بوالدي. صُدم أبي، وطلب منّي متوسّلاً أن أبقى في البيت. قال إن قوّة مكافحة الإرهاب تحشد قوّاتها الآن على مشارف الحيّ، وستقتحمه في أي لحظة. قلتُ له وأنا أنتحب باكية (شحن بطارية تلفوني راح يخلص، يمكن مهنّد بعده حي!) وقطعت الاتصال.

حاولتُ أن استجمع شجاعتي للخروج وسَحْب مهنّد للبيت. لكن الرعب كان يشلّني. لن يتركوا جثّته هناك، سيأتون، ليتعرّفوا على هويّته. ربمّا يفتّشون كل بيوت الزقاق. هل سيشي الجيران بهوية مهنّد. رحتُ أتنقّل في غرف البيت بجنون، من أجل أن أُخفي آثاره. جمعتُ كل صور مهنّد الفتوغرافية من الأدراج والجدران وعدساته وكل ما يتعلّق بالتصوير الفوتوغرافي. نزلتُ إلى غرفة النوم، وجمعتُ صورنا المشتركة من جرّارات خزانة الملابس، ومن الجدران. ملأتُ صندوقاً كارتونياً كبيراً بالصور. خرجتُ إلى حديقة المنزل الخلفية. حفرتُ بالمسحاة أسفل شجرة الليمون، وطمرتُ صندوق الذكريات. جلستُ أراقب مسحاة الدفن، وذهني مشتّت. صعدتُ إلى الطابق الثاني للتأكّد من أنني لم أنسَ شيئاً. عثرتُ على هاتف مهنّد. كان يستمع آخر مرّة إلى رودهاد(*). وضعتُ الهتفون في أذني،

Rødhåd (*

وأصغيتُ. واصلتُ الاستماع إلى الموسيقى وأنا أراقب من النافذة مهنّد جامداً من دون حراك قرب الجثّة المذبوحة. إيقاع الموسيقى حرّك في أعماقي مشاعر الغضب واللامبالاة. بقيتُ أستمع إلى أن غابت الشمس. قرّرتُ إعادة مهنّد إلى البيت. فكّرتُ في عمل نقّالة بعجلات، لكي أتمكّن من سحبه بسهولة. كل ما أحتاجه لوح خشبيّ، وأربع عجلات. قمتُ بفَكّ دولاب الملابس للحصول على اللوح الذي سأستخدمه كنقّالة. كان اللوح الجانبي للدولاب متيناً ومناسباً جدّاً. كانت المشكلة في الحصول على عجلات للنقّالة. درتُ في أرجاء البيت. كنّا قد اشترينا قبل مدّة طبّاخاً كهربائياً يتحرّك على عجلات أربعة. استغرق الأمر منّي وقتاً وجهداً كبيرَيْن. قلب الطبّاخ الثقيل، فَكّ عجلاته، وتركيبها في النقّالة.

كانت رصاصة القنّاص قد اخترقتْ رأس مهنّد من الجانب الأيسر. وضعتُهُ على النقّالة، وسحبتُهُ. كان صوت العجلات فوق الإسفلت يصدر صوتاً مريعاً. في منتصف المسافة، كُسرت إحدى العجلات، وصار سحب جسد مهنّد مستحيلاً. سمعتُ صوت طفل يبكي بحرقة، ثمّ شاهدتُ ثلاثة قطط صغيرة تراقبني. كنتُ مرعوبة، وأتصبّب عرقاً، حين رأيتُ جارنا أبا بكر يفتح باب بيتهم الخارجي، ويتّجه نحوي. ساعدني في حمل مهنّد إلى البيت. دفنّاه في الحديقة قرب الصور والعدسات والذكريات. طلب منّي أبو بكر أن أمكث في منزلهم مع زوجته حتّى يتحرّر الحيّ من كابوس الرعب.

هل أنتَ أحول؟!

نعم، تقريباً، عندي حَوَل جزئي بسيط في العين اليمنى.

تحدّق دكتور دي جي في عيني للحظات، ثمّ تغادر من دون أن تتفوّه

بكلمة. أفحص التسجيل في الآيفون، وأتأكّد من أن المقابلة سارت على ما يرام. تعود النادلة لأخذ زجاجات البيرة الفارغة. أحاول أن أختلق حديثاً معها، لكن خجلي يلجمني. لا أدري حقّاً إن كنتُ خجولاً إلى هذا الحدّ، ربّما خجلي يشبه مكعّبات الثلج في الكاس التي تذوب مع القليل من الحركة والقليل من الدفء. كل ما أحتاجه هو القليل من الحرارة في جسدي، فيتحرّر لساني وأغرّد. في أطفال الزمن (تقويم للتاريخ البشري) يكتب إدواردو غاليانو عن صناعة المرض ((صحّي؟ غير صحّي؟ يعتمد هذا كله على وجهة نظركَ. فمن وجهة نظر الصناعة الدوائية قد تكون الصحة السيئة جيّدة جدّاً. خذ الخجل مثلاً. كانت هذه الصفة في الشخصية مقبولة، وحتّى جذّابة. كان الأمر هكذا حتّى صارت مرضاً. في ١٩٨٠ قرّرتْ جمعية الطّبّ النفسي الأمريكية أن الخجل مرض نفسي، وضمّنتْهُ في كتيب الأمراض النفسية الذي نشرتْه، والذي يحدث دورياً على يد كهنة العلم الرفيعين. يتطلّب الخجل دواء مثله مثل الأمراض الأخرى جميعها. وحالما انتشرت الأنباء، جمعت شركة بيك فارما ثروة من بيع الأمل لمرضى مصابين بـ الفوبيا الاجتماعية، والحساسية من الناس، ومشكلة طبية حادّة)).

أطلب بيرة أخرى. وأسأل (إنها زيارتي الأولى لبرلين، أنا مهتمّ بموسيقى التيكنو، هل تعرفين أي نايتكلوب جيد في هذه الأرجاء؟!) (أكيد، أنتَ تمزح!) تردّ النادلة، وتنشغل بتنظيف طاولة قريبة. ثمّ تلتفت لي، وتقول ساخرة (أنتَ تقابل دكتور دي جي، وأنتَ لا تعرف أين ستكون حفلتها هذه الليلة؟ أنتَ ظريف حقّاً!).

أعود إلى الفندق. آخذ دوشاً، وأستلقي عارياً في السرير. أفكّر في حماقتي! من أين لي أن أعرف أن النادلة تعرف الدي جي دكتور؟! أضع احتمال أن النادلة ستأتي الليلة إلى حفلة الدكتور. تتحوّل الاحتمالات إلى

أحلام يقظة. أُلبس النادلة ثياباً مثيرة سيكسية من دكّان مخيلتي، وأُدخلها إلى النايت كلوب. أقترب منها حاملاً كأسي، وأسخر من محاولتي الغبية، في محاولة اختلاق الحديث معها، فتضحك! ننسجم مع بعضنا. نتعاطى المخدّرات، ونرقص على إيقاعات تيكنو قصّة حبّ دكتور دي جي. نعود إلى الفندق معاً، ونسخن بعرينا هذه الشراشف البيضاء النظيفة والباردة. وربّما تصير الشراشف لاحقاً شرنقة حب. نتزوّج وننجب طفلة جميلة، ونسمّيها أنجيلا ميركل.

أشغّل في اليوتيوب مقطوعة للدكتور دي جي، اسمها نظرة جثتك، وأخضّ زبّي، وأنا أرسم في سقف الغرفة طيز النادلة الرهيبة.

عـدتُ إلى سـيوران، بالضبـط ترجمـة فصـل (بورتريـه الإنسـان المتحـضّر). لا أظـنّ أن هنـاك بيننا، كتّـاب العربية، مَنْ يسـبر، وبمثل هذه الواقعيـة والاستكشـاف الفذّ، عاهاتنـا ومفارقاتنا كوجـودٍ قام ويقـوم عـلى عامـل الصدفـة، مثـل هـذا الروماني المنقوع بـكل ماء غـير مقـدّس /غـير كنسي!

ترجمـتُ (رابسـوديا فنلندية) لجـون آشـبيري. كان عراكي معها طويـلاً. فهذا الشـاعر الكبـير حقّـاً يفعـل أمرَيْـن محبَّبَـيْن إليّ: عدم التفكـير بالقـارئ في أثنـاء مخاضاته + الاقـتراب، ومـن أكثـر مـن جهـة واحدة، مـن سـيوراننا...

***

عزيـزي حسـن. أنـا تركـتُ التبـغ لأكثـر مـن عـشر سـنوات، ممّـا يعنـي أنـي قضيـتُ عـلى هـذه العـادة، وصرتُ لا أفتقدهـا بعد قهـوة الصبـاح! إلا أن عـادات جديدة أخـذت تحفر سـككها في الدورة اليوميـة. بالطبـع معظمهـا عـادات غـير مؤذيـة، وبعضهـا ممتـع ومفيـد، ويتجـاوب مـع أكثر مـن بُعـد في مثل هـذا الكيان المتشـظّي (باسـكال أخذ بالتعميم، وشـبّه الإنسـان بالقصبة المفكّـرة المرتجفة في الريـح ...). أنـا أجلـس طويلاً أمـام الكومبيوتـر الذي صـار بوفاء الكلـب! كمـا أنـي أكـنّ الامتنـان لـه، فقـد تحـوّل إلى ربـاط حريري يشـدّني بمَـنْ أحبّهـم ... هـذه مقدمـة لا أريدهـا أن تكـون عاطفية (وقعـتُ مـن زمـان ضحيـة لنصيحـة ألبـير كامـي: لا ينبغـي أن

نعمّـق عواطفنـا، بل مُجـرّد تقريـر واقع حـال)، فقـد اعتـدتُ، كما السـيجارة في تلـك السـنين، عـلى مراسـلتكَ، لدرجـة أنـي أشـعر بـ (وجـوب) إخبـارك بجـدول أعمـالي الكتابية!

محبّتي

***

ذباب ويوتيوب

قبل ذهابي إلى سوق الخضار لمقابلة بائع العصير، زرتُ سوق الغزل، وتجوّلتُ فيه لأكثر من ساعة. سوق الغزل سوق شهير يقع وسط بغداد، وهو مختصّ ببيع الطيور والحيوانات الأليفة والأفاعي وأسماك الزينة وبعض الطيور البرّيّة النادرة، وكل أنواع علف وطعام الحيوانات. شيّد السوق في زمن العثمانيين، وكان حينها مختصّاً بتجارة الغزل. من أشهر معالم السوق جامع الخلفاء، ودير الآباء الكرمليين. بعد الغزو الأمريكي للبلاد تعرض سوق الغزل لأعمال عنف إرهابية عديدة. لكنْ، رغم سوء الأحوال الأمنية، واصل السوق فتح أبوابه أيّام الجمع كعادته. ومن الحوادث الإرهابية التي تعرّض لها السوق بعد الاحتلال، وفي فترات زمنية مختلفة، هي: انفجار عبوتين ناسفتين وُضعتا في كيسَيْن، حيث قُتل ٤ أشخاص. سقوط قذائف هاون على السوق، فقتل ٣ أشخاص. قتل ١٥ شخصاً في انفجار قنبلة، وُضعت في قفص للطيور. هجوم مسلّحين مجهولين أدّى إلى مقتل ١٣ شخصاً. تفجير عبوات ناسفة قتلت ٤٦ شخصاً، وأصابت ٨٠ آخرين.

كثيرون يعرفون فيديوهات رجل اليوتيوب الشهير والمحبوب، لكنّ قلّة من الناس مَن يعرف الرجل عن قرب. كنّا نزلاء الزنزانة نفسها في السجن. خرجتُ أنا من السجن قبل ثلاثة شهور، ودخلتُ سجن المرض. شخّص الطبيب إصابتي بسرطان الرئة. الحياة صدمة، وحدها الأوهام تعيننا على

تقبّل قسوتها وغرابتها، هذا ما كان يقوله رجل اليوتيوب. أظنّ أن خوفه من الحياة والآخرين دفعه، منذ أيّام طفولته، للاختباء في ألعاب حياتية غريبة، كان يبتكرها ويحطّمها بنفسه. وكان الضجر عدوّ مخيّلته اللدود.

كل صباح أدفع عربة العصير مسافة ٢ كم من بيتي حتّى السوق. أشعر بهدوء كبير يحتلّ كياني وأنا أعصر الفواكه في الخلاط. زبائني من المتسوّقين والباعة يتفسّخون أسفل الشمس الحارقة. يتعرّقون ويعطشون، يشربون العصائر الطازجة، ويشكرون الله، ويطلبون منه معجزة لتتحسّن حياتهم. سُجنتُ أنا بسبب الرشاوي التي تلقّيتُها في أثناء عملي كموظّف في وزارة التجارة. خرجتُ من السجن مفلساً ومُجبرَاً على دفع ضريبة غيابي خمس سنوات عن زوجتي وأولادي الذين كبروا وصاروا طلاباً في الجامعة. ساعدني أخو زوجتي على شراء عربة بيع العصائر هذه. حلمي الوحيد هو أن أموتَ بعد أن أمتصّ آخر قطرة غضب من عائلتي التي عانت بسبب رعونتي. صورة صديقي رجل اليوتيوب لا تفارق مخيلتي. لا أنكر أنني كنتُ سعيداً برفقته كونه رجلاً مشهوراً ومحبوباً حتّى وهو في داخل السجن. لكن رجل اليوتيوب بالنسبة لي كان بمثابة طوق نجاة ومدرسة. تعلّمتُ منه الكثير. القناعة بوجودي في هذه الحياة، ومعرفة قيمة مخيلتي مقارنة بمخيلة الصراصير التي كانت تملأ السجن (الحياة هبة، رعشة لذيذة، داخل الصراصير وداخلكَ. رعشة داخل السجن أو رعشة داخل الحُرّيّة، المخيلة هي التي تحدّد الفارق بين رعشة لاعب وآخر في هذه الحياة) مازالت صدى كلماته تتردّد في ذهني حتّى يومنا هذا.

تعايش بصورة جيّدة مع أجواء السجن.

في البداية، لم يكن الأمر كذلك. عانى كثيراً في الشهور الأولى بسبب الإدمان. كان مدمناً مزمناً على اليوتيوب الذي انقطع فجأة عن حياته. أخبرتُهُ أن السجن عبارة عن سيرك للفساد، لو حصلتَ على بعض النقود ستتمكّن من الحصول على هاتف خلوي، وتنعم بالنت، ويعود لكَ اليوتيوب. لم يكن في تلك الأيّام ذاك الرجل الذي يمتلك الحكمة وموهبة التأثير على الآخرين بطاقة المحبة التي كانت تشعّ منه. كان ضائعاً بسبب حرمانه من مخدّره اليوتيوب. لكنْ، ما إن حصل عليه من جديد، حتّى صار رجل اليوتيوب رئة السجن ومخيلته. حتّى المساجين العنيفين كانوا يقدّرونه، ولا يتحرّشون به. كانت أخته نغم لا تنقطع عن زيارته. لم يمضِ سوى ثلاثة شهور على سجنه حتّى قرّر أن ينشر كل فيديوهات سرقاته التي ارتكبها طوال خمس سنوات. كان يحتفظ بكل الفيديوهات في فلاش مموري. كشف لأخته عن مكانها، وطلب منها أن تخصّص قناة خاصّة له في اليوتيوب. لم يكن قلقاً من انتشار الفيديوهات، كان قد اعترف للمحقّقين بكل تفاصيل سرقاته. بعد ثلاثة شهور فقط، حقّقت قناته في اليوتيوب، التي تحمل اسم الذبابة، نجاحاً ساحقاً بعدد المشاهدات. وبعد عام واحد، جاءتْه شهرة واسعة بعد أن أخذت الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي والتلفزيونات تتحدّث عنه. كسب تعاطف الناس، وصار له معجبون كثر، راحوا يراسلونه ويزورونه في السجن. وحين عرف معجبوه بمشاكله في السجن، أخذوا يتبرّعون له بالأموال، فحقّق رجل اليوتيوب ما كان يحتاجه. دفع للسّجّانين (كانوا من معجبيه أيضاً)، وحصل على آيفون واشتراك في النت، وعاد يستنشق مخدّره اليوتيوب من جديد.

كنت محلّ ثقة رجل اليوتيوب، وصديقه المقرّب.

بعد سقوط الديكتاتور، تغيّرت حياته. الأمريكان الغزاة تسبّبوا في

انقسام حادّ في المجتمع العراقي. ناس فرحوا وقالوا تحرير، وآخرون غضبوا وقالوا احتلال. تشظّى تمثال الديكتاتور، فتشظّت معه البلاد. حدثت انقسامات عِرْقية ومذهبية وطائفية. اشتعلت الحروب الأهلية الوحشية، واستُبدل بالمنطق والحكمة والتعايش الكراهية والسكاكين والرصاص. لم تكن البلاد أصلاً تعني رجل اليوتيوب لا قبل الاحتلال ولا بعد التحرير. كان رجلاً غارقاً في نفسه. انطوائي وذكيّ ومسالم. أنتَ تعرف أن النت لم يكن جزءاً من حياتنا في أثناء حكم الديكتاتور. كان دخول النت إلى البلاد بالنسبة له هو الهدية الأثمن في حياته. اكتشافه لليوتيوب كان بمثابة اكتشاف معنى لحياته.

وُلد رجل اليوتيوب في عائلة مكوّنة من ستّ بنات. رغم فقر عائلته، كان مدلّلاً كونه الولد الوحيد والأصغر سناً. بعد أن أنهى دراسته في الإعدادية، دخل إلى كُلّيّة التربية قسم الجغرافية. قرّر فجأة هَجْرَ بيت العائلة. كانت صدمة كبيرة لأحبّائه. قاوم مشاعرهم الغاضبة والحزينة، وصمّم على العيش وحيداً. استقرّ في فندق رخيص في شارع الرشيد. كانت العقبة الأساسية أمامه هي الحصول على عمل لتدبير أمور حياته. قال لي مرّة إنه لولا شبح الخدمة الإلزامية العسكرية، لترك دراسته الجغرافية في الكُلّيّة. في بداية الأمر، مشّى أمور حياته بعمله منظّفاً في الفندق الذي سكن فيه. كل يوم جمعة كان رجل اليوتيوب يزور سوق الغزل القريب من الفندق. فهم من خلال زياراته المتكرّرة للسوق أن أغلب الباعة والمشترين كانوا يشكون من غلاء أسعار طعام الحيوانات والطيور. أكثر المتذمّرين كانوا بائعي كتاكيت الدجاج الذين كانوا بحاجة إلى أن تكبر وتنمو كتاكيتهم، ليستفيدوا من بيضها ولحومها. لسبب ما بقيت مسألة طعام الكتاكيت عالقة في ذهن رجل اليوتيوب. ذات ليلة دعاه جاره المصري في الفندق للعشاء

والشرب. كان المصري يعمل في بناء المنازل، ويعيش منذ سنوات طويلة في العراق. طبخ له المصري أكلة الملوخية بالأرانب. شربوا زجاجَتَي جن، فتلخبطت أمور رجل اليوتيوب، وتقيّأ الأرنب. أخيراً اضطر العامل المصري إلى طلب سيّارة إسعاف. يقول رجل اليوتيوب: عندما كنتُ ممداً في سيّارة الإسعاف، راحت ذكرياتي إلى سنوات الطفولة. كانت أمّي تربيّ الدجاج في سطح المنزل. كانت تسلية طفولتي هي وضع الكتاكيت في حضني، وقتل الذباب الكثير الذي يطنّ من حولي. وكانت الكتاكيت تلتهم الذباب الميت بنهم. ما إن أُدخلتُ إلى صالة الطوارئ حتّى خطرتْ في بالي فكرة بيع الذباب في سوق الغزل. تردّدتُ أوّل الأمر، قلتُ إن الجميع بإمكانه توفير الذباب الذي ينتشر في كل مكان. لكني توقّعتُ أن أغلب الناس ليس لديهم الوقت الكافي ولا المزاج لاصطياد كمّيّات كافية من الذباب. ثمّ إنني سأبيع الذباب بأسعار زهيدة! كانت عملية جمع الذباب من قرب حاويات الزبالة متعبة وصعبة ومقزّزة. ذهبتُ إلى سوق الغزل، وافترشتُ الأرض بأكياس بلاستيكية شفّافة مليئة بالذباب. أخذتُ معي أيضاً ثلاثة كتاكيت كبرهان للزبائن. تجمهر الناس حولي، وراحوا يتندّرون ويسخرون من بضاعتي. رحتُ أرمي الذباب للكتاكيت، وأشرح للجمهور فوائد الذباب المليء بالبروتين. راقب الناس الكتاكيت الجائعة وهي تأكل الذباب بسرعة وشغف. لم يمض سوى شهر واحد على عملي في السوق، حتّى انتشرت تجارة بيع الذباب، وصار لي منافسون عدّة.

سقطتْ بغداد، فتوقّف عن بيع الذباب.

مع دخول الأمريكان إلى بغداد، انتهى الحصار الاقتصادي، ودخل كل شيء. دخلتْ شركات القتلة والأسلحة والدبّابات وشركات النفط

العالمية. دخلتْ شركات الطعام والسّيّارات والأدوية والسجائر والكحول. دخلتْ شركات الإرهاب والسّيّارات المفخّخة والمافيات. دخلتْ شعارات الديمقراطية وحقوق المرأة والمساواة. دخلتْ شركات الطائفية والمذهبية والتعصّب. دخل كل شيء إلى البلاد ما عدا السلام الذي بقي منتظراً عند الباب متردّداً في الدخول. أُلغي في البلاد التجنيد الإلزامي، فترك رجل اليوتيوب دراسة الجغرافية. اشترى كمبيوتراً، ودخل اليوتيوب، ولم يخرج منه بعد ذلك. اعتكف في غرفته في الفندق، مبحراً في عالم الفيديوهات. كان يتفرّج على كل شيء. السخيف والعميق. المضحك والمبكي. المخيف والمسلّي. العلمي والغرائبي. الشخصي والعامّ. بدا له وكأن العالم فيلم جماعي طويل بلا نهاية، فيلم عظيم واحد أُنتج لجمهور، يتكوّن من مشاهد واحد، يختلي في غرفة.

ممكن تعملي كوكتيل عصير بس من دون بطّيخ، رجاء! السوق مزحم جداً اليوم.

عادي هذا الزحام.. يمكن أنستْكَ الغربة كل شيء، «بعد بكرة عيد الفطر!» أتمنّى أن لا ينسف أحد أبناء الله المتعصّبين نفسه في السوق، ويُحوّلنا إلى لحم مثروم. تجمّعات الناس وجبة شهية لمصّاصي الدم الطائفيين. تفضّل، هذا عصيركَ، بارد ومنعش! هل شاهدتَ فيديو سرقة أحذية المصلّين؟! هو من أحَبّ الفيديوهات على قلبي، كان رجل اليوتيوب يسرق الأحذية من الجامع وهو يقول ((أكيد ما راح تحتاجون أحذيتكم من تدخلون لجنتكم!))

سجّل بالصوت والصورة كل ما سرقه.

أكيد، ولعه في عالم الفيديو كان دافعه الأوّل. أوكي، اسمع! مرّة أخرى

عادت مشكلة توفير الفلوس عائقاً أمام رغبة رجل اليوتيوب في العزلة. كان عليه أن يدفع أجرة الفندق واشتراك النت، وأن يوفّر طعامه وشرابه. لم يكن يدخّن، ولا يشرب الكحول، وكان نادراً ما يشتري ملابس جديدة. مصاريفه كانت ثابتة تقريباً ومحدّدة. كانت فكرة أن يعثر على عمل، وأن يقضي ساعات عبثية طويلة بعيداً عن اليوتيوب تثير رعبه، لهذا قرّر أن يلجأ للسرقة. كان يحاول قدر المستطاع أن يختار سرقات لا تحصل ضرراً كبيراً في ضحاياه. أحذية المصلّين، ملابس، دجاجة، راديو، كُتُب. فقط كل ما يمكنه أن يموّل عزلته مع اليوتيوب من طعام وحاجات بسيطة أخرى. أما ثمن أجرة الفندق، فكان يخصّص لها سرقة خاصّة مؤذية! كان يسرق لابتوباً أو ساعة ثمينة مثلاً. كان يُثبّت كاميرا فيديو صغيرة في قبعته التي يتنكّر فيها في أثناء السرقة، ويخفي مايكاً في ملابسه، ليسجّل كلامه. كلام عن الحياة والبلاد والعالم والإنسان وعن نفسه هو. كان كلامه ساخراً وممتعاً. مرّات كان يحكي نكتة وهو يسرق مثلا عربة طفل.. في إحدى الفيديوهات كان يجوّد آية من القرآن وهو يقود بايسكلا ، سرقه من قرب مدرسة. مرّات كان يروي قصّة قصيرة، ومرات كان يدندن بأغنية شعبية قديمة.

لم ينشر كل الفيديوهات.

أنا شاهدتُ فيديوهاً واحداً فقط غير منشور. أعجبني كثيراً! في إحدى الأيّام، كان عليه أن يسطو على إحدى البيوت من أجل ثمن أجرة الفندق. تفحّص حياً شعبياً قريباً، فعثر على بيت، كان خالياً من أهله. تسلّل إلى البيت ليلاً. يبدأ كلامه في الفيديو مباشرة بعد أن يتسلل من نافذة غرفة المطبخ. يضفي رجل اليوتيوب جواً من الرعب الكوميدي وهو يتجوّل ببطء في أرجاء البيت المظلم. يسلّط ضوء اللايت على الأثاث، ويقول هامساً (وين إيجار غرفتي القذرة؟). يفتح باب غرفة، فيعثر على امرأة

عجوز ممدّدة في سريرها (ماء.. ماء)، تقول المرأة بصوت خافت ما إن تشعر بحضور رجل اليوتيوب. يقترب منها، ويسلّط الضوء على تجاعيد وجهها شبه الميت. يسألها إن كان هناك أحد غيرها في البيت؟ (ماء.. ماء)، تكرّرُ العجوزُ طَلَبَهَا. يتفحّص رجل اليوتيوب الغرفة، ويخرج ليتأكّد من خُلُوّ المنزل من أشخاص آخرين.

استمتعتُ كثيراً بفيديو العجوز، وبكيتُ حين شاهدته أوّل مرّة. بدا كل ما يقال ويحدث في بقعة ضوء اللايت الخافتة، ساحراً وعاطفياً ومخيفاً في الوقت نفسه. يجلب رجل اليوتيوب الماء، ويسأل العجوز إن كانت بخير؟ ولمَ هي وحيدة في الظلام؟ لم تكن العجوز خائفة، وكأن رجل اليوتيوب هو من أهل البيت. تخبره أن الحي الذي يعيشون فيه يتعرّض بين فترة وأخرى إلى هجمات طائفية خاصّة في الليل. قبل يومَيْن، دواها خلص! أطفأ ابنها مصابيحَ البيت لتأمين البيت، ليبدو خالياً من أهله، وذهب للبحث عن الدواء. لكن الابن لم يرجع! كانت العجوز مشلولة وطاعنة في السن. تطلب من رجل اليوتيوب أن يفتح دولاب الملابس القريب من سريرها. تُخبره عن مكان قلادات وخواتم الذهب خاصّتها، وتقدِّم له عرضاً: خذِ الذهبَ كله! صار لي يومَيْن بدون أكل. ما أظنّ راح أعيش هواي، أحسُّ أصابع الموت ملفوفة حول رقبتي. جوعانة ومشتهية شوربة. سوّيلي شوربة عدس، وخذ الذهب كله، وروح بسلام!

رغم التوتر ورهبة المشهد الذي يضفيه صوت العجوز الضعيف في الظلمة، ضحكت حين يقول رجل اليوتيوب بخجل طفولي (آسف كلش.. بس أنا ما أعرف أسوّي شوربة عدس)

الأمر سهل، تقول العجوز. اذهبْ أوّلاً إلى المطبخ، وانقع كمّيّة من

العدس في الماء، ربمّا كمّيّة كافية لشخصَيْن، أتمنّى أن تشاركني تناول الشوربة. يُنفّذ رجل اليوتيوب الطلب. يضع العدس في الماء، ويعود إلى جوار العجوز. ينتبه إلى أن ضوء اللايت يُزعج عينَي العجوز، فيطفئه. في الظلام، تُحدِّثه العجوز عن شبابها في سبعينيات القرن الماضي. حين كانت مهندسة معمارية طموحة ومناضلة سياسية. أيّام ما كانت بغداد مزدهرة وآمنة. (هل تظنّ أن الميليشات قتلتْ ابني؟) تسأل العجوز (سأذهب لطبخ الشوربة)، يردّ رجل اليوتيوب. أوّلاً سخّنْ قليلاً من الزيت في القدر، تشرح له العجوز، احمسْ نصف بصلة مقطّعة في الزيت. صفّي العدس من الماء، واحمسْه مع البصل والزيت. خلّي ماء حار في القدر بمستوى العدس مثل ما نطبخ الرز. اتركْه على النار حتّى ينشف الماء. بعدين خلّي رشّة كركم وكاري وقليل من الكمّون، واغمر العدس من جديد بالمي الحار.

نشاهد رجل اليوتيوب يعدّ الشوربة على ضوء اللايت بإرباك من دون أن يتكلّم أو يعلّق، كما هي عادته.

يحتسيان الشوربة معاً. يأخذ رجل اليوتيوب من الذهب قلادة واحدة، ويرحل. من غرفته في الفندق، يتّصل بالمستشفى كشخص مجهول، ويطلب سيّارة إسعاف على عنوان بيت العجوز. أعطني سيجارة من فضلك!

أكيد، تفضّل! أتمنّى أن نتمكّن يوماً من الحصول على هذه الفيديوهات.

الوحيدة التي تعرف مكانها هي أخته نغم.

يقولون إنه طُعن في السجن، لأنه صوّر إسلاميين يمارسان الجنس.

عن إذنك، ليس لديّ المزيد لأقوله لك! يجب أن أهتم بعملي...

أوكي! تظنّ أن أخته ستوافق على أن أجري معها مقابلة.

مو شغلي! شيء أخير أقوله لك. في فيديو سرقة العجوز. قبل أن يغادر رجل اليوتيوب الغرفة، تقول له العجوز إن شخصاً في هذا العالم اسمه روبرت هايلان قال (لا تعوِّل على الاثنَيْن: الحُرّيّة والطمأنينة. فإمّا الأولى، وإمّا الثانية) كتب رجل اليوتيوب تلك الشذرة بالطباشير على جدار الزنزانة. وكنا في بعض الأحيان نُلحّنها ونُغنّيها.

ربّمـا أشرتُ في رسـالة سـابقة إلى نيّتـي في ترجمة نصّ لسـيوران، كرّسـه للـكلام عن صديقـه بنيامـين فوندان الـذي كانـت اهتماماته الرئيسـة الفلسـفة والفلـم. ربّمـا تعرفـه: يهـوديّ مـن مولدافيـا. اسـمه الحقيقـي بنيامـين فيهزلـير ١٨٩٨ - ١٩٤٤، اعتقلـه النازيون في أثنـاء احتـلال باريـس، ونقلـوه إلى معسـكر المـوت في داخـاو مـع شـقيقته. توسّـط سـيوران وعـدد مـن المثقّفـين مـن أجـل إنقـاذه إلا أنـه اشـترط أن يُطلـق سراح شـقيقته أيضـاً. النازيـون رفضـوا بالطبـع. وكان مصـيره الغـاز والحـرق هنـاك. بـدأتُ الترجمـة، وقد أنهيهـا اليـوم. عزيـزي حسـن. كـن رواقيـاً! واتـركْ خرافـة المـوت! لا منجـل هنـاك، ولا هـم يحزنـون! ثمّـة صـوت فيّ، وهـو جهـوري أحيانـاً، يجـزم بـأن هـذا المـوت مُجـرّد إعـادة تأثيـث للكينونـة!

محبّتي

***

أعـود إلى خـوان مـيرو: ليـس هنـاك أسـهل مـن التدليـل عـلى أن النـزوات ترافـق الحيـاة، وحتّـى في مراحلهـا الأخـيرة! بهـذه الصورة (عـدتُ) إلى صديـق قديـم، وإلى فنّـه... أبعـث إليك بنصّ وصـور، على أمـل أن تعدّهـا كمـا الكـرسي الـذي يَلقـى الإنسـانُ المتعـب الراحـةَ فيـه (هـذا تعريـف مشـهور لهنـري ماتيـس عـن التصويـر...). في الحقيقـة يبقـى مثـل هـذه التعريـف راهنـاً، بـل يـزداد مـع تعمّـق الإيمـان بـأن لا أحـد قـادر عـلى محـو قتامـة هـذه الحيـاة (كأن

اليـأس واللامعنـى لا يكفيـان!). إذنْ، انظـرْ، يـا عزيـزي، إلى أعمـال هذا الإسـباني الـذي لا يتعب أبـداً من التسـكّع في الكهوف السـحيقة في القِـدَم، وفي سـماوات أخـرى أيضـاً... بالطبع سـأعود إلى سـيوران قريبـاً! محبّة.

***

البارحـة أرسـلتُ إليـكَ نصّـاً عـن ميرو مـع بعـض الصـور للوحاته مقترحـاً معاملتهـا ككـرسي لجسـد متعـب! هنـاك كتـاب بديـع لسـيوران بعنـوان (كتـاب الصلـوات للمهزومـين). ألّفـه في منتصف السـبعينيات. في الحقيقـة جـاء هـذا الكتـاب إجمـالاً فـذّاً لـكل مـا سـبق أن كتبـه. في التسـعينيات كنـتُ قـد قـرأتُ ترجمتـه البولندية (ربّمـا أخبرتُـكَ مـرّةً بـأن لسـيوران محرابـاً كبـيراً في معبـد الثقافة البولنديـة!). عـلى أكـبر احتمال، سـأعدُّ نصّاً بسـيطاً عـن انطباعات سريعـة خاصّـة أننـي لا أملـك الآن هـذا الكتـاب، وكنـتُ قـد قرأتُـهُ حينهـا في وارشـو، لا أدري إن كنـتُ قـد قلـتُ لـكَ مـن قبـل إننـي درسـتُ في بولنـدا. وليـس لـديّ الآن إلا ملاحظات بسـيطة، لا تعينني الذاكـرة التعبانـة في إغنائها...

***

عزيـزي حسـن. يسرّني كثـيراً أنـكَ تكتـب إليّ. في الحقيقـة، كنتُ قلقـاً حينهـا بسـبب حقائـق، لا يمكـن تجاهلهـا: الحيـاة بالغـة الهشاشـة، وفي كل زاويـة يتربّـص بنـا (انقـلاب) سـواء أكان كبـيراً أو صغـيراً... صحيـح مـا تقولـه ... كان سـيوران قـد انخـرط قبـل الحـرب في منظّمـة فاشـية رومانية مـن طـراز الفالانغـا الفرانكوية أو الكتائـب النازيـة ... إلا أنهـا كانـت فترة عابـرة في حياتـه. بالطبع كانـت منظّمتـه هـذه معاديـة لليهـود. فيما بعد اكتشـف سـيوران

أن طريقــه هــو آخــر. كان من بــين أصدقائــه والشــخصيات المعجَب بهــا كثــيرون مــن اليهــود أيضــاً. فيمــا يخــصّ أزمــة الكتابــة عندكَ أنــا أيضــاً مــررتُ بأكثــر مــن فــترة انقطــاع عــن الكتابــة وحتّــى القــراءة. إنهــا ظاهــرة (طبيعيــة)، حتّــى الأرض لا تُحــرَث، ولا تُزرَع في كل موســم. ومــا أفعلــه عــادة في مثــل هــذه الظــروف مراجعــة مــا كنــتُ قــد كتبتُــهُ وتهيئتــه للنــشر مثــلاً. بالطبــع لا يحصــل هذا بصــورة منتظمــة. لكــنْ، عنــدي هاجــس مُنهِــك، وهــو خشــيتي أن أفقدَ الاســــتمرارية...

***

FaceMask

مشـيتُ من شـارع أبي نـؤاس إلى الكـرادة، حيـث ورشـة الوجوه المشـوّهة. مشـيتُ على مهـل متأمّلاً النـاس والأشـجار والزمـن. أبو نـؤاس هـو الملقّـب بشـاعر الخمـر. مـن أشـهر شـعراء ما يسـمّى العـصر الذهبـي في بغـداد خـلال الخلافـة العباسـية. وُلـد مـن أب عربـي دمشـقي، ومـن أمّ فارسـية في الأحـواز سـنة ٧٦٢ م. اختلفت الروايـات عـن مـكان وفـاة الشـاعر العظيـم. منهـم مَـن قـال إنـه مـات في السـجن، وآخـرون قالـوا إنـه مـات مسـموماً للخـلاص مـن سـلاطة لسـانه. في حضـن شـارع أبـو نـواس وسـط بغـداد، اكتشـفتُ أنـا طريقـي إلى الكحـول وبيـوت الجنـس. كنـتُ أتسـكّع برفقـة أصدقـاء مقرّبـين في شـارع شـاعر الخمـر. كان الشـارع مزدهـراً بالبـارات ومطاعم شـوي السـمك الطـازج، قبـل أن يحرّرنا الأمريـكان مـن الديكتاتور، ويسـلّموننا للأحـزاب الإسـلامية. أيّامها كنـتُ طالبـاً مفلسـاً. مـرّات كنـتُ أحصّـل شـوية فلـوس مقابل ما أكتبـه مـن بحـوث لطلبـة كسـالى . فلـوس تكـون كافيـة للـصرف كـم يـوم عـلى السـجائر والكحـول والجنـس. يـوم مـن الأيّـام كنتُ سـكراناً ومفلسـاً وقريبـاً مـن بيـت جنـس رايح لـه من قبـل. كان البيـت يُـدارُ مـن قِبَـل قـوّادة في الأربعينيـات مـن عمرهـا، امـرأة سـمينة، ذكيـة وصارمـة. البيت فيـه خمس نسـاء يقدّمـن الجنس بالبصـل والثوم. خمسـتهنّ سـمينات ومترهّـلات ووقحـات، وتفوح منهـنّ رائحـة البصـل والثـوم في كل أوقات اليـوم. الرشـيقة الوحيدة

والتي تفوح منها رائحة الورود في بيت الجنس هي نداء. حارس بوّابة البيت رجل ضخم، وبشارب سميك، من المستحيل أن يبتسم لزبون، أو يمزح معه. يؤدّي دوره بصرامة وجدّيّة، وكأنه حارس بوّابة الجحيم. زبّي في ذلك اليوم قادني للمغامرة. ذهبتُ إلى بيت الجنس، وقدّمتُ عرضاً لحارس البوّابة: أنا مفلس، وأريد أنيك، شنو رأيك أن أعمل بدلاً عنك طوال الليل، مقابل أن توفّر لي أنتَ من الداخل الكسَّ بالمجان؟ شعّت بعين الحارس سكّين قاتل، وهو يتفرّس ملامحي بكراهية وغضب. لو كنتُ صاحياً، لانسحبتُ في الحال أمام جدّيّة وخطورة نظرة حارس البوّابة. لكن الكحول لعب بدماغي. فتحتُ فمي وتفوّهتُ بحماقة أخرى (من حقّكَ أن تفكّر! يمكنني أن أنتظر الرد..) أطبق الحارس بحركة خاطفة على رقبتي بذراعه الحديدية، وطرحني أرضاً. ركب فوقي، وقيّد يدي بكلبجة. سحلني من ياختي، ورماني أسفل شجرة نارنج في حديقة بيت الجنس الأمامية. أخذ من حبل الغسيل لباساً داخلياً نسائياً، وربط به فمي. ثمّ عاد إلى بوّابته. بعد ربع ساعة، دوّختني رائحة النارنج، وخدّرتني عذوبة الطقس، فنمتُ في مكاني. في الصباح وجدتْ أن أحدهم ترك فوقي بطّانية مرسوم عليها نمر. جاءت القوّادة، وفكّت قيدي، وأخرجت اللباس من فمي. قدّمتْ لي زجاجة ماء باردة. وقالت، ادخلْ إلى البيت، نداء في انتظاركَ! كانت القوّادة تعرف أنني إحدى زبائنها المفلسين، لكنْ، من جماعة المسالمين. نصحتْني أن لا أغامر مرّة ثانية بالكلام مع حارس البوّابة. بلتُ في المرحاض، وذهبتُ إلى غرفة نداء. أفطرتُ على عينَيْها وكسّها ورائحة الزهور. قطفتُ من حديقة البيت برتقالة، وأنا في طريقي للخروج من البوّابة، فنظر لي الحارس نظرة فيها كلام موجز(أفلتْ بسرعة من هذا المكان أحسنلك). مشيتُ. قشّرتُ البرتقالة، وأكلتُها، مستمتعاً بمذاق عصيرها، ومنتشياً من ينبوع

جســد نــداء . مشــيتُ ومشــيتُ ..هائمــاً. دائخــاً.. باحثــاً عــن بوّابة الحياة وحارســـها.

سائق تاكسي أو شبحه هو الذي قادني قبل سنوات للعمل في صناعة الأقنعة. أصل إلى ورشتي السابعة صباحاً. أعدّ الشاي، وأستمع إلى الموسيقى من اللاب توب. اليوم يجب أن أنهي قناع طفل رضيع، ستأتي أمّه لاستلامه بعد الظهر. ما عندك مانع لو نستمع إلى الموسيقى واحنا نتكلّم؟

لا، طبعاً، تستمع إلى نوع موسيقي معيّن.

لا يوجد نوع مفضّل. مزاج الصباح ونوع القناع الذي أعمل عليه هو الذي يدلّني على نوع الموسيقى. شاهدتُ قبل أيّام فلماً لألمودوفار، عنوانه، الجلد الذي أعيش. أعجبتْني الموسيقى في الفيلم. دعنا نسمعها. ظلال من الرخام، لـ ترينتمولير.

شاهدتُ الفلم، لم تلفت الموسيقى كثيراً انتباهي.

أعمل في ورشتي الصغيرة طوال أيّام الأسبوع ماعدا يوم الجمعة. لديّ دكّان صغير لبيع منتجي وسط العاصمة تُديره زوجتي. اختصاصي هو عمل أقنعة مصنوعة من السيليكون. أقنعة بشرية، وأخرى حيوانية. أقنعة للضحك وأخرى للتخويف. في السنوات الأخيرة، ازادد الطلب بشكل واضح على الأقنعة التي تحاكي وجوه البشر.

زارني في ورشتي معلم، قُتلتْ زوجته، وتشوّه وجهها في انفجار سيّارة مفخّخة في باحة البنك الذي تعمل فيه. طلب منّي أن أصنع قناعاً، يحاكي وجهها في صورة فوتغرافية. لم يكن المعلّم يسمح لنفسه أن يُلقي نظرة

الوداع الأخيرة على وجه زوجته مشوَّهاً، ويختفي في التراب. كان يريدها أن تبقى فاتنة كما هي، لا كما أرادت النار. بذلتُ كل طاقتي في محاولة صنع قناع جلدي دقيق ومُتقن. عملتُ على القناع بصدق ومحبّة وقلق، وكأن المراة هي حبيبية عمري. واجهتُ بعض الصعوبات. كنتُ أستعين من قبلُ بالقوالب الجاهزة لصنع الأقنعة. لم أجرّبْ من قبل صنع قناع يحاكي صورة فوتغرافية. شمّ صحفي شابّ الخبرَ، وكتب تقريراً عن قصّة الزوج والقناع. انتشرت القصّة بينما كان القتل العشوائي اليومي، بالسّيّارات المفخّخة والانتحاريين والاغتيالات، يحصد أرواح البشر والشجر والحجر. أخذت طلبات الأقنعة للوجوه الميتة والمشوّهة تزداد بوتيرة كبيرة. زبائني كانت لديهم مشاعر المعلم نفسها تجاه زوجته، لا وداع لوجه مشوّه!! كانت الوجوه الحية بحاجة إنسانية لتوديع الوجوه التي تحبّها، لا الوجوه التي دمّرتها الكراهية. أغلب زبائني كانوا من الفقراء. سمعتُ أن بعض الأغنياء كانوا يدفعون مبالغ ضخمة، وهم يستعينون بجرّاحين خبراء، من أجل تجميل وجوه أحبّائهم الميتة. أنا لم أكن أُثقل أحزان زبائني بأسعار باهظة. مرّات كثيرة كنتُ أقدّم خدماتي بالمجان. كنتُ منغمساً ومسحوراً بمحاولة الفنّ في المساهمة في لعبة الحياة والموت. لا أنوي أن أحكي مطوّلاً عن مشاعري المتباينة في أثناء العمل، ولا عن المفارقات الكثيرة التي حدثتْ لي مع الأقنعة. رغبتي هي أن أروي الحادثة الطريفة والغامضة التي قادتْني قبل سنوات لهذا العمل. ربمّا مثال واحد يكفي لكي تفهم طبيعة عملي في أقنعة الموتى. مرّة من المرّات زارتْني امراة في الورشة. كان ابنها في سنّ الثلاثين يعمل بائعاً جوّالاً للشاي أمام باب إحدى الفنادق، ليعين عائلته الكبيرة. فجّر رجل (سعدوي) نفسه بحزام ناسف أمام الفندق. بُترتْ أعضاء بائع الشاي، وتشوَّه وجهه. لم تجلب الأمّ لي صورة حديثة لابنها،

بل صوّرته وهو في سنّ المراهقة. كان الرجل الثلاثيني ممداً في قبره بقناع وجه مراهق حالم. فكّرتُ حينها (سيتعفّن الجسد ويختفي، وسيبقى القناع والعظام أسفل التراب).

أوكـي، أنتَ تعـرف يقولون الشـياطين تكمـن في التفاصيـل، كان بـودّي أن أعـرف المزيـد عـن زبائـن الأقنعـة. لكـنْ، كمـا قلـتُ لـكَ مـن قبـل، أُجـري هـذه المقابـلات مـن أجـل أن أُصغـي للآخريـن، لعـلّي أفهـم أو أتعلّـم.. لا أدري! طـوال حياتي كنـتُ أشـعر بالامتنان للنـاس الذيـن يمكنهـم أن يحكـوا قصـص حياتهـم للآخريـن بيُسر ومحبّـة .. نعـم، أرجـوكَ، تفضّـلْ.

قبل الأقنعة كنتُ أعمل في مخبز. أكوّر العجين، وأُدخله للفرن. مرّات كنتُ أصنع أشكالاً خاصّة من الخبز للزملاء من أجل المرح. أكثر خبزة أحبّوها هي امرأة عارية تفتح ساقيها، وخبزة على شكل عباءة وعمامة رجل دين شهير. كنتُ أعزباً. أقضي وقتي بالتسكّع في المدينة ومراقبة الناس وهم يتشبّثون بالحياة رغم قسوتها الفظيعة. في إحدى جولات تسكّعي تعرّفتُ على سائق تاكسي، كان قد أُسِر في حرب الخليج الأولى. كانوا يعثرون عليه في كل مرّة وهو ينتحب خلف مقود سيّارته. الناس يقولون إن قلبه ضعيف. كان يقول لي إنه يبكي حين يمارس الجنس، ويبكي حين يجوع، ويبكي حين يشعر بالحيرة، يبكي حين يفيق من النوم، وحين يذهب إليه أيضاً، ويبكي حين يطالع الحشود، ويبكي حين يكون وحده، ويبكي حين يمشي تحت شمس ظهيرة تمّوز الإرهابية. في الشتاء لا يبكي، بل ينتحب. كان عبارة عن غيمة مطرودة من السماء. غيمة تعربد فيها العناكب الحمر.

يا ربّ القرود .. يا خالق الطاحونة الأعور، يا نافخ المهرّجين والعبث ......

أغلب شتائمه كانت مُبتكَرَة. رغم أن مخيّلته أُغلقتْ على عالم الأمراض فحسب. يقول سائق التاكسي إنه عمل مدّة عام في تحرير عمود ثقافي في صحيفة عسكرية. لكنهم فصلوه بعد أن قالوا إن سنوات الأسر الطويلة اشتغلتْ في عقله.

مثل هواة جمع الطوابع، أعشق أنا هواية جمع الأمراض، يقول سائق التاكسي. كان ينصب شباكه في وضح النهار، ويجمع. كان يبكي من أجل الضحك. يقول إنه يتلذّذ بهذه الفعلة مثل ممثّلي التراجيديات الفخمة. يشعر أنه مسوؤل عن مساندة المأساة بدموعه التمساحية. اشترى سيّارة تاكسي قديمة بعد أن طُرد من عمله في الجريدة. الجيران ملّوا من تسميته (أبو أحمد) رغم أن زوجته عاقر. كانوا يرفعون من معنوياته هو وزوجته بهذا الأحمد المفترَض. لكنهم لم يتحمّلوا طويلاً حتّى قلّدوه لقب: صادق بنجر (بسبب بناجر سيارته المستمرّة). كان يستمتع بأمراض الزبائن حين يقلّهم إلى المقابر والأسواق وبيوت العاهرات والمستشفيات، ويصغي إلى أمراضهم باهتمام. وكان يبكي. يبكي بحرقة وتفانٍ. بعضهم كان يزيد له الأجرة، ويشكره على هذه الإنسانية كلها التي تفيض من قلبه مثل نافورة من الطيبة والرحمة.

تعرّفتُ عليه صدفة. كان يقلّني إلى بعض بيوت الجنس التي كنتُ أتردّد عليها سابقاً. كنتُ أقوم بمثل هذه الزيارات كل شهر مرّة. بادر هو بالكلام. أوّل الأمر تشكىّ من الطقس، ثمّ من سائق بطيء أمامه. بعد قليل، شتمه: تحرَّكْ قوّاد.. مريض ابن المريض!

أخبرني أنه يعاني من البواسير (من دون تفوّهي بكلمة) بسبب جلوسه الطويل خلف مقود السّيّارة. ثمّ حاول استدراجي من خلال الحديث عن بعض الأمراض الجديدة التي ظهرت مع الحروب (وأنا أهزّ رأسي فقط)، أحسستُ أنه تضايق من صمتي الحجري. لهذا عبر إلى الصين. وأمدّني ببعض المعلومات عن الأمراض الصينية التي تنتشر في فصل الشتاء هناك. أحسستُ أنه سيختنق من مبالغتي بالصمت الذي جابهتُهُ به. لكنني قرّرتُ أن أبارزه بمعلومات عن مرض ما هي أكثر دقّة من محاولاته تلك. التفت إلى شرطي المرور في زاوية الشارع، وشتمه: مريض ابن الحكّة الشرجية!. حدّثتُهُ أنا عن مرض خبيث أُصيبتْ به عمّتي الصغيرة: لقد ظلّتْ عمّتي تعاني سنوات طويلة. كان الطبيب يقول إنها تعاني من (الأورام الليفية الرحمية)، وهي مجموعة من خلايا عضلات ونسيج على جدار الرحم بهيئة عنقود عنب واحد أو أكثر. (هنا أحسستُ أنه مُثار ومُهتمّ بوصفي الدقيق، فقد تحوّل إلى طفل شغوف حتّى إني خشيتُ أن يقلب بنا السّيّارة . حينها أخذ هو دوري الأوّل في هزّ الرأس والإنصات). وقد تنمو هذه الأورام في داخل التجويف الرحمي. وهذه الأورام تحدث عادة في منتصف العمر لدى المرأة، وتخفّ في سنّ اليأس (توقّفتُ كي أستجمع معلوماتي الأخرى، لكنّ جامع طوابع الأمراض لم يصبر ..):

ـ قلْ لي، ما هي أعراض هذا المرض بالتحديد؟!

- نزيف وألم في أثناء الدورة أو ما بين الدورَتَيْن، وتبوّل متقطّع، وفي أثناء النيك يكون هناك ألم أسفل الظهر، وقد يؤدّي إلى العقم النهائي.

وصلنا إلى الزقاق المنشود. قال إنه هو الآخر سيدخل إحدى بيوت الهوى. طبعاً المكان مشهور، ولا حاجة للإنكار أو التخفّي من أنكَ ذاهب

من أجل كسّ عاهرة. شدّد على أنه سينتظرني، بعد أن يُفرغ هو أيضاً تعبه في قحبته المفضّلة. أشار إلى بيت مُطلّ بالأزرق الفاتح. أخبرتُهُ أنني لن أتأخّر كثيراً في البيت الذي هو بعد الأزرق بثلاثة بيوت. هل تراه، المطليّ بالأخضر الفاتح. اتفقنا؟. حتّى إنه لم يقبل أن يأخذ أجرته، قال إنه سيأخذها كاملة حين يعود بي.

لم يتركْني ابن القحبة أن أكمل له قصّة عمّتي، ولا حتّى أن أستمتع بنشوة العائد من كسٍّ في تاكسي. أردتُ أن أترك عمّتي تموت، وأتخيّل لها مرضاً خاصّاً في قبرها. أورام تصيب الأموات النادمين في الظلام. استدار إلى الشارع الرئيس. وانطلق لسانه من جديد: احذرْ من البيت السادس على اليمين. أبو الباب الي عليه أصابع حنّة... دير بالك تتورّط. كلهن مريضات. خالدية تحكّ، بيه قمل بالعانة. اسمع، أستاذ (لم تنقطع كلمة أستاذ من لسانه، ونحن في طريق العودة).

قملة العانة. حشرة لها ستة أرجل. وتعيش دائماً في شعر العانة، ومرّات في شعر الإبط والحواجب... بس بعدين تنتقل إلى شعر العانة مرّة ثانية... ومعظم أسباب انتقالها عن طريق النيك. وخاصّة عند المراهقين... وفي مرّات من البطّانيات أو الشراشف الملوّثة بقمل العانة، وأي قمل مثل ما تعرف يعيش على دم البشر.. تغرز القملة رأسها قرب بصيلة الشعر، وتفرز مادّة في الجلد، تخلّيك تهرش... ومرّات يتحوّل لون الجلد إلى الرمادي ... وأفضل طريقة لمعالجة هذا القمل هو تمشيط شعر العانة بالشامبو... لهذا (خالدية) أربع وعشرون ساعة تمشّط بالحمّام.(بدأتُ أشعر بالضيق ... طلبتُ منه أن يتوقّف قليلاً لشراء علبة سجائر... عرض عليّ سجارة، لكنني تحجّجتُ بتدخين نوع آخر). ظلّ يرتّل خطبته عن القمل مع نفسه في أثناء نزولي. تحرّكت السّيّارة من جديد. وهنا بدأتْ دموعه تنهمر بغزارة:

- لو تعرف، أستاذ، كم أشعر بالحزن على منال المسكينة صاحبة أجمل كسّ في هذا الزقاق! تعرف، أستاذ، هي مصابة بمرض (الكلاميديا). أكيد أنكَ سمعتَ به؟ كثير من الناس ما يسولفون عنه بسبب الخجل، وهو مرض ينتقل بالنيك أيضاً. في الرجل، تصاب قناة مجرى البول، وفي المرأة عنق الرحم.

لا أدري كيف قدر على قيادة السّيّارة وكل هذه الدموع والحسرات التي أخذت تتضاعف إلى حدّ مخيف. لو شاهدت هذا العنكبوت الذي يقود السّيّارة وهو ينتحب، لتخيّلت أن منالاً هي ابنته الوحيدة .وقبل أن يشقّ قميصه من الحزن (هكذا تخيّلتُ) طلبتُ منه أن يُنزلني قرب المسرح الوطني. تمنّى لي صحّة دائمة، وأنا أغلق الباب ودموعه لم تجفّ بعد. أحسستُ وكأن أمنيّته لي بالصحّة كانت مثل دعاء صادق: بجاه حارس قبّة السماء الزرقة... أتمنّى لك مرضاً خبيثاً، وأتمنّى أن أكون أوّل من يعرف بذلك!

كان العرض في المسرح الوطني عن رجل عبقري في الفيزياء، يعاني من الشيزوفرينا. سقط الممثّل على خشبة المسرح، ثمّ أفاق مثل مسحور، ونزل إلى صالة المتفرّجين. كان يشير بإصبعه تجاه بعض المتفرّجين. شعر الجمهور بالسعادة لإشراكهم في العرض بهذه الطريقة. أشار الممثّل إلى فتاة شابّة، طأطأت رأسها من شدّة الخجل. ثمّ وقف قبالتي وهو يبتسم بخبث، وبحركة شيطانية بطيئة، أخرج قضيبه، وبال بسعادة في وجهي. أكيد أنه يستخدم حيلة مسرحية، فهذا مُجرّد ماء. ثمّ فكّرتُ أنه من الواجب أن أظهر أنني مُتلَقّ رفيع المستوى، ويقدّر مثل هذه الحركات المسرحية التجريبية، لكنْ، حين رفع القناع عن وجهه، وعاد مهرولاً إلى خشبة المسرح. تأكّدتُ لحظتها فقط من حقيقة ما حدث!! لكنّ الستارة

أُغلقتْ، وقبل أن يعود الضوء إلى الصالة، فاحت بقوّة من قميصي رائحة زنخة. إنه بول حقيقي! بكيتُ بحرقة في صالة المسرح بينما كان صوت تصفيق الجمهور يتعالى. الممثّل الذي نزع القناع، كان هو نفسه سائق التاكسي، بلحمه وشحمه، كان جامع طوابع الأمراض، يرتدي قناع ممثّل .... أنا متأكّد ميّة بالميّة ..

بعد الليلة المسرحية اختفى سائق التاكسي. بحثتُ طويلاً عنه، وفي كل مكان. سألتُ عن الممثّل من إدارة المسرح، وقالوا إنني أتوهّم. ممثّلهم لا يعمل سائق تاكسي، وهو ممثّل موهوب، يُمثّل فوق الخشبة منذ طفولته، وهو من عائلة فنّيّة مشهورة. استغرقتُ في التفكير، وحاولتُ تفسير ما حدث. ربّما كنتُ متعباً حقّاً، وتوهّمتُ أن مَن بال فوق رأسي في صالة المسرح هو سائق التاكسي. قادتني هلوسة ما حدث للتفكير بالأقنعة. مرّت الأيّام، ووُلدَتْ فجأة في داخلي رغبة كبيرة، كل ما أريده هو أن أنغمس في فنّ صناعة الأقنعة. تلمّستُ طريقي في التعلّم بشغف وصبر في دكّان رجل عجوز، يصنع أقنعة للأطفال، وسرعان ما تكشّفت لي موهبتي التي كانت نائمة في أعماقي مثل قطّة كسولة. فافتتحتُ ورشتي الخاصّة. هذا ما أريد أن أقضي فيه حياتي، تصميم ملامح الخوف والضحك والبكاء.

البارحة زارني شابّ يحتاج إلى قناع لأخيه الصغير. كان الأولاد يلعبون الكرة في ساحة ترابية في حيّ فقير. دخل انتحاريّ متطرّف إسلامي، صاح: الله أكبر، وفجّر نفسه. أنظر إلى صورة الطفل، وأتخيّل ملامحه قناعاً لوجه روحي المعذّبة! هل لديكَ قريب يعمل في بيع القمصان في الكرادة؟

نعم، ابن عمّي صاحب دكّان قمصان السلام.

خمّنتُ ذلك من ملامحكَ، يشبهكَ كثيراً! له قناع يشبه قناع الكاتب المتواضع الذي تستخدمه معي الآن. ارحلْ، ولا ترجعْ من جديد إلى بلاد الجحيمين هذه!

أشكركَ كثيراً.

مع السلامة، حظاً موفقاً!.

مع السلامة.

أشعر بالجوع. أقطع الشارع إلى الجهة الأخرى، وأمشي صوب نصب كهرمانة. لم تتغيّر معالم بغداد كثيراً منذ أن هربتُ منها قبل ١٧ سنة. كل ما حصل أنها شاختْ أكثر. شحب لونها. وامتلأ شعرها بالأسلحة، وأحاطتْ عينَيْها هالة داكنة من الرعب والوجع. بعض المحلات والدكاكين تغيّرتْ. في الزاوية، كان هناك مقهى شعبي متواضع، صار اليوم محلاً فاخراً لبيع الأحذية. كشك بيع الزهور صار نقطة لدورية شرطة ثابتة. أشتهي الكباب مع البصل والطماطة المشوية ودولكة لبن بارد. أقطع الشارع باتجاه مطعم مزدحم. أُشارك شابّ طاولته. يأكل الشابّ دجاجة كاملة مشوية مع الرز وثلاث أنواع من المرق، الباميا والفاصوليا والتبسي. أنتَ غريب؟ يسأل الشابّ. نوعاً ما، تركتُ بغداد قبل عشرين سنة! أردّ.

(أنتم المغتربون ترجعون للبلد، وكأنكم أجانب مستشرقون، تحملون معكم دائماً علبة مياه معدنية وحقيبة وتتفرّجون على كل شيء بدهشة، وكأنكم لم تعيشوا هنا من قبل).

أتفق معه في كلامه، لا نيّة لي للدخول بالنقاش العقيم بين أهل البلد الذين بقوا وعانوا وبين الذين هربوا وعانوا في الغربة. بين الشيعة

والسّنّة. بين الكورد والعرب. بين المتديّن والعلماني. بين المشجّع الإيراني والمشجّع السعودي. بين الخائن والوطني. بين القومي والإسلامي. بين الله أكبر والله أصغر. أدير دفّة الحديث (يبدو أنه مطعم مشهور وجيّد..).

(نعم، صحيح، فجّروا المطعم هذا ثلاث مرّات خلال سنة واحدة)، يقول الشابّ وهو يزيل الجلد من لحم الدجاجة (ماذا؟ هل خفتَ؟) يسأل وهو يبتسم لي باحتقار.

أرشّ السّماك وأعصر الليمون فوق شيش الكباب، وأتجاهل الشابّ! لا يمكنني طرد ما قاله لي من ذهني. لا أدري إن كنتُ أشعر بالخوف. الحزن والغضب هو الذي يحتلّني. شفت بحياتي الكثير من الأهوال، وكاد الموت يخطفني أكثر من مرّة. ما زلتُ على قيد الحياة فقط بسبب الصدفة. أفكّر في تلك اللحظات التي يستلذّ فيها الزبائن بمذاق المشويات قبل أن يستلذّ الإرهابي بمذاق شويهم بحزامه الناسف. ربّما أموت هنا وأنا آكل الكباب، ويتشوّه وجهي. صانع الأقنعة سيعمل لوجهي قناعاً، ويقول: (ما الذي أعادكَ، أيها الممثّل البائس إلى مسرح الوجوه المشوّهة؟!) أدفع الحساب، وأعود باتجاه نصب كهرمانة. أيّام مراهقتي كان النصب يشدّني كثيراً. أُخرج الآيفون، وألتقط من زوايا مختلفة صوراً لكهرمانة. اليوم كهرمانة هي نافورة. تقف كهرمانة وسط أربعين جرّة، وهي تحمل جرّة كبيرة، ينساب الماء منها لبقية الجرار. أما كهرمانة ألف ليلة وليلة، كانت تصبّ الزيت. كانت طفلة ذكية وشجاعة. كان أبوها يملك خاناً، لإيواء المسافرين. هو بمثابة الفندق في عصرنا. كان والد كهرمانة يبيع الزيت في الجرار في السوق. ذات ليلة شتوية باردة، نهضت كهرمانة على أصوات مريبة، فشاهدتْ مجموعة من الرجال يختبئون في الجرار الفارغة. أخذ الرجال يطلّون برؤوسهم

من الجرار لمراقبة الشرطة التي كانت تطاردهم، وقد حاصرت الخان. أخبرتْ كهرمانة والدها عن أمر اللصوص. اتّفقا على أن يُحدثا ضجّة في الخان لإخافة اللصوص. أخفى اللصوص رؤوسهم، وسكنوا داخل الجرار. عندها قامت كهرمانة بملء إحدى الأواني بالزيت، وأخذت تصبّه في الجرار. ولمّا شارفت الجرار على الامتلاء، نهض اللصوص، وهم يصرخون، فأمسك رجال الشرطة بهم.

أمدّ يدي، فتتوقّف تاكسي.

تفضّلْ، أستاذ،

يقول السائق وهو يفتح لي الباب.

بالفعل هي خسارة حين لا نعي الزمن، وحين نعيه سلباً أيضاً... أرجو أن تعثر على حلّ لمشاكل العيش، وهذا الخبز الذي هو إفيون حقيقي، كما قال همنغوي مرّة. وصلتُ إلى الرابط المخصّص لسيوران. فيه أشياء ثمينة حقّاً. للأسف، أنا لا أتجوّل كثيراً في الإنترنت (لكم وددتُ أن يخفّف الوقت من عصره الوحشي ليومي، وهذا الجزء الكبير من الليل). ولولا بعض الضرورات، لما وصلتُ إلى هناك... فقد أصبحتُ منذ بضع سنوات أعمل كل شيء في أقصى العجلة، بل أبدو كأنني أُنقذ أكثر ما يمكن من الأشياء قبل أن يلتهمَها الحريق. الغيظ يسيطر عليّ بكل سهولة حين أكون مرغَماً على أداء بعض الأعمال الروتينية. في الرأس تتكاثر الأفكار والمشاريع، لكنْ، لا تفاهم هناك مع الزمن ... لا أظنّ، يا عزيزي، أن ما كتبه سيوران يعدّه كل قارئ عربي هدية ثمينة كما تقول. فهو في كل ساعة يتلقّى هدايا أخرى بشكل كلام ممضوغ بدون توقّف، كلام عن بديهياته البائسة، وتطمين رخيص لمخاوفه وهو في مثل هذا الضياع الذي سببه غوصه في العيش، وليس الحياة الحقيقية... في قصّتي الأخيرة لم أُخفِ انسحاري بفلسفة الكاميرا - القلم التي كان الكاتب الرائع جون دوس باسوس من روّادها الكبار. كما تعرف لا أحد منّا راض تماماً عمّا يكتبه. منذ زمن بعيد يتحكّم بي هاجس معيّن: أنا لا أفعل شيئاً غير القيام بـ (كولاج) لبضع تِقْنِيّات منتقاة من هنا وهناك. لا شيء جديد غير التفاصيل. في الأحوال

كلهـا، لا يعنـي هذا كلـه الاستسـلام والإحبـاط. فبالممارسـة، ولتكن مهووسـة، نكتشـف كل شيء: النفـس، العالـم، الآخـر. وقـد يكـون فعل الاكتشـاف هو نصـف الفن ... أشـكركَ عـلى ملاحظاتـكَ الذكية والحسّاسـة تجـاه مـا أكتبـه وأترجمـه. أنـا فـرح حقّـاً بمثـل هـذا القـارئ الذي ترجـح كفّته عـلى الكفّـة التي تحمـل القـرّاء الآخرين، وحتّـى لـو كان عددهـم كبيراً.

محبّتي

***

عزيـزي حسـن. كانـت نيّتـي أن تصلكَ هـذه الرسـالة ومرفقاتها قبـل سـاعَتَيْن، أي حين أنهيـتُ ترجمة نـصّ صغير لسـيوران. لكني لم أسـتطع الخـروج، بسـهولة، من عالـم الأسـاطير اليونانيـة بحثاً عـن المزيـد مـن أخبـار سـيزيف! ضحكـتُ قليلاً حـين وجدتنـي هنا مثـل جامـع الطوابـع أو الفراشـات... بقيـتْ هنـاك نصـوص كثيرة لسـيوران هـذا المعـذّب الأبـدي (أكيـد أن ثقـل صليبـه لـم يخـفّ في السـماء. فهنـاك يكـون قانـون الجاذبيـة نافـذ المفعـول أيضـاً!). وعـلى الـدوام أشـعر بامتـلاء غريـب حـين أعـود إليـه. ربّما السـبب هـذا الزحـف الثعباني للزمـن ...

***

صـارت الحيـاة اليوميـة تلتهـم الوقـت كلـه تقريبـاً. لـم أفعـلْ شـيئاً عـدا المطالعـة وترجمـة نـصّ آخـر لسـيوران، ينتظـر الآن التشـذيب. سأرسـله في القريـب. الجرائـم العراقيـة، أي المجـازر، لا تدعنـا نفكّـر جيّـداً (بعوالمنـا) التـي يقـول سـيوران عنهـا بأنهـا الحقيقـة النهائيـة...

كان اليونانيـون هـم مَـن قـال إن خير عـادة لـدى الإنسـان أن لا

تكـون عنـده أيّ عـادة. لكنـي اكتشـفتُ مـن زمـان أن العـادة رغم كونهـا الطبيعـة الثانيـة للإنسـان، هـي مـن أثمـن الأشـياء التـي يخلّفهـا الإنسـان وراءه في هـذه الدنيـا (بالطبـع إلى جانـب أفعالـه الأخـرى). أقصـد هنـا بالضبـط المراسـلات بيننـا.

محبّتي

***

السيد بالومار

عارٍ في السرير، أفكّر في قلب صديقتي عالية. لم تصلْ ماريا إلى الأوركازم، قذفتُ أنا مرَّتَيْن. أتصفّح الفيسبوك في الآي فون. صور لاجئين غرقى في اليونان، أخي في بغداد كتب تعليقاً غاضباً عن فساد الحكومة، صديقة من شمال فنلندا نشرتْ صورة قطّة تنظر إلى نفسها في المرآة بدهشة. تعود ماريا من الحمّام، عارية، رشيقة وباردة كسمكة في الفريزر. يا لها من فاتنة! تتمدّد قربي، أداعب بطرف أصابعي شعر عانتها الناعم، وأشمّ شَفَتَيْها. صورة القطّة وهي تنظر إلى نفسها في المرآة تبقى عالقة في ذهني. تطبع ماريا قبلة خفيفة على شَفَتَيّ، وتدير ظهرها لي. تفتح اللابتوب. تتفرّج على المسلسل الدنماركي، جرائم اسكندنافية ذكية. أكتب أنا إيميلاً قصيراً، أطمئنّ فيه على صحة عالية.

أقبّل ماريا في شعرها، وأخبرها أني ذاهب إلى البار.

((الساعة الواحدة ليلاً!))

تقول ماريا من دون أن تلتفت، من دون أن تضيع لحظة من مسلسها الدنماركي الإجرامي.

ألتقط لباسي الداخلي من قرب السرير، وأدخل الحمّام. بولة طويلة تتدفّق من زبّي، وأنا أتأمّل رفّ الكُتُب الصغير الذي تضعه ماريا قرب مقعد

Telegram: @Arab_Books

المرحاض. كومك بوك، مجلّد صور صغير عن الأثداء الكبيرة، أعداد قديمة عديدة من بطوط تتكوّم فوق مجلّد سميك عن الحرب الأهلية في مدينة التامبيره. أتصفّح مجلّد الحرب. صور جنود بيض يعدمون جنوداً حمراً(*) فوق بساط الثلج. في ألبوم ذاكرتي من الطفولة صور جنود يَعدمون كورداً بيشمركة، في ظهيرة تمّوزية حارقة.

أرتدي ملابسي، وآخذ من الثلاجة علبة بيرة.

((تصبحين على خير، ماريا)).

((خذ المفتاح، إن كنتَ سترجع)).

((لا، شكراً، سأعود إلى بيتي، باي)).

أُغلق باب الشقّة، وأغادر.

الثلج يغطّي كآبة المدينة النائمة. الهواء النقي والبارد ينفذ إلى داخلي، ويلسع روحي. أشعر أنني على وشك البكاء. أضع الهتفون في أذني، وأستمع إلى مقطوعة نوفمبر، ماكس ريجتر(**). الماضي يصحو وينام في داخلي. أكبح رغبتي في البكاء بجرعة من اللامبلاة ((خراء على العالم، ليست سوى هلوسة، هذه الحياة الفانية!))

لا أحد في البار غير البارمان آزاد الكوردي. أعانقه بمحبّة، يجلب لي

---

*) الحرب الأهلية الفنلندية. دارت رحى الحرب بفنلندا في الفترة من ٢٧ يناير حتى ١٥ مايو من عام ١٩١٨ بين قوات الديمقراطيين الاشتراكيين بقيادة وفد شعب فنلندا والمعروفة باسم "الحُمر" وقوات المحافظين المناوئة للاشتراكيين ذوي الأغلبية في مجلس الشيوخ والمعروفة باسم"البيض" ساندت جمهورية روسيا السوفياتية الحُمر، في حين تلقى البيض مساعدات عسكرية من الإمبراطورية الألمانية. ويكيبيديا.

**) Max Richter

البيرة، ويجلس قربي. يريني في الآي باد خاصّته مقطع فيديو للجماعات الإسلامية المتطرّفة وهم يذبحون مقاتلاً كوردياً في سورية. نُوزّع الشتائم على الجميع. نشتم الإسلامَ واللهَ والديكتاتوريةَ وأمريكا والرأسماليةَ وعنصريةَ أوربا. ثمّ يحدّثني آزاد عن ما يسمّيه دين الكسّ وشياطينه. يشرح لي الفرق بين الكسّ التركي والروسي والفنلندي، حسب خبرته الشخصية. الكسّ التركي جائع وعنيد، الروسي جميل ومتكلّف، الكسّ الفنلندي صادق وبارد.

((مارأيكَ بالكسّ العربي؟)).

يتحسّر آزاد ويقول، الكسّ العربي مقفول باسم الله، محكوم عليه بالمؤبّد!

نضحك معاً، فيدخل رجل أربعيني نحيل، بالكاد يقف على قَدَمَيْه من شدّة السُّكْر. يشتم آزاد الحياة، ومَنْ صمّمها، وينهض للتعامل مع السَّكْران. أُودِّع آزاد، وأذهب للبحث عن بار آخر.

أطلب يالو وبيرة. بار الحفرة مكتظّ بالزبائن. رائحة عفونة البول تتسرّب من باب التواليت. ألمح كايسا وهي تتحدّث مع شابّ طويل، تلتفت لي مبتسمة ((هل سيمنح نوفمبر كايسا لي؟!)) أفكّ ٢٠ يورو من البار مان، وأذهب إلى ماكنة القمار. ألعب لعبة، اسمها إيما، وأنا أتمتم بأغنيّة فنلندية قديمة (هل تتذكرين، يا إيما .. الليلة المقمرة؟ .. عدنا من الحفلة الراقصة .. أهديتُكِ قلبي .. وأقسمتُ أن تكوني لي وحدي)، أحلم بالفوز مع إيما بخمسة فوانيس. الفوانيس في بغداد كانت تضيء ليالي الحرب والخوف. الفوانيس في فنلندا لعبة قمار. تقترب كايسا منّي، أبادر بمعانقتها، وأحرّرها من إرباكها من المبادرة في تحية الآخرين. العناق طبعاً غير مكتوب في دستور الحميمة الفنلندية، والقلّة الذين يمارسونه يجب منحهم أنواط شجاعة. تجلس كايسا إلى ماكنة القمار جواري، وتلعب حورية البحر.

في السنوات الثلاث الأخيرة، كرّر نوفمبر الفنلندي المعتم هداياه الجنسية لي بطريقة ساخرة ومدهشة. لم أمارس الجنس بمثل هذه العشوائية من قبل. مغامراتي كلها حدثت في شهر نوفمبر. كان شهر الوفرة الجنسية بامتياز. تسكّعي المتواصل في البارات خوفاً من الوحدة وكآبة الظلام كان له دور في قطف ثمار بارات نوفمبر. ثمار مُرّة، وأخرى حلوة، وثمار من دون طعم.

تسأل كايسا عن مشروع مدوّنة الله ٩٩، وتربح هي ٥ أخطبوطات (يس!) تصيح، كايسا

أُخبرها عن زيارتي الأخيرة للعراق، والانتهاء من المقابلات هناك. تضحك كايسا، حين أخبرها أن نقود تمويل المشروع قد تنتهي في البارات، ويموت الله ٩٩غارقاً في الكحول. لا أعرف كايسا جيّداً. تبادلنا مرّات قليلة أطراف الحديث. ما أعرفه أن شقّتها تقع مباشرة فوق بار الحفرة. تعمل كايسا مساعدة لبرفسور في الجامعة، وتحاول أن تُنهي روايتها الأولى. لطيفة وهادئة وذكية وكئيبة. بدينة بعض الشي، ملامحها جميلة، وعيناها عميقتان، وتشتهي أن تنظر داخلهما وأنتَ تعانق عريها.

أخسر آخر ٢٠ سنتاً في الماكنة بينما تربح كايساه١ يورو.

البار مان يرمش بالإشارة الضوئية لغلق البار.

تدعوكَ لشرب النبيذ الأحمر في شقّتها.

(شكراً نوفمبر العزيز، لم تُخيِّب ظنّي!)

تشغّل كايسا في اللابتوب أغنيّة لآمي واينهاوس(*) بصوت منخفض، لئلا تُزعج الجيران. نجلس على الكنبة، ونشرب النبيذ. كايسا مُربِكَة قليلاً. تقول بصوت غير واضح إنني أعجبها، فأنا لطيف وذكي. تسأل: ما الذي تشعر فيه حين تكتب؟ (افيل هورني) أجيب. تضحك كايسا، وتقول شكراً لله، أنتَ لا تكتب الآن، وأنا لديّ الدورة الشهرية! أقول بنبرة خطابية مسرحية: أنا أكتب في النهار، وفي الليل، حتّى في الأحلام أكتب.

هل تواعد ماريا؟

أعرف ماريا منذ شهرَيْن فقط، نلتقي في بعض الأحيان، إنها فتاة ذكية ومميّزة. هي تُفضِّل أن تكون علاقتنا مفتوحة. إنها على حقّ! أليس الإنسان عبارة عن مجموعة من العلاقات، مع الزمن والمكان والسماء والموت والطبيعة؟ كل علاقاتنا مفتوحة على الغموض والمغامرة. لمَ يجب أن تكون علاقة الحبّ بين إنسانَيْن جامدة ومُسوَّرة بوهْم الحبّ الملتزم؟ لا أدري، لستُ متأكّداً! أنا الآخر أبحث عن حبّ (آمن) في كثير من الأحيان. تضع كايسا رأسها على كتفي، ونغرق في الصمت أكثر من ٥ دقائق. أداعب شعرها، فتسمك بيدي، وتضعها على شَفَتَيْها. أرفع رأسها بلطف من كتفي، وأقبّلها. نتبادل قبلات طويلة ممزوجة بالتبغ والكحول. نسخن. نتعرّى. كايسا تُبقي فقط لباسها الداخلي المنتفخ بفوطة الدورة الشهرية. تتمدّد هي على الكنبة. أقف أنا وأُقوِّس ظهري، وأضع زبّي في فمها، بينما تداعب هي بَظَرَها بإصبعها من تحت اللباس. تصل كايسا إلى الأوركازم، بعد نصف دقيقة، أقذف أنا في فمها. تنهض فوراً، وتذهب إلى الحمّام. أتمدّد على الكنبة، وأسمعها تبصق المني، ثمّ تفتح صنبور الماء، وتبدأ بتفريش أسنانها. أغمض عيني، وأنام.

Amy Winehouse (*

تفتح عينيك، فتكون الساعة التاسعة وخمس دقائق صباحاً.

أوّل ما أفعله هو تصفّح الفيسبوك. أكتشف أنني نقرتُ بالأمس عن طريق الخطأ على قلب الحب أسفل صور الجثث البغدادية، وكان قصدي أن أتضامن مع الجثث عن طريق الوجه الغاضب. تركتُ كايسا ملاحظة على طاولة الطعام (هناك منشفة نظيفة في الحمّام، يمكنكَ البقاء في البيت حتّى عودتي، في الثلاجة الكثير من الطعام) أشرب كأسَيْن من الماء. أفتح الثلاجة، وأصبّ لنفسي عصير البرتقال. أتفقّد غرفة نومها. أتحسّس بيدي مَلمس شرشف السرير الأزرق. فوق السرير صورة رأس قرد بحجم كبير. قرد كئيب، وكأنه على وشك أن يرتكب جريمة. أدخل إلى الحمّام، أتبوّل، وأتفحّص ألبستَهَا الداخلية وجورَبَيْها التي تركتْها تجفّ على منشر تجفيف الملابس. في الصالة مكتبة ضخمة حقّاً. أتفحّص عناوين الكُتُب، فأعثر على بارون فوق الشجرة لإيتالو كالفينو. هل لديها السيد بالومار؟ أعثر على كتاب آخر لكالفينو، هو حكايات شعبية. أين أنتَ، يا سيّد بالومار؟! يبدو أن كايسا من المعجبين بالإيطالي إيتالو كالفينو. أبحث في كل رفوف الكُتُب. لكنْ، لا أثر للسّيّد بالومار!

في الباص، تشعر بالغثيان من فرط الشراب.

ألغي الصفحات التي تجمّعتْ في الآيفون حتّى لا أخسر البطارية. المراهقة التي تجلس قبالتي تحني رأسها إلى هاتفها الخلوي. أوكي، أغلب ركّاب الباص رؤوسهم في هواتفهم الذكية، ماعدا عجوز تبدو وكأنها ميتة تنظر من النافذة. يذكّرني المشهد بالجوامع، حين يجلس العباد في باحة المسجد وهم يحنون رؤوسهم، ويتلون بصمت قرآنهم. أشعر مرّات أنني ورّطتُ نفسي في مشروع الله ٩٩. هل أبحث عن تمويل آخر؟! خره، تمويل

سينتهي نصفه مسبقاً في البارات. أشعر بالدوار والتعب، مرارة في فمي، وذهني يغلي: موعد سفري القريب إلى إيسلندا لمقابلة سلمى حايك، انغماسي في الكحول، الجنس العشوائي وظلام نوفمبر. أبحث في غوغل عن الطبعة الفنلندية للسّيّد بالومار.

أنزل من الباص قرب الأسواق القريبة من شقّتي. أشتري ستّ زجاجات بيرة علامة الدّبّ، وجبناً وخبزاً وطماطم وخياراً. أفتح علبة بيرة في باب الأسواق، وأُشعل سجارة.

(صباح الخير حسن)

التفت.

((أنتَ تشرب مبكراً، لقد صرتَ فنلندياً))

تقول ماما آنا وهي تبتسم لي بمحبّة وأمومة.

أُخبرها بحكايتي في أوّل شهر لي في فنلندا. كنتُ قد التقيتُ صدفة بشابّ مغربي، وتبادلنا الحديث عن أحوال اللجوء وفنلندا. سألتُهُ عن رأيه في المجتمع الفنلندي. قال: (خره، يشربون هواي وكئيبين وما يتكلّمون)، أجبتُهُ (خره يعني مثلي من كنت في العراق، اشرب هواي وكئيب واما تكلم).

تضحك ماما آنا، وتقول: إذاً، أنتَ في بيتك هنا في فنلندا، أهلاً وسهلاً!

إنها امرأة خمسينية ضخمة. ودّعتْني بعد أن ضغطتْ وجهي بقوّة على صدرها، فشعرتُ بالإرباك بسبب ضخامة ثديَيْها. كانت متزوّجة من رجل له طموحات سياسية. تسكن في البناية المجاورة لشقّتي. تعرّفتُ عليها

في مقهى الصخرة. قالت إنها تريد أن تكون بمثابة أمّي، فأنا أكيد أشتاق إلى أمّي في البلاد. فرحتُ أناديها: ماما آنا.

أفتح باب شقّتي، وأستلقي فوق الكنبة. أفكّر في غلاف الناشر الفنلندي للسّيّد بالومار، اختاروا للغلاف صورة رجل رشيق يرتدي قبّعة، ويحمل عصا. لا يشبه أبداً بالوماري العراقي، البدين صاحب الشعر الكثيف والنظّارات الطّبّيّة. أوكي، ما عدا أن بالومار الفنلندي يرتدي نظّارات أيضاً. خره بالله الگواد، يا ريت ما التقيت ببالومار، ويا ريت ما كنت في تلك التاكسي المشؤومة! ويا ريت يكتشفون حبّة دواء إلكترونية، تبلعها، فتبرمج الكوابيس في ملفّات، يمكن حفظها في ذاكرات ثانوية، ويمكن استعادتها فقط عند الحاجة. مرّة سألت بالومار وأنا سكران عن الذاكرة، فقال بطريقته المتفلسفة: ((لكل ذاكرة صوت ورائحة ومذاق)) لذاكرتي أنا صوت يشبه صوت ماكنة الحلاقة الكهربائية. أغلب الكوابيس والصور التي كانت ذاكرتي تستعيدها بين الحين والآخر تكون مصحوبة بصوت ماكنة الحلاقة الكهربائية. حتّى لحظات الحبّ الحميمة، القبلات والتأوّهات والضحكات كانت تعود إلى ذهني وهي مصحوبة بالآلة الموسيقية: الماكنة الكهربائية.

ذاكرتك تعزف لحن ماكنة الحلاقة الموسيقية.

كس إخت الله الگوّاد، قلتُ لسايق التاكسي وأنا سكران صاير طينة، هسّه انت قابل محمد النبي! من أوّل ما صعدت لسيّارته الجايفة واشتغلني نصايح دينية (ليش تشرب حرام؟ ما تخاف من ربّك؟ ماعندك أهل يربّونك؟!) صار برأسي الملاك الطاهر! كانت الدنيا ليل وصيف. وريحة بزازين ميتة تفوح من إبط السياق. سكرت ويّة أصدقاء في بار بشارع أبي نؤاس، احتفلنا بمناسبة قبولي في كُلّيّة الطب البيطري. السايق أخ القبحة ظل ساكت ما رد علي

بعد أن نكت ربّه بالكفر! من لاف الگوّاد بالفلكة وگف يم سيّارة الشرطة. نزل بسرعة، وقال للشرطة: هذا الزعطوط سكران، ويسب الرّيس.

في مركز الشرطة، حلفت للشرطي، وتوسّلت بيه، قلت له السايق كذّاب واني ما سبّيت الريس بس كفرت. دفرني الشرطي بطني، وطببوني بزنزانة صغيرة فارغة. قال الشرطي أبو شوارب، انزعْ ملابسك زعطوط. نزلت، وبست قندرته، وتوسّلت بيه، بس ما فاد. طب شرط ثاني، وقال ((شنسويله؟))، رد الأوّل ((قابل شنسويله! غير نيكه.. لو شنو رايك نفتح طيزه أولاً ببطل عرق)) ظليت ابچي واتوسّل بيهم، مزّقوا ملابسي، وكسروا سني، وعافوني. ظلّيت الليل كله إرجف من الخوف، وما نمت. كنت ميّت من العطش، بس خايف اطلب مي منهم. ممكن يرجعون بأي لحظة، ويغتصبوني صدگ!

الصبح طلّعوني من الحبس. قال الشرطي: إذا مرّة ثانية لزمناك سكران، وتاكل خره على الريس او الحكومة راح نيكك انت وعشيرتك وأمّك! دفرني في بطني، وصاح: يا لله، اطلع زعطوط.

برّه مركز الشرطة كانت الدنيا بعيني سودة، وفي بطني حرقة ووجع. ما قدرت اتحرّك. تسمّرت في باب المركز، الخوف والوجع شلّوا رجليني. الشرطي الحرس في باب المركز صاح: (اتحرّك.. لكْ امشي .. روح بابا لبيتكم .. روح).

رحت. مشيت. بقيت أمشي وما أعرف وين رايح. شفت رجال سمين لابس قاط رصاصي قديم، يعبر الشارع وشايل كومة كتب. شعره طويل ساحبه لي وره، ولابس نظارات طبية. وقفت وظلّيت أباوع عليه. كنت متشوّش وخايف، فكّرت أن السمين جاي علي. من صار على جهتي، صعد

سيّارة بيضة كرونه. وقع منه كتاب، وما انتبه. شلت الكتاب، وأشّرت بيه، يمكن يشوفني بالمرايه، مال سيارته. بس راح، وما انتبه. مشيت، ووجع دفرة الشرطي بطني بعده محسوس. رجال كبير في العمر كان يرش باب المطعم بصوندة حمرة. شافني وقال، تعال بابا، شصاير بيك؟!

بالمطعم حكيتله الي صار. طلب من واحد من عماله أن يجيب قميص لي. العامل گال ما عدنه بس قمصان الشغل. انطاني واحد. سوّالي صاحب المطعم أكل، وباسني من راسي وگلي، الحياة بهذا البلد الجايف يرادله إنسان من حديد، حاول تنسى، بعدك شاب والحياة تخلص، اتحمّلها وحاول تتونّس بيها، يوم مر ويوم حلو، هذه هي سفرتنا بهاي الدنيا، ومرات الوجع يخلّيك تندل نفسك أنت وين بهاي الدنيا!

طوال فترة كلامه كنت أباوع على الدجاجات إلي تدور في الشواية والزيت يقطر منهن. سألني أبو كمال صاحب المطعم عن الشرطي الي عذّبني. انطيته أوصافه. صفن شوية، وبعدين قال أعرف هذا الشرطي المنيوك، هذا أخوه آكل الجراد، ذولة عائلة مخابيل! وحكالي قصّة آكل الجراد.

رجعت للبيت لابس قميص المطعم الأبيض الي مكتوب عليه، مطعم كباب الأخوة . لقيت عمّي البي بي سي في البيت، وأخوتي وأمي ينتظروني بقلق. كان أبي قد مات قبل ثلاث سنوات بجلطة دماغية. سألت عن سبب وجود عمّي في بيتنا. فتطوّعت أختي وردة بالجواب: (محد يدري، اجه اليوم بالنهار، قال السلام عليكم، گعد بغرفة الخطار على القنفة.. سوينا له چاي .. وطلب راديو أبوي الأحمر الصغير .. خلّه الراديو على أذنه وغاص.) أمّي قالت: لا تغيِّر الموضوع، سولفلي شنو صار بيك؟ ووين كنت؟! تطوّع

أخي سمير في التحقيق معي أيضاً. تمنّيت أن يختفوا كلهم، ما كنت أريد أتكلّم. تمنّيت لو عندي غرفة خاصّة أدخل بيها، وأقفل الباب. بس بيتنا كله كان غرفتين، خمس ولد ننام في غرفة وأمي وثلاث من خواتي في غرفة. كان الفقر دايس على حياتنا بحذاء عملاق. عمّي ظل يباوع على الكتاب الي بيدي. قلت لهم، ما أريد إحچي هسّه، دمعت عيني، وصعدت إلى سطح البيت. گعدت يم قفص الطيور. كان عندي عشرات طيور الحبّ. ذبيت للطيور أكل، وشعلت جگارة.

السّيّد بالومار. إيتالو كالفينو.

ما قدرت أكمل قراءة أوّل صفحة. سدّيت الكتاب ونمت. شفت الرجّال السمين أبو القاط الرصاصي بالحلم، صافحني وانطاني نظّارته الطّبيّة. خلّيتهن على عيوني، وقال السمين: اني السّيّد بالومار، مراح اعوفك بعد هذا اليوم، نحن أصدقاء إلى الأبد!

عزيزي حسن. انشغلتُ في الأيّام الأخيرة بالفحوصات الطّبيّة، وأنتَ تعرف أن التملّص من الموت أسهل بكثير من التملّص من الأطبّاء! قبل أسبوعَيْن، بدأتُ بترجمة كتاب سيوران (قدّيسون ودموع). لا أعرف إن كنتُ قد أرسلتُ إليكَ ما ترجمتُهُ لغاية الآن. تجده مرفقاً.

محبّتي

***

رسالتكَ الأخيرة أحزنتْني كثيراً. كلّنا نعرف لعنة المعيشة وأدغال اليومي التي يربض فيها، ويقفز منها أكثر من حيوان مفترس ... لكنْ، قل لي يا حسن ألا تشعر من دون الكتابة بأنكَ سقطتَ في فراغ أصمّ، كان رامبو قد ترك الشِّعْر في سنّ مبكّرة جدّاً، ولأنه لم يكن، وفق قناعته، لديه المزيد. إلا أن هناك عشرات الأمثلة الأخرى، بل المئات التي تشير إلى العكس... لا أعرف، قد يعمل الجوّ النفسي وحصار تلك المشاكل على التقليل من شأن (ما خُلقنا من أجله). ربّما أنا أبالغ. ربّما أجد نفسي ضحية للضجر الحقيقي إذا لم أفكّر بالأدب والفن وأصدقائي فيهما... أتّفق معكَ بأن الإنسان يشعر بضآلة ما حين يقرأ ما أنجزه الآخرون، وخاصّة إذا كان الإنجاز من النوع الفذّ والمتجاوب مع المشاعر والمنطلقات. لكنْ، ألا يعني هذا، ومن جهة أخرى، محض نموذج ومثال، علينا أن نسترشد به من

أجل أن نردّ بعض الدَّيْن لهؤلاء الذين ضحّوا من أجلنا نحن بالذات، وليس من أجل أولئك (الآخرين)؟...

***

جاءتني رسالتكَ بقدر من الاطمئنان. معلوم أن الإدمان شبيه بالأخطبوط الذي يجب قطع أذرعه بانتظام وصبر. المهمّ أن يكون هناك تقدّم مستمرّ. الطبيب منعني من شرب الكحول القوي الذي يتحالف بسرعة مع المرض، لكن البيرة مسموح بها. وهكذا صرتُ أشرب يومياً نصف لتر من البيرة! هذا كله يأتي تطبيقاً لشذرة الشاعر الأميركي كمنغ (ألّا تكون ميتاً لا يعني بعد أنك حيّ). لكنْ، لا جديد هنا، فنحن لا نقترب من الحياة الحقيقية أبداً...

***

Telegram: @Arab_Books

حياة عراقية عادية

لـم يسـبق لي أن دخلتُ ليـلاً مقبرة. ألقيـتُ علكة في فمـي، ورحتُ أبحـث بـين القبـور المتهالكة. كانـت السـماء صافية والنجـوم تلمع بعيـداً جـدّاً عـن الموتـى. في سـنّ العشريـن كتبـتُ قصّـة عـن رجـل يناضـل مـن أجـل أن يقـرّ في مدينتـه قانـون التحنيـط. بعـد تطـوّر عمليـات التحنيـط بفعـل تطـوّر الطّـبّ والتكنلوجيـا، يطالـب بطل قصّتـي أن نتوقّـف عـن دفـن الموتـى وحرقهـم، ونعـود لتحنيطهم، كمـا كان يفعـل أجدادنـا القدامـى. يقـترح البطـل، أن يكتـب كل إنسـان وصيتـه عـن الوضعيـة التي يريـد أن يبقـى فيهـا محنّطاً في الحياة. جالسـاً على مصطبـة في حديقـة عامّة، يتغـوّط في المرحاض، يمـارس الجنس، يقـرأ في كتـاب، يطبخ في البيـت. ثمّ تدخـل المدينة في صراع بـين المؤيّديـن للفكـرة والرافضـين لها. تعـاد الأسـئلة القديمة الجديـدة، هل نخـاف المـوت أم نتقبّلـه؟ حقّ الأحيـاء وحـقّ الأموات. المـوتُ درسٌ. الزمـن سـبّورة سِـحْرِيّة تمحـو كل شيء. لا أذكر ما هي نهايـة القصّـة. كانـت مُجـرّد هلوسـة عـن الحيـاة والمـوت، مثلمـا هـي الحيـاة العراقيـة العاديـة: طبخـة واقعيـة، لا يكتمـل مذاقهـا من دون رشّـة هلوسـة!

تصلّبت أصابعه من جديد فوق مقود السّيّارة. كان يقلّب في رأسه، شذرة لسيوران، قرأها بالأمس (كُفّ عن تعنيف أيّ أحد. فلو كان بمكنة الناس أن يتبدّلوا، لتبدّلوا، لكنهم لا يستطيعون. وأنتَ لا تستطيع أكثر

منهم) مثلما يحدث، مراراً، مع تقلّبات ذهنه. خدر في الرقبة وتصلّب في الأصابع.

ضغط على دوّاسة البنزين، متجاوزاً شاحنة محمّلة بالصخور.

زوجته جوانة كانت أوّل مَنْ فطن لأمر أصابعه. أيّامها كانا ينعمان في أمسيّات شتوية تُعدّ خيالية مقارنة بحياتهما اليوم. يتّكئ شوان على كوشة مطرّزة بغزلان تشرب من نبع بينما تسند جوانة رأسها على فخذه. وفي الهدوء الدافئ يتغذّيان على الكُتُب. هدوء لا يقطعه سوى أزيز قوري الشاي فوق المدفأة. هو يلتهم الروايات وكُتُب الشِّعْر، وهي تلتهم كُتُب التاريخ، حتّى ممارسة الحبّ كانت أيّامها قراءة مثيرة.

شدّتْها طريقة قراءة زوجها. كان يسند، مثل أغلب القرّاء، صفحات الكتاب المفتوح على راحة يده. لكنه في بعض الفصول والمقاطع كان يمسك الصفحة بطرف إصبَعَيْه المتصلّبَيْن، ساحباً الورقة بشدّة، وكأنه على وشك تمزيقها. كانت الشرايين تحتقن في ظهر يده. ولم تكن الأصابع ترتخي إلا بعد زوال السِّحْر.

. بابا .. عطشانة ..

ركن السّيّارة على جانب الطريق. وعاد من الصندوق الخلفي بقنّينة مياه معدنية.

شربتْ دريا، وغطّتْ في النوم من جديد.

تأمّل شوان ملامحها. ربمّا تشبهه فعلاً. معارفهما جميعهم يتّفقان على ذلك. هو كان يراها نسخة من أمّها. ربمّا تشبهها من جهة الأنف

والحاجبَيْن. جوانة تسخر من أنفها طوال الوقت. تمسك طرفه أمام المرآة (إنه منقار نسر، وليس أنفاً بشرياً) خمس سنوات كانت كافية لنزع روح جوانة التي عرفها وشغف بها أيّام دراستهما في كُلّيّة الآداب. مرحها، تعلّقها في الكُتُب، عفويّتها، طريقتها في تبسيط ما تُعقّده الحياة على حدّ قولها. تبخّرت جوانة التي يحبّ، ولم يتبقّ منها سوى رائحة إبطَيْها النباتية. تشاجرا من جديد. جمعتْ ملابسها في حقيبة (سأذهب عند أختي في كركوك .. اعتنِ أنت بدريا .. لقد تعبت .. تعبت..) ها هو ينطلق للمرّة الثانية خلال شهر من السليمانية إلى كركوك. هذه المرّة سيضع النقاط على الحروف.لا تستحقّ البنت البهدلة في مثل هذا العمر. بعد شهر فقط يكون عيد ميلادها الخامس. ثمّ أي جنون هذا ! كركوك ما زالت مدينة خطرة. قد يتفجّر العنف في أيّ لحظة. لا ينكر شوان أنه هو الآخر قد تغيّر. لقد صار أكثر انطوائية، قليل الكلام. حضوره في البيت يشبه تأدية واجب عسكري، هذا ما قالته جوانة في آخر شجار.

طبعاً (ردّ عليها شوان بعصبية) الناس كلهم يتغيّرون ..

أخذت أصابعه تتصلّب من جديد. وهو يعيد في ذهنه كلماته غير المنطوقة في ذلك اليوم. أفكاره الأدبية عن الحياة، والتي تبدو تافهة، مصطنعة، في شجار على مائدة الطعام. ضغط على دوّاسة البنزين، متجاوزاً ناقلة عسكرية محمّلة بجنود متجهّمين. ربّما هم ذاهبون لخوض معركة شرسة مع الإرهابيين. المسافة من السليمانية إلى كركوك لا تستغرق أكثر من ساعَتَيْن في سيّارة حديثة مثل سيّارته. اشترى السّيّارة أخو جوانة. قال إنها هدية. لكنْ، بعد قليل تبيّن أنها هدية بالأقساط. كان على شوان أن يسدّد كل شهر جزءاً من ثمن السّيّارة. تدخّلات أهلها تُسمّم حياتهما.

قد تبدو في الظاهر أنها مُجرّد محبّة وتعاضد عائلي . لكن غرور أخوة جوانة كان يدمّر أعصابه. نزقهم، وإيمانهم الراسخ بالمال وسلطته. خفّف من سرعة السّيّارة، وابتسم لمؤخّرة شاحنة نفط أمامه،وهو يتذكر صورة الأمّ التي تلحس كسّ بنتها. كان شوان يجيد القراءة في اللغة العربية والفارسية والتركية. يعمل مترجماً في إحدى المنظمات الأجنبية لإزالة الألغام على الحدود مع إيران. ترجم إلى اللغة الكوردية بضع روايات عالمية. وصل إلى صورة الأمّ والبنت في أثناء ممارسته لعبته في شبكة النت أوقات فراغه. يطبع كلمة في محرّكات البحث، ويتابع إلى أين يمكن أن تقوده. طبع في محرّك غوغول كلمتَي: العالم ينهار. فظهرت عشرات اللينكات. تقارير عن البيئة. قصائد. مقالات. بحوث علمية كنذير شوؤم. أفلام قصيرة. إلى أن وصل إلى صورة امرأة تضاجع ابنتها، وقد علّق أحدهم أسفلها بكلمَتَي العالم ينهار باللغة العربية. كان شوان يعيب على الأدب العربي والأدب الكوردي برودتهما وسطحيّتهما. وكان يحلم بكاتب يحفر بأظافيره نفقاً، ويهرب من سجن المحرّمات المتعفّن والمعتم إلى الأبد.

أفاقت دريا، فركن شوان سيّارته لتناول الطعام. دخل إلى مطعم (مشويات البلاد). راقب شوان النادل وهو يصيح بصوت عالٍ على الطلبات بكل لغات المدينة، الكوردية والعربية والتوركمانية. داعب شوان أنف دريا مبتسماً لها. تصميم المطعم أرجع ذكريات شوان إلى مطعم شيلان الذي كان يعمل فيه وسط بغداد قبل سنوات. كان ذلك أيّام دراسته الأكاديمية في كُلّيّة الآداب. شوان من عشّاق بغداد، والحالمين بعودتها إلى أمجادها. المعرفة والسلام. عمل شوان في مطعم شيلان مع شابّ كوردي، اسمه رزكار. كان رزكار يصبّ الطعام في الصحون، وشوان كان يحملها إلى الزبائن، فهو يتكلّم العربية بطلاقة، ويتعامل مع الزبائن

بذكاء النادل الذكي والطيب. انزعج رزكار كثيراً حين عرف أن شوان من مواليد مدينة كركوك. اتّهم أهلها بالجبن والتواطؤ مع الحكومة. أفكار وحماقات، كان من السهل لشوان أن يغفرها. لدى رزكار قرن مخيف من قرون رؤوس القطيع الصلدة. ثيران هائجة. هي مسكينة ضيّق على خصيّها لتطعن أو تتوه. كان شوان يشفق على (عقل) رزكار، لكنْ، ليس حين كشف له رزكار عن سرّ زجاجة مسحوق الصراصر. كان مطعم شيلان يقع في شارع الجمهورية. أغلب مطاعم وفنادق هذا الشارع تحمل أسماء كوردية، وأصحابها من الكورد أيضاً. الزبائن كانوا من الكورد والعرب. الزبائن العرب كانوا هم أصل المشكلة مع رزكار. كلّما يدخل شوان إلى المطبخ ويوصي على طلب، يسأل رزكار بلهفة: الزبون كوردي لو عربي! أوّل الأمر كان شوان يُرضي غروره، ويجيبه عن سؤاله. حين يسمع رزكار أن الزبون عربي كان يبتسم بخبث، ويصيح بصوت عال: حاضر من عيوني. خمّن شوان أن رزكار مهتمّ بأطباق الزبائن من الكورد أكثر من العرب، كان يزيد من كمّيّة الطرشي أو السلطة أو حتّى أن يضيف قطعة زائدة من اللحم إلى حساء الزبون الكوردي. طلب رزكار من شوان ذات مساء أن يصحبه إلى نادي اتّحاد الأدباء لشرب العَرَق. تردّد شوان أوّل الأمر، بالتأكيد سيصدع رأسه بالحديث عن القومية الكوردية وبطولات الملا البرزاني، لكنْ، لم يقدر شوان على الرفض، بسبب إلحاحه الشديد. بعد ثالث كأس عَرَق انحلّت عقدة لسان رزكار، وارتفع صوته. شعر شوان بالحرج، كان له في النادي الكثير من الأساتذة والأصدقاء. بعد أن التهم رزكار ثلاثة صحون « لبلبي» انحنى على الطاولة، وهمس لشوان: هل تعرف لماذا أسألك في كل مرّة عن الزبون عربي لو كوردي! قال إنه يحتفظ في المطعم بزجاجة سرّيّة. كان رزكار يسكن في فندق الرحمان الذي تعيث فيه الفئران والصراصر. يجمع

الصراصر من الحمّامات، ثمّ يثبتها في غرفته بدبابيس على لوح خشبي، ويتركها تموت وتجفّ في الشرفة . بعد ذلك يطحنها جيّداً إلى أن تصبح مسحوقاً قهوائيّ اللون، ثمّ يعبّئه في زجاجة معجون طماطم فارغة. الزبون الكوردي يأكل طعاماً نظيفاً، أما وجبة الزبون العربي، ففيها المسحوق. لم يصدّق شوان ما قاله أوّل الأمر ((خره رزكار، ما الذي يعنيه تصرّفك هذا؟ ماذا لو تسمّم أحدهم؟ ...)) ضحك رزكار، وقال: يا زبون ... يا بطّيخ، طبّه مرض، لو أخوه، لو أبوه بعثي ... لو يطلع واحد يشتغل بالأمن، وكان ينيك بنسوان الأكراد بالثمانينيات، بعدين الصحّة شنو راح تسوي، إذا تسمّم كلب منهم؟ راح تعزل المطعم، كس أخت أبو سيروان وأخت مطعمه، كرش ابن الحيوان مليان فلوس .. لك شوان أخويه، نسيت الأنفال وحلبجة والنسوان والأطفال بدائرة الأمن؟ ..

لم يتمكّن شوان حينها من فتح فمه. ثمّ ماذا يمكن أن يفعله شخص مثله لإعطاب شبكة الدماغ الجمعي؟ كان شوان يفكّر: نحن بحاجة إلى قرن كامل، نتفرّغ فيه للهدم فحسب، ثمّ قرن آخر للتنظيف، وثالث للتخطيط، ورابع للبناء. هذا إذا لم تُرغمنا الظروف على أن نحتاج إلى قرن للحرق والفرجة مرّة أخرى. ركض شوان إلى مرحاض النادي، وتقيّأ كل ما شرب وأكل.

أنهى الأب والبنت طعامهما في مطعم مشويات البلاد. طلب شوان الشاي وعصير الرّمّان لدريا. أعجبتْه كثيراً النقوش في ملعقة استكان الشاي، فوضعها في جيبه. طلبت دريا أن تذهب للحمّام. ساعدها شوان، وقام بغسل يَدَيْها بالصابون جيّداً. دفع الحساب، وغادر المطعم. اقترب من دكّاني المجاور للمطعم. كان دكّاني مخصّصاً لبيع ملابس الأطفال

وألعابهم. أنا متزوّج، ولديّ أربعة أولاد. رحّبتُ بهما، ومازحتُ طفلته. وضعتُ قناع مصّاص دماء على وجهي، فانتبهتُ إلى انزعاج شوان. اعتذرتُ له، وساعدتُهُ في اختيار ثوب مناسب. اشترى ثوباً سمائياً، تتوسّطه وردة نرجس كبيرة. صاح أحدهم فجأة: الله أكبر، وانفجر، واشتعلت النيران. كان شوان ممدّداً على الأرض وهو يمسك بثوب البنت. وكانت دريا ممدّة على مسافة قريبة منه، مقسومة إلى نصفَيْن. كان رأس شوان باتّجاه بنته وعيناه مفتوحَتَيْن، وكأنه ينظر إليها. لكنه لم يكن يراها، كان قد صار في عالم الموتى.

لم تمتْ أنتَ في موقع الانفجار.

أُصبتُ أنا بحروق فظيعة. انصهر لحمي مع ملابس الأطفال وألعابهم البلاستكية. بعد يوم واحد، لفظتُ آخر أنفاسي في المستشفى.

عزيـزي حسـن. انقطـع الإنترنـت اليـوم. وهـا إنـه عـاد قبل قليـل. يسرّنـي جـدّاً أنـكَ تكتب. كمـا أرجـو أن لا تتردّد في إرسـال نتاجـكَ. وقتـي طويـل، وقـد أنافـس هنـا أهـل الكهـف! لكـم يسرّنـي أنـكَ تفهمنـي، بالطبـع ليـس منـذ اليـوم، وهـذا لا يبـدّل شـيئاً في وضعنـا كــ (ولـد الخايبـة). ثـقْ، يا حسـن؛ بأن شـعوري يتعمّـق مـع كل يـوم بأنـي (غريـب) عـلى هـذا العالم، ولمـاذا؟ لأنـي لا أفهمـه، كمـا أنـه لا يعطينـا ولـو فرصـة ضئيلة كـي يحـاول فهمنـا. بالطبـع أقصـد، وليـس هـذا العالـم المرئي الـذي كله تهديـد، بـل الآخـر: المصيـدة التي دفعنـا فيهـا. ويبقى سـؤالي إلى النهايـة: لـمَ هـذا كلـه؟ ...

رغـم أن هـذه الأفـكار المحمومـة لا تفارقنـي، أجـد أن أفـكاراً أخـرى قـد اندسّـت فيهـا - أفـكار الانتمـاء إلى بقعـة منكوبـة وملاحقـة عبثياتهـا. أكيـد أنـه يغيظـكَ مثـلي مـا يحـدث عندنـا. أفكّـر أحيانـاً بـأن الدكتاتـور، رغـم وحشـيّته، كان يعنـي أمـلاً في الاسـتقرار، وخروجنـا مـن أرض تجـارب مرهبـة كهـذه. أنقـاد أحيانـاً إلى التـزام مـا، لكنـه في الأحـوال كلهـا التـزام إنسـان يائس.

في هـذا الصبـاح، أنهيتُ نصّـاً، لا أعـرف إن كان فيـه شيء جديد. في الواقـع لا شيء جديـداً مـن الناحيـة الجوهريـة، في أفعـال التأريخ كلهـا. فهـذا الإنسـان لا يفعـل شـيئاً، وكما يقول سـيوران، سـوى إطـلاق روائحـه الكريهة ...

محبّتي وتمنّياتي بإبداعات جديدة.

Telegram: @Arab_Books

***

تقلّبات صحّيّة وكأنني في مرجل من صنع شيطان مجهول، وليس ذاك الذي نعرفه. الغريب أن كل شيء يحدث بدون مقدّمات، ممّا يدفعني إلى الأخذ بقدر ليس بالقليل من عدم الاكتراث. رغبتُ في أن أقوم بجرد لما فعلتُهُ كتابياً في الأشهر الأخيرة. ضحكتُ قليلاً حين وجدتني لا أتذكّر الكثير من الكتابات. ولكَ أن تتصوّر كيف حال القارئ الذي ليس بالضرورة طرفاً لمعادلتي الكتابية. أصابتْني الدهشة حين وجدتُ أن هناك أكثر من عشر قصص وعدداً من (ضدّ اليوميات) والتراجم. أضحك أيضاً حين أجد أنني مقصّر كتابياً...

كانت هناك أزمة صحّيّة قبل أسبوع استغرقت حوالي يومَيْن، لكنني خرجتُ منها سالماً - ربّما أحالني المرض إلى عنقاء صغيرة! هل تعرف، يا حسن، أن ما يُنقذني من الجمود والعجز عن الكتابة هو الاستمرارية والكتابة اليومية - مُجرّد أن تكتب كي لا تنسى هذه العادةَ التي أنزلها على الرأس ربّ مجهول.

***

شلونك؟! كما وعدتُكَ أبعث بالشذرات السيورانية. لكنْ، ليست كاملة، فإبليس انسلّ إلى الكومبيوتر، وبلع حوالي النصف! لم أعرف ما عليّ أن أفعله سوى إطلاق اللعنات وتكرار: يا له من حظّ تعس! أعتقد أن الذنب لا يتحمّله إبليس وحده، فأنا منذ يومَيْن أصارع نزلة برد من النوع السادي، لكنني لا أجد الخلاص إلا في الكتابة علماً بأن هناك الكثير من القراءات بالانتظار ...

محبّتي

مديرة مدرسة القطط

انتظرتُ رائد السوري في مقهى تقع في ساحة بلاس لويزا. لم تكن هذه زيارتي الأولى إلى بروكسل. في العام الماضي كنتُ هنا، وقضيتُ ثلاث ليال مع أولاد خالي، أصدقائي، أخوة الفن:

أصغر الأخوة كان يُحضّر الماجستير في المسرح في أمستردام. هو حبيب قلبي. قبل أن يغادر العراق كاد أن يتفحّم في سيّارة نقل صغيرة. صديقه هو مَن احترق مع أناس آخرين، سُلِّموا لأحبّائهم في توابيت، لم يكن فيها سوى فحم اللحم والعظام. الصديقان كانا يستقلان باصاً صغيراً. ترجّل ابن الخال من السّيّارة، وودّع صديقه العزيز. تحرّك الباص، فتنبّه ابن الخال المسرحي إلى أنه نسي قمصيه الجديد في كيس أسفل المقعد. ركض بضع خطوات خلف الباص الذي ابتعد إلى مسافة قريبة، ثمّ رمى المسرحي بنفسه منبطحاً على الأرض. لقد انفجر الباص، وصار فرناً بشرياً. أكبر (أخوة الفن) هو رسّام. دخلنا الجامعة في السنة نفسها، هو درس الفنون التشكيلية، وأنا الطّبّ البيطري. الرسّام كان رفيق طفولتي الضاحك. حشّاش تنكيت درجة أولى. وبقي الرسّام طفلاً ضاحكاً رغم أنف الزمن! أما موسيقي الأخوة، فهو صديق روحي. السّيّد الموسيقي حياته حفلات ومخدّرات وموسيقى ونساء. تتخلّل هذه الحفلات أوقات يخصّصها للعمل على أفلام وثائقية عن أصدقائه وذكرياته. أما السّيّد المخرج في حلقة (الأخوة)، فهو

مبعث فخـري وإعجابي. السّـيّد المخرج ابـن خالي العزيـز يمكنه أن يفلـش أيّ نقـاش جماعـي أو فـردي، مثـل جرّافة فولاذيـة. يفلش بسـخرية ذكيـة، لا تـترك المتناقشـين يظنّـون أن النقـاش خـسر طاقـة الجدّيّـة، فيواصلـون تحدّيه.

اتصلـتُ بـأولاد خـالي (مؤيّد وضيـاء وعـادل وانكيـدو) وأخبرتُهم بقدومـي. قالـوا أوّل ليلة اسـتراحة في البيـت. نَلْتَمّ كلنـا ونجيب شرب ومرايهونـا ونطبـخ ونلعب فيفـا، وسـوالف للصبح، وبعديـن نخلّيك تخلـص شـغلك ومقابلاتـك الفنتازيـة، ونديـح ونتسـكّع ونسـكر في ليـالي بروكسـل الجميلة.

كنّا نسهر في شقّتي، كلنا سوريون. لاجئون جدد وقدامى. رسّام وكاتبان وطبّاخ وسائق سيّارة إسعاف. كان هناك الكثير من الطعام السوري والعَرَق والبيرة والنبيذ والكثير من الكلام الصاخب والغاضب عن سوريا وخرابها. تحدّثتْ منى عن أهمّيّة الاندماج في المجتمع البلجيكي. منى شاعرة تعيش في بروكسل من أكثر من عشر سنوات. ساندها الطبّاخ حازم، وهو يملك مطعماً سورياً ناجحاً في ضواحي بروكسل. قلتُ لمنى: اللاجئون الجدد هم ناس محطّمون، مُتعَبُون، خائفون، ولم يُصدّقوا بعد أنهم لن يعودوا مرّة أخرى لمُدُنهم وأهلهم وحياتهم في البلد. الحديث عن الاندماج يبدو لهم في كثير من الأحيان كمزحة سخيفة، ومرّات كتهديد بواقع كابوسي جديد. ليس من السهل أن يبدل الإنسان جلده، الإنسان ليس أفعى ((شعرت بالمبالغة في مثال الأفعى)). اللاجئون الجدد ما زالوا تحت تأثير الصدمة، والكلام عن الاندماج مازال مبكراً. الأمر يشبه شخصاً تعرّض لحادث مروري مرعب، وحين يفتح عينَيْه في المستشفى، تأتي ممرّضة، وتقول له إننا نجري استفتاء عن جودة خدماتنا الطِّبّيّة، وتطلب منه أن يجيب عن بعض الأسئلة.

عمّ صخب الكلام من جديد. طُرحتْ آراء عدّة، اختلط فيها المزاح بالجدّ. غنّينا معاً أغان سورية تراثية، وضحكنا، وكرعنا المزيد من الكؤوس، والتهمنا المزات، إلى أن قام سعيد بمسرحيته الخرائية، فأثار غضبي وتقزّز الآخرين. أعطتْه منى هدية، كتاب لمؤلّف أمريكي، يتحدّث عن رواية ما بعد الحداثة. سعيد كان سكراناً، هو روائي كتب رواية واحدة فاشلة، ويحاول أن يكتب الثانية. قالت له منى لكي ينجح هنا في أوربا عليه أن يفهم تطوّر الرواية في الغرب. أخذ الكتاب، وقال (كس إخت أوربا وكس إخت العالم)، وذهب إلى الحمّام. حدّثنا سائق سيّارة الإسعاف عن عمله مع أصحاب الخُوذ البيضاء في حلب قبل أن يقرّر الرحيل، فهو لم يعد لديه القدرة والتحمّل على نقل أشلاء جثث الأطفال في سيّارة الإسعاف. عاد سعيد من الحمّام، وقال بصوت عال وكأنه خطيب في جامع ((يا أيّها المؤمنون والمؤمنات، لا حداثة ولا بعد حداثة، الحكايات الخرافية وحدها تصلح لهذا العالم، حكايات خرافية دموية مرعبة وعنيفة.. حكايات يموت فيها الواقع، ويولد الهذيان، وتُحرَّر المخيّلة كحيوان غاضب وجريح)). ترنّح سعيد، وألقى بجسده على الكنبة مثل حارس مرمى يصدّ كرة. بعد لحظات غطّ في النوم. عاد صديقنا حازم الطبّاخ من الحمّام ضاحكاً، وقال: اسمعوا، يا ناس، هناك كارثة خرائية في الحمّام. لقد سدّ سعيد المرحاض بكتاب ما بعد الحداثة، ألقى به هناك، وتغوّط فوقه.

في اليوم التالي، أفقتُ على صوت جرس الباب. ثمّ سمعتُ الباب يُفتَح. قفزتُ من سريري مذعوراً. كان سعيد واقفاً عند الباب. كنتُ قد نسيتُ أنه قضى الليلة نائماً على الكنبة بعد أن ترك خراءه فوق كتاب ما بعد الحداثة. قدّم سعيد فتاة شابّة وهو يسبط يده ويقول (تفضّلي.. تفضّلي).

صباح الخير، قالت الفتاة.

رمقتُ سعيد بنظرة غاضبة. لم يكتف بخراء الأمس، والآن يدعو شخصاً غريباً إلى بيتي.

غمز لي بخبث، وقال بإنكليزية رديئة: (هذا هو الأستاذ رائد، فنّاننا الرسّام، هو أيضاً لا يتحدّث الفرنسية، لكنه شاطر في الإنكليزية).

مدّت الفتاة يدها للمصافحة (أنا شارلوت، آسفة على الإزعاج).

كانت الشقّة تعاني من فوضى قصف حفلة الأمس. جلسنا إلى الطاولة في المطبخ، بعد أن نظّفها سعيد بسرعة من قناني البيرة الفارغة وصحون المزّات، وهو يتصرّف كنادل محترف. صبّ لنا الماء في كأسَيْن نظيفَيْن، وأعدّ لنا القهوة. كانت الفتاة مُربَكَة وشاحبة. لا أظنّ أنها بلغت العشرين. كانت تضع حلقة في أنفها، وترتدي جينزاً أسود وقميصاً أخضر شفّافاً. اعتقادي بأن سعيد يعرفها كان خاطئاً!

كرّرت الفتاةُ أسفَهَا، وقالت إنها تحتاج إلى مساعدتنا، لكنْ، قبل كل شيء تريد أن تعرف إن ما كنّا نؤمن بالدِّين أم لا! ضحك سعيد وهو يصبّ لنا القهوة (لا تقلقي، عزيزتي، الدِّيْن قصّة معفّنة قديمة إحنا مخلّصين منها)، وشاركنا الجلوس إلى المائدة. نظرتُ أنا وشارلوت بالوقت نفسه إلى سعيد.

قُتلت شارلوت في سوريا.

خبر مقتلها غير مؤكّد. يومها حدّثتْنا شارلوت عن حبيبها. شابّ في مطلع العشرين، وُلد في بروكسل من أصول مغربية، واسمه وليد. لم يكن حبيبها يجيد سوى القليل من العربية. كان ملاكماً طموحاً وشاباً مرحاً، قبل أن تعصف في ذهنه الكآبة وأفكار الجهاد. رحل فجأة وليد إلى سوريا، وانضمّ إلى الدواعش. كانت شارلوت حائرة وتائهة ومكسورة،

بسبب حزنها وعدم فَهمها لرحيل وليد. سألتْنا عن سوريا والحرب الأهلية والدِّين والدواعش والديكتاتور. أدخلناها في متاهة تاريخية سياسية دينية معقّدة، حتّى سعيد الروائي وأنا السيد الرسّام تهنا في دهاليزها. تبادلْنا أرقام هواتفنا، ووعدناها خيراً. بقي سعيد على تواصل مع شارلوت، إلى أن رتّبا معاً كل شيء، ونفّذا خطّتهما.

فيلم مديرة مدرسة القطط حصل على أكثر من جائزة، ومازال سعيد يتجوّل بين مهرجانات العالم.

سافر سعيد وشارلوت إلى سوريا. سعيد من أصول كوردية. كان المقاتلون الأكراد يحمون مُدُنهم، ويخوضون قتالاً شرساً مع الدواعش. أراد سعيد أن يساعد شارلوت في تأمين اتّصال مع وليد. لم يكن أمراً سهلاً، والحبيب في حضن الدواعش. تعرّفتْ شارلوت على حياة المقاتلين والمقاتلات في المدينة التي تعرّضتْ للقصف أكثر من مرّة. وتفرّغ سعيد لاتّصالاته مع معارفه وأصدقائه للوصول إلى خبر عن وليد. كان الأهالي يتعاونون فيما بينهم على توفير الماء والطعام للمقاتلين. تطوّعتْ شارلوت للعمل معهم، فأحبّها الأهالي، وكسبتْ ثقة المقاتلين. بعد ثلاثة أشهر توصّل سعيد لحكاية المجاهد وليد. تبخّر حماس الشابّ وليد في الجهاد ونصرة المظلومين بعد عام واحد من مكوثه مع داعش. أرعبه أبناءُ الله. أذهلتْه سكاكين داعش وهي تقطع رقاب الأصدقاء والأعداء بوحشية، ومن دون رحمة. كانوا وكأنهم ماكينات ذَبْح آلية، لا تعمل بالمشاعر، بل بشفط الدم. وضع وليد خطّة للهروب من داعش والتوجّه إلى تركيا. نجح في تخطّي حدود مركز المدينة، لكن أهالي إحدى القرى الموالية أمسكوا به، وسلّموه لسكاكين داعش، فذبحوه.

كان سعيد يُصوِّر بكاميرا فيديو يوميات رحلتهما منذ بدايتها من

بروكسل. صور تفاصيل حياة الأهالي والأطفال والمقاتلين، ويوميات شارلوت التي أدخلتْها القطط إلى عالمها. بعد صدمة كارثة ذَبْح صديقها وحبيبها وليد صارت شارلوت انطوائية، وقليلة الكلام. ثمّ راحت تعتني بالقطط المذعورة والتائهة في كل مكان من المدينة. بحثتْ عن مكان لإيواء القطط. اقترح سعيد عليها بناية مدرسة الأطفال المهجورة. كان نصف المدرسة مهدّماً بسبب القصف. رتّبتْ شارلوت غرفةَ مدير المدرسة كغرفة سَكَن خاصّة لها. نظّفت بعض الصفوف والممرّات من الغبار وزجاج النوافذ المحطّمة، وأدخلت القطط إلى المدرسة. تعاطف الأهالي معها. راحوا يتبرّعون لها ولقططها بالطعام. بعضهم قدّم لها الشموع والشمعدانات. آخرون أهدوها سنادين نبات وستائر مطرّزة بالورود. صارت مدرسة القطط ملجأ روحياً للأهالي والمقاتلين. كانوا يمرّون على المدرسة، لترطّب روح القطط الأليفة وعينَي شارلوت، قسوة حياتهم. من أكثر المشاهد التي أعجبتْني في الفيلم هي شارلوت جالسة تقرأ في كتاب على رحلة مدرسية على ضوء الشمعدان بينما القطط تموء وتلعب وتتشاجر من حولها.

سقط خطّ الدفاع الأوّل للمقاتلين الأكراد، فأخلى بقية المقاتلين الأهالي، وانسحبوا تدريجياً أمام شراسة هجوم الدواعش. في فوضى الانسحاب، اختفت شارلوت. عاد سعيد إلى بروكسل. كانت لديه مادّة فلمية جيّدة. اتفق مع شركة إنتاج صغيرة لإكمال مشروع فيلمه، والذي حقّق نجاحاً جيّداً. ممكن نتوقّف، خلّي نتمشّى، الطقس رائع!

أكيد..

أظنّ أنكَ سمعتَ بـ ستروماي.

أعرفه، أحبّ بعض أغانيه.

انظرْ! هنا في هذه الساحة، بلاس لويزا. صوّر فيديو أغنيّة formidable

أذكـر الفيديـو جيّـداً.. نعـم.. صحيـح! هـذا هـو موقـف الـترام نفسـه. أخبرتَنـي أنـكَ متوقّـف عـن الرسـم.

أعتقد أن كارثة العنف والدمار سحقت رغبتي في التعبير، أشعر أن أصابعي تفحّمت. لم أعد أؤمن بالمخيّلة، العالم أقذر وأتفه من أن يُعبّر عنه الإنسان بالخطوط والألوان. مَن يدري؟! ربّما أعود للرسم من جديد.

يمكـن أن يخرج مـن أصابعـكَ التي صـارت فحماً لوحـات مثيرة كثـيرة. ومتـى لـم يكـن العالـم قـذراً ووحشـياً؟! لـم يشرْ سـعيد في فيلمـه عن مـا حـدث لاحقـاً لمدرسـة القطط.

صحيح! كان من الأفضل أن يفعل ذلك. الدواعش احتلّوا المدرسة، وراحوا يعلّمون الأولاد الشريعة والقتال. تخيّلْ: طبعوا كتاب رياضيات جديداً، فيه رصاصة زائد رصاصة يساوي رصاصتينْ!

خره باللل... أوكي، خره با الگواد.

ههه.. شنو تخاف تكفر؟! أنتم العراقيون الكفر بالنسبة إلكم فنّ ورياضة، لهذا ما افتهم مرّات شلون عملتوا حرب أهلية طائفية، وقبلنا! كس إخت الجهل والظلم. دمّر حياة أجيال بعد أجيال. قلْ لي، حسب ما فتهمت أنت تعمل المقابلات مع فنّانين وكتّاب مهاجرين فقط.

تقريبـاً! ليـس المهاجـرون فحسـب، بـل حتّـى مَـن مازالـوا يعيشـون في البـلاد. أوكـي، أقصـد فقـط العراقيـين في البـلاد. تعرف السـفر إلى بـلاد عـدّة بحاجـة إلى مصاريـف كثـيرة، لا أقـوى عليهـا.

متى تطير؟

لــديّ وقــت. الليلــة مــع أخــوة الفــنّ. وغــداً أزور فــان كــوخ، وبعديــن أطــير..

أقــرأ مــن جديــد (أليــس في بــلاد العجائــب). إنــه الكتــاب الــذي سـبق (سـهر فينيغينـز) الجويـسي. فـكلا الكتابَـيْن تحليـل باهـر للعقـل الغـارق في الحلـم. وفي الاثنَـيْن، يكـون علـم النحـو متوجّهـاً صـوب الحلـم وإيقاعـه - ذاك التغلغل أو التـسرّب والتباطـؤ والتكرار والتبـدّل الفجائـي للوتـيرة، ثـمّ الرتابـة، وفيمـا بعد خطـف نتفٍ من هـذه الرؤيـة وتلـك. والمدهـش أن هـذا كلـه يخـصّ الحـدث واللغـة عـلى السـواء. مفهـوم أن هـذه (الغيريـة) في العلاقـة مـع العالـم في أثنـاء اليقظـة لا تقتـصر، بالتأكيـد، عـلى تلـك القضايـا الخارجيـة. وهكـذا فمـن ضمـن أكـبر أحـوال الفضـول البـشري معرفـة ألغـاز الحلـم، ولمـاذا ينشـأ مثل هذا النسـق الـذي يملـك منطقـه الخاصّ؟ ومـن أيـن هـذه السلسـلة مـن الأسـباب والنتائـج التـي تخـرج عن سـيطرة الحالـم؟ وعـلى حـدّ تعبـير أليـس: يصعـب عـليّ قليـلاً أن أفهـم ... تـبرز فكـرة ... لكـنْ، لا أعـرف بالضبـط مـا هـي!

***

عزيـزي حسـن. أتّفـق مـع بعضهـم أن لا شيء في السياسـة غير الوحـل والقتل وسـوق نخاسـة وأكثـر من طابـق من جحيـم دانتي. مـن ناحيـة أخـرى، أتّفـق معـكَ بـأن لا أحـد قـد حـرّك ويحـرِّك سـاكناً أمـام هـذه المذابـح كلهـا. واضـح أن الضجّـة كبـيرة حـول مـلالي إيـران الذيـن يسـتغلّون كثـيراً الخـطّ الأحمـر - خـطّ التهديد بالحـرب، وإشـعالها مـن جانـب الأمـيركان. لكـنّ وجود شـيطان لا

يعني عدم وجود آخر أو أكثر. والأمريكان قد يستولون على نفطنا، ويُعزّزون القلعة الإسرائيلية أكثر، لكنهم في الأحوال كلها، لن يعودوا بنا إلى القرون الوسطى. بالطبع ليس أمامنا مثل هذا الخيار: إمّا أن نكون أوغاداً لمصلحة الأمريكان، وإمّا لولاية الفقيه. أكيد أنكَ لمستَ إشمئزازي من السياسة، والذي أحاول طرده بالأخذ بالمواقف العامّة، الأساسية، التي أعمل فيها استثناء حين آخذ بمسطرة اللونَيْن الأسود والأبيض...

***

أظنّكَ الفاعل الحقيقي (لكنْ، بطلعة ملائكية!) لهذه الحمّى التي تنتابني منذ أيّام - حمّى الترجمة قبل كل شيء . فأنتَ متفنّن في التذكير بأن سيوران في الانتظار! في واقع الحال، هو أمر مُسرّ، ويوفّر القناعة أن أجدّد الصلة مع مثل هذا النبي - الفلتة. محبّتي.

***

عليّ ترانزستور

كان موعدنا عند رأس عليّ. تهتُ في الأزقة الضّيّقة، ولم أعثرْ على الرأس. دخلتُ إلى مقهى شعبي صغير، وسألتُ هناك. دلّني صاحب المقهى الشابّ. لم يكن مكان الرأس بعيداً. مازال الوقت مبكراً على الموعد. شكرتُ الشابّ، وطلبتُ ماء وحامضاً. لم يكن في المقهى سوى رجل نحيل، يحني رقبته إلى الأمام وكأنه نائم. مرّتْ في ذهني صورة كلب جياكومتي. أشعلتُ سجارة، وتفحّصتُ المقهى. لفتَ انتباهي ساعة المقهى الجدارية القديمة. عاد الشابّ بطلبي، فأبديتُ إعجابي بطراز الساعة القديم والنادر، وتأسّفتُ لأنها لا تعمل. قال الشابّ إن الساعة تعمل بشكل جيّد. لكنه أوقفها عند الوقت الذي توفّي فيه والده.٦,١٥ كان الأب هو مَن افتتح المقهى قبل ١٦ سنة. توفّيتْ والدة الشابّ عندما كان صبياً. صار الأب هو الحضن الدافئ والأمن للصبي الذي ترك مدرسته، وراح يساعد في أعمال المقهى. يقول الشابّ إن أباه كان يوقظه كل يوم قبل صلاة الفجر قائلاً (مو زلمة الي تطلع عليه الشمس وبعده نايم)، إلى أن جاء اليوم الذي أشرقت فيه الشمس على الأب، ولم يفقْ، ظلّ نائماً هائماً في عالم الموت. سألني الشابّ إن ما كنتُ أعرف قصّة رأس عليّ ترانزستور. فقلتُ، هذا هو بالتحديد ما أنا ذاهب لمعرفته!

كان عليّ ترانزستور، مصلح التلفزيونات، أوّل مَن تنبّهتُ إلى إصابته بمرض التهاب الدماغ الذي تُسبّبه بعوضة الـ (كوليستا ميلا نورا)، وهي شرّيرة بحقّ. لها ذيل أسود، وتتغذّى على الطيور الجارحة. النسور خاصّة. ومع أنها لا تعيش إلا في المستنقعات المتجمّدة، لا يُعرف لحدّ الآن كيف تنتقل أمراضها إلى الإنسان، فنادراً ما تتطفّل الـ (ميلا نوارا) على فصيلة الثدييات. والمثير حقّاً، هو أنه لا أحد يعرف كيف دخلت بلادنا الحارّة. ربمّا حملتْها غيمة حرب متفحّمة، هل لديكَ أنتَ تفسير؟

لا أدري، أعتقد أن أيّ مكان في العالم يتعرّض لموجات رهيبة من العنف لسنوات طويلة يمرض ويتفسّخ. لا يخسر المكانُ الطمأنينةَ فحسب، بل روحه ومناعته الطبيعية.

أنتَ تستخدم كلمات كلش مثقّفة! قصدك الحرب ناكت البلد من طيزه وتمرض! على كل حال، في إحدى الأيّام، كنتُ في زيارة استجداء سريعة لدكّان عليّ ترانزسستور، الصغير. في الحقيقة هو صديق تعرّفتُ عليه في أيّام بارات شارع (أبو نؤاس) قبل أن تُغلقه الحكومة بدعوى الحملة الإيمانية التي قرّرها الرئيس. عرفتُهُ عن طريق أخي الكبير الذي ترك كُلّيّته لدراسة اللغة العبرية، وراح يبيع الفاكهة في السوق. سكرنا ذات مرّة أنا وأخي وعليّ على ضفّة نهر دجلة، قال ترانزستور إنه معجب بمخيّلتي وآرائي حول الحياة. عليّ لم يدرس الإلكترونيات في معهد أو مدرسة. ورث عن عائلته هذه المهنة. ويقال إن جدّهم (رضا شاشة) كان أوّل مَن أدخل جهاز التلفزيون إلى البلاد في محلّة الحيدرخانة. الدكّان مازال في المحلة نفسها غير أن ترانزستور وعائلته كانوا كسالى أكثر من اللزوم، ولم يتمكّنوا من تطوير مهنتهم، وظلّوا يتوارثون الدكّان الصغير على أنه تحفة صغيرة، تدرّ عليهم ما يمكنه أن يسدّ احتياجات اليوم الضرورية. ويملك

أحفاد منافس جدّهم الكلاسيكي (حمودي تلفزة) الآن، شركة لا بأس بها لبيع أجهزة التلفاز والكمبيوتر، ثمّ وسّعوا تجارتهم، كي تشمل شتّى أنواع الأجهزة الكهربائية والمنزلية. وتقول التقارير العلمية إن فرصة النجاة من لسعة (ميلا نورا) ضعيفة، وحتّى بعد علاج الحالة لا تكون نسبة الشفاء مَرَضية، وتترك اللسعة آثاراً واضحة على عقل الملسوع. عليّ ترانزستور كان بارعاً ومبدعاً بالغريزة في مجال الإلكترونيات. كنتُ أتردّد كثيراً على دكّانه كصديق. وكان يُقرضني بعض النقود بين فترة وأخرى. في أحد الأيّام كان صديقي صابر الأزيدي الطّيّب برفقتي حين قمتُ بزيارة خاطفة إلى دكّان عليّ الذي وصل به الحال إلى الهذيان، بسبب البعوضة ذات الذيل الأسود. يبدو أنها طنّت بشدّة في دماغه. استمرّ ترانزستور بالكلام دون انقطاع وهو يشرح لنا دور المقاومات في جهاز الراديو في تخفيف شدّة التّيّار. كان يربط وظيفة كل قطعة إلكترونية صغيرة بوظيفة جهاز في جسم الإنسان، ويضحك مثل ممسوس حين يقوم بشرح ما تحتويه بعض الأجهزة في جسم البشر من إلكترونيات. يقول إن زبّ الرجل لا يحتوي إلا على مكثّف لتخزين الطاقة، وعلى كاشف للذبذبات. أما الكسّ، فهو أعقد جهاز إلكتروني على سطح الكوكب. إنْ كان بإمكانكَ فَهْم المرأة، فأنتَ محظوظ، يمكنكَ حينها فقط من فهْم الخارطة الإلكترونية لنفسكَ! ثمّ يلحم مكثّفاً في جهاز راديو صغير موضوع على الطاولة أمامه. أراد أن يجد مفكّاً صغيراً للبراغي. ثارت أعصابه لعدم تذكّر المكان المخصّص له. التقطه صديقي صابر من تحت الطاولة. وبكل أدب قال: تفضّل، أستاذ. رمق ترانزستور صابر بنظرة فاحصة، وكأنه يحدّد قيمة مكثّف ما. ويبدو أنه لم ينتبه إلى حضور صابر إلا آنذاك. قال: منين هذا البرغي؟!

بعد كلامي عن ذكاء صابر وطيبته، اقترح ترانزستور أن يعمل صديقي معه. عدتُ للدكّان بعد فترة من الزمن حتّى ادّاين شوية فلوس. لم يعد

علي مهتماً بالتواصل مع الزبائن. لقد أكلت (ميلا نوارا) من دماغه. فهمتُ أنه شيئاً فشيئاً أخذ يعتمد على صديقي اليزيدي الذي كان مثله موهبة قد تفجّرت. لقد تعلّم كل قِيَم المقاومات اللونية وسعة المكثّفات، وحدّد كواشف الذبذبة، وصنّفها في علب خاصّة. صمّم بنفسه رفوفاً خشبية كمكتبة للإلكترونيات، وأعدّ نشرة إلكترونية علّقها في واجهة المحل كدعاية للدكّان. نشرة أضواء تنطفئ وتشعّ على شكل قلب حبّ. حتّى إن صابراً تمادى في الأخير، وقرّر أن يُغيِّر اسم الدكّان من: عليّ شاشة إلى شاشة طاووس (صابر إيزيدي، وطاووس ملك هو شعار الطائفة الأيزيدية). وجود صابر منح عليّ ترانزستور فرصة للاختلاء بعوالمه، والغرق في مخيّلته الإلكترونية. ترك لصابر أمور الدكّان، وتفرّغ هو لعزلته. أما صابر الطّيّب حتّى إنه تقدّم خطوات في عمله كمساعد. صابر ساعد أيضاً زوجة عليّ التي كانت تعتني بطفلة صغيرة في سنّ الثالثة . كانت زوجة ترانزتسور تأتي أوّل الأمر في نهاية كل شهر لاستلام النقود. فكان صابر ينكحها مرَّتَيْن في كل زيارة. بعد ذلك، أصبحت تتردّد عليه كل يوم، وقد جرّب أكثر من مرّة إدخال درنفيسه في صامولة طيزها. وأُعجبت زوجة عليّ بذلك كثيراً. بل تفجّرت هي الأخرى مواهبها كما موهبة صابر. تورّد خدّاها، وأيقنتْ أنها عادت عشر سنوات إلى الوراء، بفضل درنفيس صابر.

قلْ إن الخير هبط من السماء دفعة واحدة بسبب الـ (ميلا نوارا) العزيزة. لقد أصبح صابر في غضون عام ونصف أشهر مصلح تلفزيون في العاصمة، بسبب موهبته التي تحدّت الصعاب كلها. وبدأ أصحاب الدكاكين والمحلات الأخرى يرسلون إليه تلفزيونات الزبائن التي يصعب تصليحها، أو تكون معطوبة تماماً. وكان صابر يعيد صنعها من جديد. بل أكّد له زبون، أن صور شاشة تلفازه قد أصبحت مثل الكريستال بعد أن

كانت صوره مثل زجاج نوافذ سيّارات الجيب العسكرية الملطّخة بالطين في الجبهة. وحدّثه الزبون عن أصابعه المبتورة في معركة نهر جاسم أيّام حربنا الأولى. وتردّد عليه الزبون طويلاً، وزوّجه ابنته. وبدا كل شيء كأنه أحداث لأحد كتّاب سيناريوهات المسلسلات المصرية، حيث الواقع المرّ والمؤلم يتحوّل في الحلقة الأخيرة إلى واقع مثالي، ويفرح المشاهدون بعد معاناة الحلقات الـ ٢٩. أكرّر أن صابراً، وهي كلمة حقّ تُقال، ظلّ وفياً وسعيداً وموهوباً. وفياً لزوجته الجديدة بعد أن أستأجر أكبر بيت في المحلّة. ثمّ عاد واشتراه بعد زمن. ولم ينس أبداً ترطيب صامولة زوجة عليّ ترانزسستور بين الحين والآخر.

لكن الأموال التي أخذت تتضاعف لاحقاً لم تكن تأتي من عمل صابر في الدكّان فحسب، بل من ابتكارات ترانزستور الجديدة، الذي لم يكن مكترثاً للمردود المالي الذي بدأت تدرّه موهبته. كان منغمساً في تصميم منحوتات الأصوات الإلكترونية.

اطّلعتُ على منحوتة ديك يؤذّن بصوت ببغباء.

انقطعتُ أنا عن زيارة دكّان شاشة طاووس أكثر من سَنَتَيْن، بسبب عملي الذي حصلتُ عليه في شركة النفط في الجنوب. عدتُ بعدها في زيارة صديقي صابر للاطمئنان على أحواله. عرض علي أن أشاركهم البزنس. طلب منّي أن أدير دكّاناً خاصّاً للفنون الإلكترونية. وحكى لي صابر عن موهبة عليّ ترانزستور التي تفجّرت بسبب ضياع دماغه. يقول صابر:

بعد أسبوع من عملي في مساعدة ترانزستور في دكّانه، قدّم لي عرضاً. قال لي: سأجعلكَ، يا صابر، مدير هذا الدكّان، وسأعلّمكَ كل شيء، على

شرط أن تساعدني في عملي. أكّدتُ له أنني موجود في الدكّان من أجل خدمته ومساعدته. ردّ بأنه يفهمني، لكنه بحاجة إلى أن يقوم بعمله من دون أن يزعجَهُ أحد (لا أريد أن أصلح شاشات الآخرين، كل ما أريده هو أن أنشغل بهذه الحشرات التي بين يدي من مقاومات ومكثّفات وترانسرتورات). ارتبكتُ أوّل الأمر، ولم أفهم ما الذي يعنيه بالتحديد، وقلتُ له: أوكي، أسطة، أنا بخدمتكَ، أنت تفضّل، واني أخيّط!

صفن بوجهي، وقال: إنت خوش ولد، ثمّ سأل عن طائفتي الإيزيدية، وهل يمكن الدخول فيها، وترك الإسلام؟ قلتُ له: إنها ديانة مغلقة. أكّد عليّ، بأنه سيكون الأوّل والأخير في دخول ديننا! وأنه سيناضل من أجل سرّيّة الطقوس وانغلاقها إلى الأبد. أكيد أنه كان يمزح، وربّما البعوضة التي أكلت دماغه كانت السبب. المهمّ بسبب فضوله حدّثتُهُ عن بعض طقوس الإيزيدية القديمة التي تخلّى عنها بعضهم مع تقدّم المجتمع مثلاً تحريم القراءة والكتابة والسماح لعائلة واحدة بالتعلّم من سلالة الشيخ (حسن شمس الدِّين) الملقّب أيضاً بالبصري. لقد حرّموا وتجنّبوا أيّ كلمة فيها حرف من حروف كلمة (الشيطان)، ووجدوا أن أقوى تلك الحروف هو حرف (ش)، وأن كل مَن يتلفّظ بكلمة شيطان عن عمد يحلّ قتله. هتف عليّ، رائع حقّاً! هل تعرف ماذا يعني هذا؟! أننا سننتهي من أشدّ الكلمات الموبوءة التي مازالت تفتك بمجتمعاتنا المفتوقة: شرف، مشنقة، شواء، شهيد، شرطي، شلل، شرس، شرط، شبح، شعر. مع ذلك أحسّ عليّ بالحزن، فهو سيخسر أهمّ كلمة في بوصلة عمله في الإلكترونيات: شبق!

تفرّغ ترانزستور إلى تصميم دوائر إلكترونية جديدة. أوّل تصميم كان دائرة تصدر صوت طائر بلبل مغرّد. ترك البلبل على جنب، ثمّ صمّم دائرة

أخرى، تُصدر صوت مواء قطّة . ثمّ دوائر إلكترونية عدّة أخرى، تصدر كل دائرة صوت حيوان أو حشرة. فحيح الأفعى، نعيق البومة، عويل الذئب، صهيل الحصان، بطبطة البطّة، أزيز الذبابة، خترشة الجرادة، نهيق الحمار، مأمأة الخروف، نقيق الضدع، قعقعة الصقر، صرير الفأر، نهيم الفيل، ثغاء الماعز، وطنين النحلة.

فكّرتُ أيامها، لو استمرّ ترانزستور بتصميم هذه الدوائر، فإنه سيقضي قريباً على كل ما نحتاجه في الدكّان من إلكترونيات. سألتُهُ إن ماكانت لديه فكرة لبيع هذه الدوائر، أو الإفادة منها بطريقة ما؟ طلب منّي أن لا أتدخّل في عمله، وأن أتركه لحاله. ذات يوم زرانا النجّار وائل للاطمئنان على أحوال عليّ. النجّار كان صديقه من أيّام الدراسة الإعدادية. تحدّث ترانزستور لصديقه عن أصوات الحشرات والحيوانات التي تصدر عن دوائره الإلكترونية. أُعجب وائل النجّار فيها كثيراً، واقترح على ترانزستور أن يقوم بتصاميم خشبية خاصّة في ورشته لهذه الدوائر، ليتمكّنا من بيعها. وافق ترانزستور على الفكرة. في البداية كانت تصاميم النجّار تقليدية. عمل بيت خشبي صغير لطائر، ووضع داخلها دائرة صوت البلبل الإلكترونية. ثمّ صمّم حصاناً خشبياً للصهيل، وجرادة خشبية، وفيلاً ومنحوتات خشبية أخرى لبقية الأصوات. عرض النجّار المنحوتات في دكّانه. لم يشتر الناس في البداية سوى بيت الطائر المغرّد. وقد باع ذات مرّة كلباً خشبياً ينبح. جاء النجّار إلى الدكّان، وأخبر عليّ عن عدم اهتمام الزبائن بمنتجاتهم. تناقشا في الأمر، فاقترح ترانزستور أن يقوم النجّار بتصاميم تكون بعيدة عن مصدر الصوت. يعني مثلاً أن تُصمّم جمجمة بشرية، تُصدر صوت نقيق ضفدع أو تفّاحة، يخرج منها صوت فحيح أفعى. لم أكن أنا متأكّداً من إمكانية نجاح الفكرة، فهذه أعمال أقرب إلى الفنّ؛ والناس هنا في هذه الأحياء المرعوبة

والفقيرة لا يفكّرون سوى بالبقاء على قيد الحياة، ليأكلوا وينيكوا ويموتوا، وتنتهي حكاية الشوي في فرن الحرب والسلام! لكن النجّار وترانزستور قرّرا المضي في المشروع. راح وائل يصمّم المنحوتات الخشبية الصوتية. باعوا أوّل عمل. اشترى معلّم تاريخ ساعة خشبية تُصدر نعيق البومة. قال إنها تُريح تفكيره حين يتأمّلها ويصغي إليها. ثمّ اشترت عجوز تبيع السمك في رأس الزقاق سمكة، تُصدر صوت نهيق الحمار. ساعدت السمكة. الحمار على إثارة فضول المارّة في الشارع، وأخذ الناس يشترون السمك من العجوز، وقالوا عنها إنها امرأة محبوبة وطريفة، وإننا نحتاج إلى الضحك قليلاً في حياة الظلام التي نعيشها في هذا البلاد.(ربّما السخرية الكابوسية هي بصيص نور) علّق زبون وهو يداعب سمكة العجوز الخشبية بأصابعه.

ازدهرت تجارة المنحوتات الصوتية، وبثّتْ فينا جميعاً روح الابتكار. أخذتُ أنا أيضاً المساهمة في تطوير ألعاب عليّ وصديقه النجّار، ورحتُ أقدّم الاقتراحات، وأساهم في التصاميم. وكان أكثر منتوجاتي ربحاً هو عيناً بشرية، يصدر منها صوت صراخ حيوان، يُعذَّب بالنار.

بعد أن دخل البرابرة الأمريكان إلى بغداد، أُدخل عليّ ترانزستور إلى المستشفى. خشينا من أن تُسبّب صدمة الاحتلال في كساد تجارتنا، خاصّة وأن حالة عليّ الصّحّيّة لم تكن تُبشّر بخير. أخذ الموت والعنف والخراب ينتشر مثل النار في الهشيم في بغداد. لا يُميّز بين طفل أو امرأة أو شجرة أو شيخ أو كلب أو قطّة أو طير. ذات ليلة، تفرّج عليّ ترانزستور في المستشفى على الأخبار في التلفزيون، وراح يبكي بصمت على مشهد بشع ومرعب لانفجار سيّارة مفخّخة في سوق خضروات شعبي. اتّصل هاتفياً بالنجّار في ساعة متأخّرة من الليل، واقترح عليه أن يُصمّم موقع

السوق الشعبي المتفحّم بأكمله. مات عليّ ترانزستور في صباح اليوم التالي. يقولون إنه أفاق في ساعة مبكّرة من الصباح مذعوراً، دخل أسفل السرير، وتوقّف قلبه.

اجتمعتُ بالنجّار من أجل تبادل الأفكار حول رغبة عليّ الأخيرة. قرّرنا أن تكون الأشكال أكثر تجريداً، تشبه الأجساد المتفحّمة. صمّمنا طفلاً بُترت ذراعاه في الانفجار، يُصدر صوت خفقان أجنحة. قرب الطفل طماطم وبرتقالات مشوية، يصدر منها صوت أزيز الذباب. أما أمّ الطفل التي اشتعلت فيها النار في السوق وتفحّمت، كان يخرج منها صوت هدير الأمواج.

(كلّما خنقتْنا غرابة العنف وقسوته، صارت المخيّلة رئتنا الاحتياطية التي ممكن لنا أن نتنفّس من خلالها ونحن في قمقم الكوابيس)، هكذا كتب صحفي شابّ متحمّس عن أعمالنا، ولفت انتباه قاعات الفنّ. تلقّينا بعدها عرضاً في تقديم أعمالنا في معرض فنّيّ خاصّ. كان نجاحاً باهراً. تحدّثنا في التلفزيون عن الجوع والخوف والعنف وقصّة عليّ ترانزستور صاحب المشروع، وملهمنا الأوّل.

قبل أيّام شيّد وائل النجّار نصباً فنّيّاً كبيراً في ساحة الحيّ، رأس عليّ يُصدر طنين بعوضة.

ثقْ بأن الإنسان لم يتبدّل كثيراً منذ العصر الحجري القديم..

قال كلود - ليفي ستروس مرّة (بأن الإنسان لم يقمْ منذ ذلك العصر بأيّ اكتشاف انقلابيّ حقيقيّ، أعقب اكتشاف النار والعجلة) كل ما في الأمر استبدل بالهراوة الصاروخ والقنبلة العنقودية..

***

عزيزي حسن. أظنّكَ ما زلتَ مبكّراً على النهوض وقهوة الصباح! أما أنا، فكعادتي أنهض مع صياح الديكة، أو كما يقول صديقي الراحل نزار عبّاس بأني طير الصباح. من المحتمل جدّاً أن يحصل فيّ تحوّل، لكنْ، غير كافكوي! وأنتقل إلى عالم الطيور... البارحة واليوم عدتُ إلى سيوران. قراءاتي لا تخلو من الفوضى التي يدفعني إليها عزيزنا بنفسه! فأنتَ تستطيع قراءته حين تغمض عينَيْكَ، وتفتح لا على التعيين، أي على الطريقة الدادائية! كتاباً له...

***

منذ أيّام أنا أزيل الصدأ عن معرفتي بالبوذية، هذا العالم الآخر تماماً، فلولا الصوفية التي كانت من المناورات الناجحة لتجنّب محدوديات الإسلام، لبقينا محاصرين داخل أسواره

الروحيـة والفلسـفية. وكمـا الحـال في كل يـوم تقريبـاً أنـا بقـرب بـاخ خاصّـة، وألـوّن قليـلاً، وأنظر عـبر النافـذة إلى هجمـة الخريف، وفي هـذه المـرّة هـي سريعـة وعنيفـة. يـزداد يقينـي مـن أن قطـار التغيـير في حياتـي قـد فاتنـي، ومـن زمـان، ومـا علـيّ إلا قبـول هذا الواقـع، خاصّـة أنـه رئيـف بحـالي أكثـر مـن غـيره..

***

آكل الجراد

أفتح النافذة، فتدخل نحلة. أمضيتُ النهار كله في قراءة فنّانة الجسد لدون ديليلو، والاستماع إلى الموسيقى ومراجعة المقابلات. أختار أفضل أغاني إيمنيم(*) في اليوتيوب، وأرقص بمتعة وغضب مع النحلة (لا تلسعيني، ولا ألسعكَ، فقط اخرجي من المكان الذي دخلتِ منه.) أنجح في طردها، وأُغلق النافذة.

تسكر في بار القارب، وهو بار مزدحم بالمهاجرين. يتّصل بكَ المدلّك في الساونا، وتحدّد معه موعد المقابلة. تفرح كثيراً بموافقته على مشاركتكَ قصّة الحمّام.

قبل موت القذّافي، كانت هناك الكثير من الأغاني الساخرة من خطبته الأخيرة الحماسية وهو يكرّر كلماته: بيت بيت .. زنكة .. زنكة.. ثورة .. إلى الأمام! كان شعاري الشتوي أنا: بار بار .. إلى الرقص. ليلة ليلة. إلى الأمام.. قصّة قصّة..

امرأة فنلندية أربعينية تفوح منها رائحة الكحول كانت ترقص من حولي، وتبتسم لي. مرّات كنتُ ألتفتُ لها مبتسماً وأنا أتخيّلها مَشوية في شوّاية دجاج مطعم كباب الأخوة، عند صاحب المطعم أبو كمال، فيلسوف شوي الدجاج الذي قال لي، الوجع ممكن يخلّيك تعرف

(*) Eminem

نفسك! طموح جدّاً فيلسوف شوي الدجاج. يريد الوجع يخلّيك تفهم! الأخ رومانسي شوي!

دخل إلى البار عادل المغربي وهو سكران صاير طينة. حيّا سكان البار، وعانقني، وراح يبالغ في السؤال عن أحوالي بصوته العالي، وكأنه يخطب في حشد. كان يريد أن يسمع البار كله عناقنا الأخوي العربي والحارّ. همس في أذني أن لديه حشيشاً جيّداً، وراح إلى البار يطلب بيرة. في الأسبوع الماضي، اقترح المغربي أن نشكّل رابطة الدفاع عن المهاجرين. قال ممكن لنا أن نتسلّح أوّلاً بالسكاكين، ونرعب كل عنصري يحاول إزعاجنا. وحدّثني عن الفنلنديين الذي شكّلوا جماعات عنصرية، تدور في الشوارع، وأسموا أنفسهم بجنود أودين. أخبرتُهُ أن ينسى الأمر، وأنه من الأفضل أن نشكّل رابطة الحشاشين مع أصدقائنا الفنلنديين من سكان البار، ونسمّي جماعتنا جنود الدخان. لم يقتنع عادل بكلامي، وقال: المسلمون اليوم هم يهود أوربا الجدد، وإن الأوربيين لا يمكنهم أن يشعروا بتفوّقهم من دون اضطهاد الآخرين. وأضاف أنه علينا الاستعداد للدفاع عن أنفسنا. اتّفقتُ معه في بعض الأمور، لكنني ذكّرتُهُ بأن هناك الكثير من الفنلنديين والأوربيين الرائعين، ودودين ومحترمين وصادقين، ومن الخطأ التعميم. لكن هذا لا يعني أن الكراهية لا تُشوِّه العالم، والعنصرية هي مشكلة أخطبوطية مثيرة للقلق.

حدّثتَ المغربي عن فحوى الإيميل الذي أرسلتْهُ لكَ عالية ذات مرّة عن شياطين الغرب: عزيزي حسن، قبل سنين قرأتُ كتاب إدواردو غاليانو الأكثر شهرة (عروق أميركا اللاتينية المفتوحة). ما يعجبني فيه أيضاً مَقته للأميركانزم. أتذكر مقالاً له عن الشياطين التي تقضّ مضاجع الغرب عموماً. وقد عدّدها بدءاً بالشيطان المسلم (وهذا تقليد يرجع إلى دانتي حين ألقى محمّداً

في الجحيم ...) والآخر هو اليهودي، ثمّ المرأة، وبعدها المِثْلِيّ، ويعقبه مَن تبقّى من الهنود الحمر، وفي الأخير، جاء الشيطان الأسود: الزنجي. بهذه الصورة كتب، وإذا لم تخنّي الذاكرة..

كان يوماً خرائياً بامتياز، شربتُ فيه الكحول حدّ القرف، وخسرتُ كثيراً في مكانة القمار. جلتُ في بصري في البار باحثاً عن كسّ. كسّ يمكن الدخول فيه، والاختفاء إلى الأبد. وليته يكون كسّاً برائحة جذور نبتة، وأن لا يكون كسمكة متعفّنة، والرائع إن كان يمكن سماع نغمة الأوركازم من هذا الكسّ المفترَض. خرجتُ من البار. بحثتُ في جيوبي عن الهتفون، وأنا أدخّن الحشيش مع عادل المغربي في زاوية معتمة في ركن الشارع. وضعتُ الهتفون في أذني، ودّعتُ عادل، ورحتُ أستمع إلى أغنيّة عراقية تراثية عن الحبّ (يا صيّاد السمك، صدْ لي بنيه. قلبي بشبك صادوه غصباً عليه. قلبي بشبك صادوه خلّوني اسهر. انشد الرايح جاي عن ولفي مامر. لا هو أشقر حيل، ولا هو أسمر خمري، عيونه وساع، نظراته تسحر. همسة غزل، يا ناس، وَجْنَاته تحمر. لا آني أرد أنساه، ولا هو يقدر). في الطريق وأنا برفقة أغنيّة الصّيّاد والحبّ، التقيتُ بصديقي يان، وكان هو برفقة باولا مدرّسة اليوغا. كانت سكرانة جدّاً. أشعر بالراحة حين أكون مع يان. رغم أنني لا أطيق الرجال، ولا أثق بغير النساء. نادراً ما كان لي صديق رجل، ماعدا بالومار الذي لا فائدة تُرجى منه، وصديقي فليامي، مهندس الصوت. في البلاد كان لي بضعة أصدقاء مقرّبين، مات أغلبهم شاباً أو طفلاً أو مراهقاً في سنوات الحروب والحصار والديكتاتورية. يان من بورما. الابتسامة لا تفارق وجهه. دعاني إلى شقّته لاحتساء الويسكي، وهمس في أذني (علينا أوّلاً أن نتخلّص من باولا، هي سكرانة ومُتعَبَة، لديها مشاكل مع زوجها، وهما على وشك الانفصال)، باولا لم تتركنا. التصقتْ بنا من دون أن تمنحنا فرصة للفرار منها.

جلسنا نحن الثلاثة في الشرفة، شربنا الويسكي، ودخّنّا الماريوانا. سألني يان عن أيام عملي مع الصليب الأحمر في مخيّم اللاجئين مع الغجر البلغار. قلتُ له إنني أفهم الغجر البلغار أكثر من زملائي الفنلنديين الذين كانوا يديرون المخيم. حاجات الغجر واضحة، المزيد من الخبز والحاجات اليومية، وسرقة ورق التواليت أو الملاعق من مطعم المخيّم. أما ما يريده الفنلندي بالتحديد، فهذا موضوع بحاجة إلى خبير في النفس البشرية، لكي يعثر على الجواب. بعض زملائي من الفنلنديين الذين يعملون في المخيّم معي كانوا عبارة عن آلات بشرية، مهمّتها تطبيق القانون. لا مشاعر ولا تعاطف. فالأحاسيس من شؤونهم الشخصية، وليست من شؤون العمل. رغم أن عملنا كان مع بشر تائهين في أوربا. ((هناك الكثير من الدمى المضحكة في هذا العالم معلّقة بخيوط النظام، وتؤدّي دورها التهريجي في مسرحية الحياة بشكل صارم وجدي.)) هم على حق! النظام الصارم هو الحلّ لعَبَث الإنسان، قال يان. عموما المخيم أغلق منذ مدة طويلة، وصرت من جديد عاطلاً عن العمل، أكتب وأسكر وأحلم وأفكر في الأبقار. أعتقد أن الفنلنديين وبقية الأوربيين غير مستعدّين بعد لمساعدة غجر أوربا الشرقية. يان قال: في الحقيقة، أنا لا أفهم حقيقة مشكلة الغجر في أوربا! علّقت باولا وهي تجرع الويسكي، وتُلوّح بيَدَيْها كأنها تطرد شبحاً (نعم، الناس البيض هم عنصريون وخراء...) كان يان يملك ابتسامة آسيوية خالدة مثل تماثيل بوذا. على الرغم من أن يان يكره البوذيين في بلده، ويصفهم بالدّجّالين. لم تكن ابتسامته تختفي حتّى وهو يتحدّث بألم عن هجر صديقته الفنلندية له. كانت الابتسامة تنكمش فحسب، مثل ورقة مبلّلة. بقينا نتحدّث في العموميات عن الهجرة والحروب وأوربا. العنصرية في كل مكان. العالم الفقير هو ضحية الرأسمالية. يعيش الغجر في أوربا

منذ مئات السنين، ومازالوا غرباء. الكراهية مرض بحاجة إلى دواء. نحن نبحث في الفضاء وقيعان المحيطات، ولا نريد أن نبحث ونعثر على دواء للكراهية بين عقولنا. العنف في جينات الإنسان. الأديان يجب أن تختفي، ويجب أن يسيطر على العالم ديكتاتورية الآلة. وكانت باولا بين الحين والآخر تطلق شعاراً، وتشاركنا مظاهرتنا اليائسة في الشرفة من لا عدالة العالم وقسوته (من فضلكم .. انتظروا.. آسفة جداً.. نحن الفنلنديون عنصريون... ونحن نكره بعضنا البعض أيضاً)، هكذا تكلّمتْ باولا، على وزن هكذا تكلّم زردشت! ذهب يان للحمّام، ولم يرجع. تقيّأتْ باولا في الشرفة، وكرّرتْ كلمة (آسفة) عشر مرّات قبل أن تذهب هي الأخرى إلى الحمّام. كانت الساعة الرابعة والنصف صباحاً. راقبتُ من الشرفة رجلاً يتمشّى مع كلبه، ويتوقّف أسفل عمود النور، ليُشعل سجارة. بدا وكأنه في مشهد سينمائي. تخيّلتُهُ يسقط فجأة على الأرض. يقنصه مراهق ضجر من إحدى نوافذ البنايات السكنية الكئيبة. ينبح الكلب، ويشمّ جثّة صاحبه. في الصباح التالي، يأخذ المراهق الباخرة من هلسنكي إلى استوكهولم. يستأجر غرفة في فندق. ثمّ يذهب لمراقبة صديقته التي هجرتْهُ، وجاءت تدرس الأزياء في استوكهولم. يجلس في زاوية المقهى متنكّراً، ويراقبها وهي برفقة صديقها السويدي الجديد. لا يفكّر الشابّ بقنص صديقته، بل بقنص عشوائي كل يوم، وسيكتفي بمراقبة حياة صديقته، إلى أن يقع في مصيدة الشرطة، ويقتل نفسه. تكبر صور القنّاص في ذهني بفعل سجارة الماريوانا. غالباً ما تخطر في ذهني مشاهد سينمائية قصيرة عن الانتقام. ربّما لأنني كنتُ أجبن من أن أنتقم من كل ما تعرّضتُ له من ظلم وخداع وعنف في حياتي. أعبّ من فوهة زجاجة الويسكي، وأبصق خارج الشرفة. تعود باولا وهي بالكاد تقف على قَدَمَيْها (يان نام على الكنبة، هل سننام

هنا، أم نأخذ تاكسياً؟) قلتُ لها إنني مفلس، لنبقى هنا. أوكي، قالت. لم نرغب في إيقاظ يان، جلبتُ له بطّانية، وغطّيتُهُ. ذهبنا أنا وباولا للنوم في سرير يان. نزعتْ باولا ملابسها، واندسّتْ في السرير وهي لا ترتدي سوى لباسها الداخلي وستيانها. تعرّيتُ أنا أيضاً. ما إن شاركتُها البطانية حتّى استدارتْ لي، وراحتْ تتوسّل لي بطريقة مضحكة ((أرجوكَ، حسن، من دون جنس، أرجوكَ، لا أريد.. تعرف لديّ مشاكل مع زوجي.. وأنا أحبّه، أرجوكَ)، أعرف باولا وزوجها منذ أكثر من عام، فهما من زبائن سكّان البار. قلتُ بصوت مَن أتعبه التدخين والسُّكْر((اهدئي، باولا، استرخي، كل شي على ما يرام.. أنا لم أطلبْ منكَ أن نمارس الجنس.. تصبحين على خير)، وقبّلتُها من رأسها (آه ، شكراً، حسن، أنتَ تعجبني كثيراً..) وقبّلتْني من شَفَتَيّ قبلة ناعمة، ثمّ قبلة خفيفة أخرى، ثمّ واصلتْ تقبيلي عدّة مرّات، وراحتْ تدسّ لسانها في فمي، وتُمرِّره على أسناني، وتمصّ لساني إلى أن تركتْني أنتصب. ثمّ نامتْ، وشخرتْ. بعد دقيقة، أطلقتْ باولا ضرطة قوية. أغمضتُ عيني مبتسماً، وأنا أستعيد صورة عادل المغربي وهو يختلق شجاراً هيستيرياً بسبب البيت. قال البار مان له: ((اذهبْ إلى البيت، عادل.. أنتَ سكران ومُتعَب جدّاً، اذهبْ إلى البيت!)) جنّ جنون عادل وهو يسمع كلمة البيت. قال صارخاً وكأنه يؤدّي مشهداً في فيلم ((كيف لي أن أعثر الآن على تاكسي في هلسنكي، تقلّني إلى المغرب؟ هل أنتم مجانين؟ .. نعم، أنتم مجانين.. أوكي، أحضرْ لي تاكسياً الآن تقلّني إلى البيت في المغرب.. بيتي في المغرب، أيّها المجانين.. أحضرْ لي الآن تاكسياً تقلّني من هلسنكي إلى مراكش)).

دفّأ جسد باولا أسفل البطّانية، سخن زبّي من جديد . شعرتُ بالضيق. حاولتُ التفكير في أمور أخرى لتنويمه، بس ما فاد! طبعتُ يدي على

فخذ باولا الدافئ وخصّيتُهُ. لا أريد أن ألطّخ شرشف يان بالمني. قذفتُ على طيز باولا، بللتُ لباسها الداخلي.

في اليوم التالي، وحيداً في شقّتكَ تلعب في الإكس بوكس كرة القدم ضدّ الكمبيوتر. أنتَ بايرن ميونخ والكمبيوتر برشلونة. تسجّل هدفاً رائعاً عن طريق ريبري. تحاول إعاقة مسّي، لكنه يعبر ويسدّد. تشعر بالملل. تخرج للشرفة لتدخّن ومعكَ اللابتوب. تراقب سنجاباً على جذع الشجرة، ثمّ تتفحّص ملفّاتكَ. تعيد قراءة مقتطفات من قصّة آكل الجراد التي كنتَ قد أرسلتَها إلى عالية عبر صديقك حبيب. يمكن إعادة صياغة كتابة آكل الجراد من جديد، يقترح عليكَ السّيّد بالومار. تردّ أنتَ: نعم .. نعم .. طز! تراجع مقابلة مسجّلة في الآيفون. تعود إلى المطبخ، تعمل شاياً بطعم الليمون، وتُحوِّل المقابلة المسجّلة إلى مقابلة مكتوبة. تتمنّى لو كنتَ حشرة تُولَد وتموت في الدقيقة نفسها!

قال لي صاحب مطعم شوي الدجاج أبو كمال، إن الشرطي الذي كسر سنّي في ليلية تاكسي الله الخرائية، هو أخو الشرطي الملقّب بآكل الجراد. كانوا ستّة أخوة، كلهم يعملون في الشرطة ماعدا أختهم التي كانت تدرس التمريض. الأخ الأصغر لُقّب بآكل الجراد منذ سنوات المراهقة. كان ولداً شرّيراً، يخافه الأولاد الأصغر سنا، والأكبر منه. كان أبوه رجل أمن معروفاً. آكل الجراد لم يكن يشارك الأولاد أيّا من ألعابهم. عندما يلعب الأولاد الكرة، كان آكل الجراد يجلس على طرف ساحة اللعب وفي يده زجاجة معجون طماطة فارغة مملؤة بالجراد. يراقب المباراة وهو يلتهم الجراد، وكأنه يكرز حبّات عباد الشمس. يخلع أرجل الجراد، ويبلعها من دون أن يكون لملامحه أيّ تعبير. لم يكن أكل الجراد شائعاً في مدينتنا. آكل الجراد كانت لدية طاقة سِحْرِية عجيبة. كل مَن يُحدِّق في عينَيْه يصيبه

الشلل. لهذا كان بإمكانه التحكّم وضرب الأولاد والكبار بسهولة تامّة. فما إن تنظر في عينَيْه حتّى يداهمكَ إحساس غريب بالخجل والإحراج . كان بعض الأولاد يتجنّب النظر في عينَيْه، لكن هذا كان يمنحه سيطرة تامّة. فقد كان بإمكانه أن يباغتكَ بلكمة أو رفسة قوية وأنت تخفض رأسكَ للأرض. وكانت هوايته المفضّلة صفع ولَكْم الأولاد. حين بلغ آكل الجراد عامه الخامس عشر، ضاق به ذرعاً بعض المراهقين في الحيّ، فخطفوه. حجزوه في بيت مهجور لثلاثة أيّام. نزعوا ملابسه، وربطوه إلى كرسيّ حديد صدئ من دون مقعد. قالوا له صنعنا لكَ مقعد مرحاض غربياً فاخراً. لم يُطعموه طوال أيّام سوى الباقلاء، لتنتفخ بطنه، ويُخرج الغازات. ثمّ أرعبوه بعد أن أشعلوا شمعة أسفل مؤخّرته. قالوا له، فسوة غازية واحدة، وستشتعل النار في طيزكَ، ابن القحبة! يقولون إنه من فرط مقاومته للامتناع عن إخراج الغازات أُغمي عليه. تركه الشبّان خشية أن يموت. عثر عليه في اليوم التالي أطفال كان يلعبون في الخرابة. ربمّا الرعب الشديد أفقد آكل الجراد سِحْره الخبيث. لا أحد يدري! لم يعد بإمكانه التحكّم في الآخرين من خلال التحديق في عيونهم. وحين بلغ الثامنة عشرة، توسّط له أبوه، ليُقبَل في سلك الشرطة. صار آكل الجراد شرطياً حقيراً وقاسياً. واصل أكل الجراد وهو يستلذّ بتعذيب الموقوفين في مركز الشرطة. قال أبو كمال، بأنني محظوظ، فسنّ مكسور، لا يقارَن بما كان سيحدث لي إن وقعتُ في يد آكل الجراد نفسه، احمد الله، أنه كان أخوه!

مثلما نجوتَ، نجا السّيّد بالومار، هذا ما فكّرتَ فيه وأنتَ توقّع أوراق إقامتكَ كلاجئ قبل ١٠ سنوات. أنتَ اليوم مواطن فنلندي، تتحدّث إنكليزية مكسّرة، لا تعجبكَ! وفنلندية مكسّرة، لا تعجب الفنلنديين. وتتحدّث عربية مكسّرة، لا تُعجب دور النشر

العربيــة. بالومــار لــم ينــجُ بالكامــل، مثلــكَ تقريبــاً ! مــزّقَ الجندي البلغــاري وجهــه. أمــا أنــتَ، فقــد تمزّقــتْ روحــكَ وجســدكَ في تلــك الرحلــة المؤلمــة. لقــد مشــيتَ مــن بغــداد إلى هلســنكي، في طريــق الهجــرة السّرّيــة. وقضيــتَ أســوا وأغــرب ٤ ســنوات مــن حياتــكَ في الطريــق إلى الجنّــة الفنلندية.

هل نجوتُ حقّاً؟!

خلال عام ونصف في اسطنبول، ومن أجل الحصول على نقود لدفعها للمهرّبين: غسلتُ أقداح الشاي في مقهى شعبي مزدحم حتّى منتصف الليل. عملتُ في بار يقدّم الويسكي الفاخر للألمان (رجال الأعمال). عملتُ في قارب صيد، وكان أجري شوالاً من السمك، كنتُ أتقاسمه مع الأصدقاء في بيوت الهجرة السّرّية، بيوت القمل والمرارة. عملتُ في فرن. عملتُ في معمل لصنع البالونات، معمل ضخم يُصدّر بضاعته إلى مختلف دول العالم. معمل كان يستخدمنا كعبيد، ويستغلّ ذعرنا وخوفنا من الشرطة . معمل يكبر كرشه من شفط المزيد من العبيد المهاجرين. عملتُ في تفريغ شاحنات البضاعة الصينية من ملابس وقنادر وقلادات تافهة مزوّرة. عملتُ مساعد حلاق (مثْليّيْن). قرأتُ القرآن لعجوز تركية مقابل كيس من الصمّون، وساعدتُ جارتها في دكّانها لمدّة أسبوع مقابل البيرة والسجائر ومداعبة كسّها. سكنتُ في إسطنبول. ونمتُ في الحدائق العامّة، وفي غرف مهاجرين غير قانونية، قذرة ومزدحمة كزريبة خنازير. سكنتُ في بيت ٣ عاهرات من رومانيا. وكنّ كالملائكة في معاملتهنّ لي. يقدّمنَ لي الطعام والجنس والمحبّة والكحول، وكنّا نذرف مرّات الدموع معاً على خيبات حياتنا وغربتنا. كان يتردّد على العاهرات، كل ليلة، ضابط شرطة تركيّ. كل مرّة كان ينيك واحدة! وكان يقول لي وهو مسطول من

السُّكْر ((تصبح على خير، أخي)). هذا الشرطيّ كان بإمكانه بكل سهولة أن يزجّني في السجن بتهمة الإقامة غير الشرعية في بلده. لكنه لم يكن يرغب في أن يخرّب نشوة الكسّ والكحول بالانشغال بمهاجر. وحين غادرتُ أنا البيت، ورجعتُ للطريق، بكت (فالي) الرومانية على رحيلي، وطلبتْ منّي صورة فوتغرافية من الصور العديدة التي كنتُ أحملها معي، كذكرى للأيّام. أعطيتُها صورتي وأنا أجلس مع أعزّ اصدقائي في حديقة الكُلّيّة في بغداد. وليتني أعطيتُها كل الصور بدل أن يدمّرها الجندي البلغاري القذر!

بعد محاولَتَيْن فاشلَتَيْن لعبور الحدود التركية البلغارية، نجحتُ في الثالثة، ووصلتُ إلى صوفيا. المحاولة الثانية كانت الأقسى. مشينا في الشتاء البارد، وهو الفصل المفضّل لعبور الحدود رغم رعب التجمّد والموت من شدّة البرد. حرّاس الحدود يكونون أكثر كسلاً في الشتاء. كنّا ١٢ شخصاً تقريباً. عراقيون ونيجيريون وشابّ كوردي إيراني. كانت معنا فتاة نيجيرية سمينة، لم يكن بإمكانها المشي بسهولة. مهرّبنا العراقي اقترح أن نحملها على ظهورنا تباعاً. كنّا نتعاون على حمل الفتاة في ليلة باردة وماطرة عبر الغابات والحقول الزراعية التي تحوّلتْ بفعل الأمطار إلى برك وطين. ضلّ مهرّبنا طريقه، فصار الظلام أشبه بالمتاهة. لم يكن مهرّباً محترفاً. المهرّب حاتم، بدوي من مدينة السماوة. كان راعي غنم منذ صغره. وكانت ثقته بنفسه آتية من حبّه للمغامرة ورعيه للأغنام في الصحراء. لم يفصح لي حاتم البدوي عن سبب مغادرته العراق. كان البدوي يدمن على لعبة الشطرنج. ذات مرّة كنتُ جالساً في إحدى المقاهي التي يتجمّع فيها المهاجرون وسط اسطنبول. وكان حاتم هناك. تحدّاني في لعبة الشطرنج. لم تكن لي رغبة في اللعب. أخبرني أنه سيقوم بتهريب مجموعة جديدة، وأني لو فزتُ عليه، سيوصلني إلى صوفيا من دون مقابل مادّيّ. لم أصدِّقْ

ما قاله، ولم تكن لي ثقة كاملة بقدرته على عبور الحدود، فهو مُجرّد مهرّب جديد، نجح في عبور الحدود عن طريق الصدفة. كنتُ أنا قد خسرتُ كل فلوسي في محاولة العبور الأولى. أصرّ حاتم على اللعب معه، وقدّم لي سيجارة، وطلب لي شاياً. لم آكل شيئاً منذ ٢٠ ساعة. سألتُهُ إن ما كان بإمكانه أن يشتري لي الخبز مع الشاي. وافق البدوي في الحال. كانت قصّة حاتم تشبه قصص بعض المهاجرين المفلسين. لم يكن للبدوي مال ليدفعه إلى المهرّبين للعبور إلى بالغاريا. لهذا قرّر المغامرة بنفسه مع خمسة عراقيين لعبور الحدود من دون مهرّب. قاد البدوي المجموعة. وما إن وصل بأمان إلى صوفيا، حتّى حدثتْ ضجّة بين أواسط المهاجرين حول نجاحه وشجاعته. لم يُكمل حاتم طريقه إلى غرب أوربا، بل عاد إلى اسطنبول، وقام بتهريب مجموعة أخرى، ولم يأخذ من المجموعة الثانية سوى مبلغ زهيد مقارنة مع المبالغ التي يطلبها المهرّبون الأتراك والبلغار. صار الطلب من قِبَل المهاجرين على حاتم البدوي كبيراً. تجمّعت النقود لديه، وتعرّف في النايت كلوب في صوفيا على بنت بلغارية، لم يكن عمرها تجاوز الـ١٨ سنة. صار حاتم وصديقته البلغارية بمثابة الأسطورة. راحا يهرّبان معاً البشر عبر الحدود، ويعربدون في ديسكوهات إسطنبول وصوفيا.

فزتُ على حاتم في الشطرنج، وكسبتُ رحلة التهريب المجانية. تهنا مع مهرّبنا البدوي في الغابة، وطلع الصباح. أمسكنا الجيش البلغاري عند الأسلاك الشائكة. أشبعونا ضرباً. ثمّ حملونا إلى مقرّهم العسكري في الحدود. وضعونا في غرفة باردة وصغيرة. في الليل، أخذوا الفتاة النيجيرية إلى غرفة مجاورة، واغتصبوها. سمعنا صراخها وبكاءها وهي تتوسّل بهم، ولم يكن لدينا سوى دموعنا، لنقدّمها لها. لقد حملنا الفتاة على ظهورنا طوال ليلة باردة وموحشة من أجل أن يغتصبها جيش العالم

المعاصر. بعد ذلك، اجتمع الجنود بنا، وفتّشوا أغراضنا. كنتُ أحمل في حقيبتي صوراً شخصية عديدة من أيّام دراستي في الكُلّيّة. أخذ الجندي الذي يحقّق معي بتمزيق الصور أمامي واحدة تلو الأخرى. وقال بإنكليزية ركيكة، إنني أكذب! فهمتُ بصعوبة قصده في النهاية. لم يكن يُصدِّق أنني من العراق حين شاهد بعض الطالبات زميلاتي في الصور وهنّ يلبسن الجينز والقمصان الصيفية. حرّك يَدَيْه إلى وجهه كَمَنْ ينظر في منظار، وقال: أفغانستان! كان يقصد أن النساء في العراق يلبسنَ البرقع، فهمتُ ذلك بصعوبة (حركة المنظار كانت تعني العيون من خلال البرقع) يعتقد الجندي أنه لا توجد امرأة في العراق ترتدي بنطال جينز كما هنّ زميلاتي في الصور. ثمّ أخرج كتاب السّيّد بالومار من حقيبتي. حاولتُ أن أشرح له أنه مُجرّد كتاب لمؤلّف إيطالي، اسمه إيتالو كالفينو. مزّق غلاف الكتاب، ورماه أسفل قَدَمي، وشتم القرآن والعرب. حملتُ بالومار، ووضعتُهُ في جيب معطفي. حقّق الجنود معنا جميعاً، ثمّ أخذونا قبل بزوغ الفجر بسيّارة جيب عسكرية قريباً من الحدود التركية. طلبوا من أن نتمدّد ووجوهنا إلى الأرض. ثمّ أخذوا يركلونا ويرفسونا، إلى أن أخذوا يلهثون بشدّة بعد أن تعبوا من ضربنا. حاول شابّ عراقي اسمه أحمد الكربلائي أن ينهض ويهرب، لكنهم أمسكوه. وقف جندي فوقنا بسلاحه، وأخذوا أحمد على حدة. أخرج أحد الجنود مسّاحة صغيرة من سيّارة الجيب العسكرية. وراحوا يضربونه بالمسّاحة بقسوة، إلى أن فقد أحمد وعيه. شعر الجنود بالإرباك، وخافوا أن يموت. طلبوا منّا أن نحمله بسرعة، ونتّجه عائدين إلى الحدود التركية. حملنا أحمد، وكل واحد منّا ينزف من مكان. فرّوا هم بسيّارتهم. وبعد أن قطعنا مسافة معيّنة، مدّدنا أحمد على الأرض، وجلبنا بعض الماء الذي يتجمّع في برك صغيرة، وأخذنا نُبلّل وجهه، ونُدلّك جسده. فشلتْ محاولة

عبور الحدود. عدنا وضمّدنا جروحنا في اسطنبول. وكان أحمد الكربلائي يضحك بشدّة من طريقة توسّلي بالجندي، ليعيد لي صوري الشخصية. أقسم أحمد أنه سيعاود عبور الحدود مرّة أخرى، وأنه سيصل إلى السويد، ولو وضعوا في الحدود تماسيح ودببة. أخبرني أحمد أنه حين فَقَدَ وعيه، رأى نفسه يعدو هارباً بعيداً عنّا باتّجاه الحدود التركية، وأنه كان يرى الجنود وهم يضربوننا، وكان يرى نفسه أيضاً بيننا، وشاهد الجندي وهو يضربه بالمسّاحة، لكنه لم يكن يسمع صوت صراخه.

وصلتُ إلى صوفيا في المحاولة الثالثة، وبمساعدة حاتم أيضاً. كان كريماً معي، ولم يأخذ منّي النقود، واكتفى بالقول إنه يفعل ذلك لوجه الله، وقال، حسن، أنت خوش ولد، وتستاهل!

بعد شهور، ألقت الشرطة التركية القبض على صديقة البدوي البلغارية في مداهمة لشقته في اسطنبول. وانتشرت قصّة البدوي والبنت في كل الصحف التركية والبلغارية. اختفى حاتم بعدها. ولم يسمع عنه أحد أبداً!

تفتح الثلاجة، وتعدّ ساندويج جبن وطماطم. تشعر بوحدة شديدة. تبحث عن بالومار بين كومة الكُتُب والمجلات وديفيديات الأفلام التي تتجمّع كبنايات آيلة للسقوط فوق طاولة خشبية في المطبخ. تعثر عليه، وتقلّب صفحاته التي تحفظها عن ظهر غيب.

لم يُفارقني بالومار منذ أن نسيه الرجل السمين على الرصيف. كنتُ أحمله معي أينما ذهبتُ. كان معي في الكُلّيّة وفي البيت وفي المطعم وفي السجون، وفي أثناء عبور الحدود، وفي الحدائق، وفي المرحاض، وفي مخيّمات اللجوء، وفي السرير، وحتّى في أحلامي الليلية. السّيّد بالومار كان ومازال ظلّي ورفيقي الذي لا يمكن الخلاص منه بسهولة.

تضع بالومار على الطاولة، وتصبّ كأس يالو.

مازال الوقت مبكّراً للشرب. أفكّر في شكل القالب الذي سأصهر فيه الشخصيات التي قابلتُها، ومازلتُ أقابلها. أسأل بالومار: (ما رأيكَ لو تركنا الشخصيات تتحدّث من دون تدخّلنا؟) كالعادة، لا يردّ.

طوال السنوات التي رافقني فيها بالومار، كان في داخلي حبّ طفولي جارف تجاهه. كم تمنّيتُ لو أن بالومار ينطق ويتكلّم، ويصير صديقي الحقيقي، يحدّثني ويفكّر معي ويواسيني! كم تمنّيتُ أن يكون بالومار مثل الحيوانات أو الأشباح أو الأشجار التي تتكلّم في بعض الروايات والأفلام. كم تمنّيتُ أن يخرج فجأة من بين سطور الكتاب مثل عفريت مصابح علاء الدين. لكنْ، رغم كل هلوسة رعب حياتي الغرائبية، لم ينطق بالومار، ولا بكلمة واحدة. أصرّ على أن يبقى مُجرّد شخصية متخيّلة في كتاب. مرّات كنتُ أقول لنفسي: وحده الجنون ربّما يخلّي بالومار ينطق! لكني لم أُجنّ حتّى الآن، وهذه هي المعجزة الحقيقية.

ليتكَ تقول: ((ما رأيكَ، سيّد بالومار، بفكرة صديق طفولتي حبيب: القتل عن طريق القصص؟)).

((لابأس، القتل عن طريق القصص أمر مثير حقّاً، لم أفكّر فيه من قبل!))، فيردّ بالومار.

تفتح زجاجة يالو جديدة، وتصبّ كأسَيْن: واحدة لكَ، وأخرى له.

أعبّ الكأس، طبعاً لا يشرب بالومار! أشرب كأسه. أفتح النافذة من جديد، وأتمنّى أن لا تدخل نحلة أخرى. أُصغي إلى زقزقة العصافير في الشجرة.

.."قـد يكـون مـن الأجـدر أن يكتفـي المـرء بالصفـير، يفكّـر السـيد بالومـار. وعندئـذ تتكشّـف لـه احتمـالات أفـكار واعـدة، هو الـذي طالمـا رأى في التنافـر بـين السـلوك البـشري وبين بقيـة الكون مصـدراً للقلـق. وها هـو الآن يـرى في الصُّفـار المتماثل أو للشـحرور جـسراً مشـيداً فـوق هاويـة.

لـو كان الإنسـان يُضمِّـن كلّ ما يـوكل به الـكلام عـادة، ولو كان الشـحرور يُضمّـن في صُفـاره كل مـا في قـدره ككائـن مكتـوم، لكان ممكنـاً أن تُنجَـز أوّل خطـوة في مسـيرة ردم الهـوّة التـي تفصـل...، بـين مـاذا ومـاذا؟ الطبيعـة والثقافـة؟ الصمـت والـكلام؟ لا يـزال السّـيّد بالومـار يأمـل بـأن يتضمّـن الصمـت شـيئاً مـا أكـبر ممّـا يسـتطيع الـكلام أن يقولـه. ولكـنْ، مـاذا لـو كان الكلام هـو، فعلاً، القصـد الـذي يسـعى إليـه كل موجـود؟ أو إذا كان كل موجـود ليس سـوى كلام منـذ بدايـة الزمـن؟ وهنا يعـود بالومار، ليصبح فريسـة القلق مـن جديـد."..(*)

---

*) من السيد بالومار لإيتالو كالفينو.

عزيـزي حســن. جمعـتُ الحـوارات مـع سـيوران في ملـفّ واحد. آمـل أن فيـه الحـوارات كلهــا. لا أعــرف إذا كان مفيـداً بهـذه الصيغة فيمــا يخـصّ النـشر الورقي.

الحالــة الصّحّيّــة تُرغمني عــلى أخذ اســتراحة في شــؤون كثيرة. لــو كنــتُ مؤمنــاً، لصلّيــتُ، وابتهلــتُ إلى الســماء، كي يتقهقــر الزمــن، لكــنْ، ليس كثــيراً، بل كي يتيــح العــودة إلى الكتابــة اللعينة بصــورة منتظمة.

محبّتي واعتزازي

***

مــا كتبتُــهُ عــن مدارســكم في الســبعينيات والثمانينيــات والتســعينيات يدفعنــي إلى الاعتقــاد بأننــا نحــن ديناصــورات الأربعينيــات والخمســينيات والســتينيات كنّــا أســعد حظّــاً، ففــي زمننــا، لــم يظهــر أيُّ كاليغــولا مهــووس بجَمْــع لعب الحــرب، ومن ثــمّ، اللهــو بهــا بعــد أن يقــوم بتحويلهــا إلى أســلحة قتــل ودمــار. كلامــكَ عــن الأدب العراقــي هــو تشــخيص معــروف لــدى الــكل عدا محترفيــه وهواتــه المغرمــين بالســقوط الدائــم في هذه الحفــرة وتلك. والأمــر يبــدو كأن هنــاك بكتيريــا أفســدت الــدم والدمــاغ وطبقــات الأنــا. غالبــاً أقــف عند أســباب هــذا كله، وأظــلّ أفكّــر وكُلّي دهشــة: كيــف لم توقــظ كل هذه الصدمــات والرّجّــات، الحضاريــة منها وغير

الحضاريـة، هـؤلاء الكتّاب السـائرين في نـوم، لا يقظة فيـه! والإثارة المفجعـة تحصل حـين يدخلـون في ربـع يقظـة، وتتلبّسـهم الأوهام، فهـم فقـدوا تماماً القـدرة عـلى التمييز بين السـبات واليقظـة، وكل مَـن هـو يقـظ، يعدّونه مـن دعـاة النـوم! والأمر يُذكّـر إلى حـدّ كبير ببطـل (بلـد العميـان) لويلـز، وأنـتَ تعـرف قصـدي هنـا... أظنّـكَ محقّـاً حـين تقـول بأنهـم بانتظـار ظهـور أدب كبـير بعـد صدّام. ويـا لـه مـن انتظـار عقيـم وأبـدي، بـل غـودوي !. الأدب الكبـير لا يحتاج إلى عكّازات سياسـية أو غيرها. في روسـيا المقهورة والبائسـة، ظهـر ذلـك الأدب العظيـم. وجماعتنا تنتظر أن يشـتعل موقـد أدبهم بعـد انطـلاق بضـع شرارات جاهلـين أن حطبهـم لا يصلح لمثـل هذا الموقـد. فهـو رطـب ومنخـور! ولمـاذا؟ لأنـه طـال أمـد خزنـه في تلك الأقبيــة المظلمة...

***

برج الفأر

افتُتـح منتـدى المسرح رسـمياً عـام ١٩٨٣ في بيت بغـدادي تراثي، يتوسّـط شـارع الرشـيد، ويطـلّ عـلى نهـر دجلـة. البيـت التراثـي كان مقـرّاً للبعثـة البريطانيـة في أوائـل العشرينيـات. وسـكنتْ فيـه مـس غيرترود بيـل التـي كان لهـا دور كبير في رسـم خارطـة العراق الجديـد، وتنصيـب أوّل ملـك عليـه. ماتـت مسـيز بيـل عـام ١٩٢٦، ودُفنـت في مقـبرة الإنكليـز في بغـداد. البيـت التراثـي الـذي يحتضـن منتـدى المـسرح صُمّـم بطـراز معمـاري بغـدادي. تتـوزّع غرفـه العـشرون عـلى الطابقَـيْن، وتتوسّـطه باحـة، وتـبرز منـه الأقـواس والشناشـيل الداخليـة والشـبابيك التـي تتخلّـل الجـدران. تُسـتخدَم باحـة البيـت كمنصّـة، حيـث يُقـدّم المسرحيـون عروضهـم، وبقية مسـاحة الباحة كصالة تسـتوعب ما يقـارب ٦٠ متفرّجـاً، خُصصت لهـم مقاعـد خشـبية شرقيـة، تُذكّـر بمقاهـي بغـداد في ثلاثينيـات القـرن المـاضي. ومـن الشـخصيات الشـهيرة التـي زارت البيـت البغـدادي، وأقامـت فيـه، الروائية أغاثا كريسـتي، ومكثـتْ فيه فترة قصـيرة في ثلاثينيـات القـرن المـاضي لعـدم ملاءمتـه، كونهـا كانـت مصابـة بالربـو والمـكان رطب. أغلـب أجيـال المسرح العراقـي دخلت بيـت منتدى المـسرح. كانـت أغلـب العـروض في البداية تجريبيـة، ثمّ تنوّعـتْ لاحقـاً، وقُدّمـتْ فيهـا مسرحيـات بـروح وتصـوّرات أجيال عـدّة. أُقيمـت في المنتـدى مهرجانات وحلقـات نقاش وأمـاسي، كانت بمثابـة رئـة تنفّس لشـبّان المـسرح المحاصريـن برقابـة الديكتاتور

الحديدية. ومع القيود وحبال الرقابة كلها، كان منتدى المسرح بمثابة ورشة مفتوحة لمخيّلة الفنّان العراقي.

بعد أن خلصتُ دراسة المتوسّطة، قرّرتُ دخول معهد الفنون الجميلة. دراسة المسرح كانت حلمي! لم يكن من السهل اجتياز اختبار القبول في المعهد. ليس بسبب صعوبة الاختبار أو قلّة الموهبة. الفساد هو الجدار الذي كان أمامي. كان أغلب الطلاب المتقدّمين إلى معهد الفنون عندهم وساطات حزبية أو عائلية وحتّى عشائرية. يدفعون عبر وساطاتهم رشاوي، ويدرسون الفنون. لم يكن في عائلتنا شخص لديه مكانة أو سلطة لا في الحزب ولا في العشيرة. كان دخول المعهد تحدّياً كبيراً بالنسبة لي. وضعتُ ثقتي بجارنا باسم جوني. كان شابّاً نشطاً، يدرس السينما في كُلّيّة الفنون، وكانت لديه علاقات جيّدة في الوسط الفنّيّ. ساعدني جوني في اختيار مشهد مسرحي، وقام بتدريبي على المشهد، من أجل اجتياز اختبار القبول. اخترنا مشهداً من هملت. كنتُ خائفاً ومسحوراً من درايته بالفنّ والأدب. قال جوني: (لا تخاف.. التمثيل هو في راسك، لا يوجد شيء اسمه تمثيل! الآن اعتبر نفسك روبوت مبرمج. تتفوّه بكلمات مبرمجك. ليس مهماً أن يكون المبرمج إلهاً أو زعيم مافيا، أو مهندساً عبقرياً)، ثمّ طلب منّي أن أتحرّك مثل روبوت، وأن لا أقول سوى (أكون أو لا أكون) في اللغة الإنكليزية. ثمّ طلب منّي أن أستبدل بحرف البي حرف الـ پي. تحرّك الروبوت هاملت وهو يكرّر القول من دون توقّف: أبول أو لا أبول!

أعجب المشهدُ لجنةَ القبول، وضحكوا! وكانت نتيجة الاختبار النظري أكثر من جيّدة. أخيراً تحقّق حلمي، وقُبلتُ في معهد الفنون. قال لي جوني ضاحكاً فيما بعد بأنه كان تحت تأثير حبوب مخدّرة حين خلاني أصير

الروبوت هاملت. أحبّني الأساتذة، وأشادوا بموهبتي، وتكهّن بعضهم بأنني سأكون مسرحياً جيّداً. رحل جارنا باسم جوني من البلاد. طوال دراستي في معهد الفنون كنتُ أسمع أخباراً متفرّقة عنه. كانت أخباره تصل كمشاهد سينمائية مقتطّعة من فلم. عبر جوني الحدود مشياً على الأقدام من العراق عبر تركيا حتّى اليونان. عمل مساعداً لمهرّب تركي في تهريب المهاجرين من اليونان إلى إيطاليا. ترك عمل التهريب، وعاش جوني في مخيّم اللجوء في هنغاريا سَنَتَيْن في عزلة تامّة. كان يكتب طوال الوقت، ويبتسم لنفسه كالمجنون. سافر فجأة بجواز اللجوء إلى جيبوتي. عمل مع الجيبوتيين في استخراج الملح من البحر. تزوّج فتاة جيبوتية شابّة، واشترى سيّارة قديمة، وراح يجوب أفريقيا لحضور حفلات موسيقية شعبية، وتصويرها بكاميرا الآي فون.

في العام الثاني، تعثّرتْ دراستي للمسرح بسبب الفقر. لم يكن بإمكاني التركيز على أفكاري المسرحية. كان عليّ أن أجد عملاً لمواصلة الدراسة ومساعدة عائلتي. أبي كان ضابط جيش، أنجب ١٢ ولداً وبنتاً. وحين أُحيل إلى التقاعد، صار متديّناً عاطلاً عن العمل، وترك مسؤولية الأفواه الجائعة لأمّي. وجدتُ عن طريق صديق عملاً في محلّ حلاقة. كنس شعر الزبائن، وتنظيف المحلّ. اكتشفتُ موهبتي في الحلاقة عن طريق الصدفة. كان الحلاق الذي أعمل معه قد تأخّر ذات صباح. كان هناك ثلاث زبائن في انتظاره. زبون مستعجل طلب منّي تخفيف شعره. دفع الرجل أجرة حلاقة شعره، وخرج مستعجلاً، ولم يعلّق على طريقة حلاقتي. تشجّع زبون آخر، وجلس على الكرسي. استخدمتُ أوّلاً ماكنة الحلاقة، ثمّ بضعة لمسات من خلال المقصّ. نظر الزبون إلى شعره في المرآة، وقال، أنت حلاق موهوب! منذ ذلك اليوم قرّر صاحب المحل أن أساعده في حلاقة رؤوس الزبائن.

واصلتُ حلاقة الرؤوس، وكتابة النصوص. كانت أفكاري مشتّتة. تصوّرات غامضة عن ظلام العالم والإنسان. لم يكن يخطر في بالي الظلام الشخصي الذي سيحتلّني ويُغيّر حياتي إلى الأبد. نصحني أستاذ مادّة التمثيل بمتابعة مهرجان مسرحي شبابي يقام في منتدى المسرح. صار لي صداقات جميلة ومثمرة مع الكثير من المسرحيين الشّبّان. تابعتُ أغلب العروض في مختلف المسارح الطلابية والاحترافية، حتّى أخذتُ أعمل مع أغلب الفِرَق المسرحية الشابّة. كانوا يقدّمون مسرحيات تجريبية مقتبسة من نصوص عالمية. شكسبير، بريشت، وبيكيت، ينوسكو، سارتر، بنتر، وآخرون. عملتُ مساعداً في السينوغرافيا والإخراج والتمثيل. كنتُ متحمّساً جدّاً، لكنْ، مع مرور الوقت، أخذتُ أسأم من العروض المسرحية. بدت لي كلها متشابهة ومكرّرة. مرّة هاملت في المطعم، وأخرى في قبر. مرّة ماكبث في صفّ دراسي، وأخرى ماكبث في حمّام رجالي. تساءلتُ عن سبب غياب نصّ محليّ، ولمَ أغلب المسرحيات مكبثية وهاملتية وغودوية! لم أكن مهتمّاً حينها بالسياسة، أغلب أصدقائي المهتمّين في المسرح كانوا يتّفقون معي عن سطحية الأعمال وغياب نصّ محليّ معبّر. حتّى ماكبث مثلاً لم يكن يُقدَّم بجرأة. كانوا يقتطعون أجزاء كثيرة من الحوارات، ويُغلّفونها برمزية مُبالَغ فيها حتّى يتشوّه النصّ الأصلي. فهمتُ أن أغلب المسرحيات تجريبية ومشفّرة، وتلجأ للنصوص العالمية، من أجل الهروب من الرقابة الصارمة. كتبتُ حينها نصّاً مسرحياً قصيراً، يتحدّث عن شخصية شرطي مرور يقف طوال النهار في صيف بغداد الحار وسط فلكة. ذات يوم، يفقد الشرطي القدرة على التمييز بين الاتّجاهات. فيُحرِّك ذراعَيْه، فتعمّ الفوضى في حركة المرور. يُسجَن شرطي المرور، ويحكي عن الاتّجاهات والنظام في زنزانته مع المساجين الآخرين، ويشكّل حركة سياسية سرّيّة، اسمها عكس

الاتّجاه. كان النصّ مكتوباً بأسلوب الكوميديا السوداء. أعجبَت الفكرةُ أحدَ المخرجين الشبّان، لكنه قال بصراحة إن حوارات شرطي المرور مع الآخرين في السجن قد تُدخلنا نحن السجنَ الحقيقي إلى الأبد!

بعد ساعة، ستُعرض مسرحيّتكَ الأولى، تأليفكَ وإخراجكَ. حسب ما جاء في الإعلان الترويجي للمسرحية، ستكون عن رجل أعمى يحاول أن يقتل فأراً في المطبخ!

قبل أن يهشّم رصاص الأمريكان نافذة غرفتي، كنتُ أبحث في النت عن الفئران، وأجمع بعض الملاحظات من دون هدف معيّن. لم أكن أفكّر حينها في كتابة مسرحية عن الفأر. كل ما في الأمر هو أنني شاهدتُ فلماً وثائقياً عن حياة القوارض، فرحتُ أبحث عن الفأر في شبكة النت. كنتُ أشعر بالملل بسبب حظر التجوال. كان الأمريكان يخوضون حرب شوارع دامية مع المقاومة الإسلامية، وكان الخروج للشارع بمثابة انتحار. آذان الفئران تشبه تماماً آذان البشر. مجموعة من العلماء تمكّنتّ من اكتشاف الجين المسؤول عن السمع. ربمّا سيتمكّنون من معالجة الطرش الخَلْقي عند الإنسان. كلّف المشروعُ العلماءَ ١٢ عاما من البحث للتأكّد من جين السمع عند الفأر على أمل معالجة الفأر البشري. يُدعى هذا الجين (٢س)، وهو المسؤول عن تطوير خلايا الشعر والخلايا الاضافية في الأذن الداخلية التي تُتيح لنا السمع. وحسب ما صرّح به العلماء، أن أيّ إصابة يتعرّض الجين لها تُفقد الفأرَ السمعَ والتوازنَ. واضح أنها تجارب مفيدة للبشر أيضاً. هدية أخرى تقدّمها الفئران للإنسان، كي يواصل مسيرته على هذا الكوكب - المختبر. هذا عن جين السمع. لكنْ، ماذا عن الجينات الأخرى؟ لآخذ على سبيل المثال جين الشكّ. هل ترتاب القوارض بما تقرضه ؟ قد يعثرون على جين مشابه لجين الشكّ في الجهاز التناسلي للدّبّ.

الفئران كانت أولى ضحايا التقدّم الذي يقال إنه من أجل الإنسان. فمعجون الأسنان وحبوب الصداع وجميع مستحضرات التجميل تُجرَّب أوّلاً موادّها الكيماوية على الفئران خاصّة. واليوم يخطّطون، بمساعدة الكومبيوتر، لخَلْق فئران خاصّة بالتجارب المختبرية. مستشار مالي. محامٍ. مرابٍ. مخبر. تاجر أثريات. سمسار. مؤلّف أغانٍ. طبيب. هذه الوظائف تندرج جميعاً، وتناسب كل مَنْ هو من برج الفأر. حسب ما يقوله البرج. وبرج الفأر هو من الأبراج الصينية المعروفة . مجموعها ١٢ برجاً. بأسماء حيوانات: الفأر والثور والثعبان والخنزير والنمر والأرنب والتنّين والقرد والديك والكلب والعنزة والحصان. ومواليد برج الفأر يحبّون الكلام عن أنفسهم وأساليبهم في الحياة، وهم لطفاء جدّاً، لكنهم ذوو عزيمة قوية لتحقيق طموحاتهم الكبيرة. كما يصعب عليهم الانسجام مع مواليد الأبراج الأخرى. هم يحبّون النقاش. ومشكلتهم الكبرى هي أنانيتهم.

اندلع فجأة القتال في الشارع الذي تطلّ عليه غرفتي. رجال المقاومة الإسلامية كان يعرفون الشوارع والبيوت والأزقة بشكل جيّد. على الرغم من تفوّق الأمريكان في السلاح والعتاد، كانت المقاومة تُوقع خسائر في صفوفهم. ردُّ الأمريكان في العادة يكون عنيفاً، وبكل أشكال الأسلحة، ويفتحون النار بطريقة عشوائية. أطلق الأمريكان الرصاص على نافذة غرفتي، التي لم تكن تحتوي سوى على الكُتُب وطاولة للكتابة وفراش ممدود على الأرض، وعمل نحتي، يحاكي معزة بيكاسو. تشظّى الزجاج، فتمزّقتْ عيوني، وحلّ الظلام.

يستأذن الفنّان المسرحيّ في الانصراف. أُعانِقُهُ، وأتمنّى له حظاً موفقاً في عرض مسرحيته. يبدو أنه لم يعتد بعد على حياة العمى. كانت أخته الصغيرة ترافقه. تشبك ذراعها بذراعه بمحبة وحنان، وتقود خطواته. أشتري

استكان شاي آخر من كافتيريا المسرح. أدوّن بعض الملاحظات، أتبادل أطراف الحديث مع الشبّان الجدد من محبّي منتدى المسرح إلى أن ألتحق بالجمهور الذي يأخذ بالدخول لباحة البيت البغدادي.

الظلام يخنق أنفاس الجمهور في حَرّ الباحة. لا نسمع سوى صوت الممثّل الذي يتحدّث عن ذكرياته أيّام طفولته وصراع أمّه في قتل الفئران التي تملأ منزلهم. ملّتْ أمّه من قتل الفئران بطريقة بشعة. يقول الممثّل (الأعمى) بعد أن يُشعل شمعة، ويخفّ ظلام الباحة، إن خالته البغدادية، التي عدّت نفسها أكثر تمدّناً من أمّه القروية، كانت قد اقترحت لأمّه طريقة هادئة لتسميم الفئران، بدل قتلها بوحشية بالماء المغلي. كانت وصفة الخالة لتسميم الفئران: عملَ شاياً بالنعناع، ثمّ تصفيته، ووضعه للفئران. يُشعل الأعمى شمعة أخرى، ويتحسّس لهبها. يتحدّث عن الظلام ما قبل العمى وما بعده، ثمّ يُخرج من حزامه مسدّساً. ويقول: لستُ عبقرياً، لكنني بارع في فنّ الانتظار الذي لا يجيده سوى قلّة من البشر. قلّة وُلدت محرومة، لم تنبتْ لها أذرع كافية للتشبّث بالواقع. قلّة مختلّة، عارية، تلعب في وسط الشارع لعبة حوادث المصادفة. ثمّ يدخل غرفة المطبخ فأر (روبوت على ظهره مصباح صغير باللون الأحمر) . يقول الفأر بصوت آلي: ((لقد قيل كل شيء ببساطة وإيجاز منذ أقدم العصور. نحن نسمع من الكُتُب: لا جديد تحت الشمس. في الأمثال الشعبية نقرأ: الزمن غدّار. في حكاية جدّي عن حيّ الظلمة: الحبّ هو الله.))، يُطلق الأعمى النار من مسدّسه تجاه مصدر صوت الفار، فيُخطئه. يتكرّر ذلك في العرض، كلّما تكلّم الفأر أطلق الأعمى رصاصة، وكلّما أخطأه يواصل الأعمى هذيانه عن النور والظلام حتّى موعد الإطلاقة التالية. لا يوجد الكثير من العوامل الخارجية التي تُزعج ظلام الأعمى. مرّات يسمع الأعمى صوت مروحية أمريكية تجوب السماء.

ومرّات أخرى يسمع جاره ينيك زوجته مرّة تلو الأخرى. يعجز الأعمى عن قتل الفأر، ويقرّر تأجيل الأمر لليوم التالي بعد أن يشعر بالنعاس. يشغل الأعمى اللابتوب. يفتح نافذَتَيْن: واحدة مخصّصة لـ سورة الكهف بصوت عبد الباسط عبد الصمد، وأخرى لطمية نسوان عراقيات على ميت. يصغي إلى سورة الكهف واللطم في الوقت نفسه. ينام الأعمى في كهفه، ويحلم، فتختفي كلمات الله ولطمية الإنسان، ولا يبقى سوى الظلام. لحظات، ثمّ يبدأ ضوء الشمس الدخول من النافذة والصمت يعمّ المكان.

يصفّق الجمهور.

ينحني الممثّل للجمهور وهو يحمل الفأر في يده.

يدخل المخرجُ المؤلّفُ الذي مزّقتْ عيناه رصاصات الأمريكان. يضع يده على قلبه، وينحني للجمهور الذي يُشعل القاعة بالتصفيق!

شابّ من الجمهور يصيح بصوت حماسي غريب، وكأنه يحاول عبثا أن ينفخ في بوق: (تسقط أمريكا، بغداد لن تنطفئ!) فيضحك نصف الجمهور تقريباً.

أضع الهتفون في أذني، أغادر البيت البغدادي، وأدخل إلى موسيقى غرفة معيشة أوليفر أورنالدو(*). أتمشىّ وحيداً حتّى النهر، وأغرق أنا والغرفة فيه.

---

*) Ólafur Arnalds

Telegram: @Arab_Books

شلون أخبارك؟ ما زلتُ أترجم نصّ سيوران. هو طويل بعض الشيء. عموماً الخريف ونذير الشتاء يحصراني عادة في الركن. أعترف أيضاً بأني أصبحتُ لا أميل إلى الترجمة، فهاجس الوقت في تضخّم دائم! ولعلّي لي هنا بعض العذر، بل أكثر، فالرغبة التي تقرض فيّ هي التفرّغ للكتابة خاصّة أني تحت التهديد الدائم لغول الوقت الذي يذكّرني بالآخر: غول السّنّ ...

***

أقرأ الآن ميشيما. أظنّه كان أفضل اليابانيين فيما يخصّ معايشة آداب العالم. أعماله كلها منتزَعة من السيرة الذاتية. يكتب عن طفولته ومراهقته وفتوّته بصراحة مُصدِمَة، قد لا نجدها عند الكثيرين. ربّما برغمان كان قد تجاوزه هنا. الهاراكيري حال دون نيله نوبل (عاش ٤٥ سنة فقط). بالطبع ليست كل أعماله بيوغرافية صرف إلا أن روايته الكبيرة (اعتراف قناع) من عام ١٩٤٩ هي سيرة صريحة. سجّلتُ هذا القول من الرواية: (يقول الكل إن الحياة هي مثل المسرح، لكن القلائل من الناس امتلكوا مثلي، ومنذ زمن الطفولة، الوعي بمسرحية الحياة). هو كاتب مُصدِم، لكنه يجذبكَ بمغناطيس سِحْرِي إلى هاجسه الدائم، هاجس الموت. وكما يقول النقّاد، فهذا الهاجس هو المفتاح لفَهْم أعماله. في الحقيقة كانت حياته

إطالة لحقبة طفولته - ممّا جاء برهاناً آخر على صدقية كلمة بودلير الشهيرة: الرجل هو طفولته - لكن ميشيما هو قبل كل شيء جمال متفرّد وإيروسية وعجز تامّ عن تحقيق الرغبة في أن يكون شخصاً آخر... وهذا كله يختفي وراء قناع البطل الرئيس، أي ميشيما نفسه. في الواقع، انتصر هو على هاجسه ذاك بعدها بعشرين سنة، لكنْ، ليس في عالم الفنتازيا، بل في الحياة الحقيقية التي دحرها الموت ...

محبّتي

***

بعد الدم رقصتُ مع سلمى حايك

سافرتُ إلى إيسلندا خلال أيّام مهرجان الأدب في ريكافيكا. بعد حواري مع خديجة، اتّفقنا أن نتابع معاً برنامج المهرجان. حضرنا أمسيّة لكاتب فرنسي مختصّ بالروايات البوليسية. كانت ردوده الساخرة تُضحك ثلاثة أرباع الجمهور تقريباً. محاور الكاتب امرأة رشيقة في الثلاثين من عمرها، ترتدي تنّورة قصيرة، وتكشف عن ساقَيْن رهيبتَيْن. إدراكها لأهمّيّة ساقَيْها فوق المنصّة كان يزيد من إرباكها، فكانت تُغيّر وضعية جلوسها كل ١٣ ثانية. لو كنتُ جالساً في المقدّمة، لتمكّنتُ من معرفة لون لباسها الداخلي. تلكزني خديجة بكوعها في خاصرتي، فأظنّ أنها تنبّهتْ لرغبتي في معرفة لون الشرنقة. لا أفهم ما تقوله إيماءة خديجة برأسها وهي تشير إلى الجالسين إلى يميني، فتهمس في أذني (بيروك!). ماذا؟ لم تكن تفصل بيني وبين بيورك(*) سوى عجوزَيْن متشابهَتَيْنْ وكأنهما توأم. كلاهما بشعر أبيض وأنف منقاري، وتبدوان نائمَتَيْن في فيلم كارتوني. شعرتُ بالإثارة والحماس بوجود بيورك بهذا القرب منّي. في الاستراحة، بانتظار الأمسيّة التالية للكاتب الإيسلندي(شون) شربنا البيرة في المطعم، وكانت بيورك تجلس في الزاوية برفقة امرأة أخرى. بدت بيورك العظيمة كئيبة وحزينة. إنها جوهرة فنّيّة نادرة، لا تتكرّر. طالما شعرتُ بالعجز من الكتابة والفنّ، حين يكون هناك مبدعون مثل بيورك. فإمّا أن تمتلك الطاقة،

(*) Björk

والكاريزمــا، وسِــحْر وقــوّة الخلــق، أو أن تتوقّــف عن العبــث بحياتكَ كفنّــان يتخبّــط ويتعثّــر كفــرخ البــطّ. أســال خديجــة: هل ســيأتي يــوم أجلــس فيه عــلى المنصّــة ككاتــب، ويكــون جمهــوري بيــورك. تــردّ: لــمَ لا؟ مــا عليــكَ إلا أن تعثــر عــلى صوتــكَ. أقــول: من الســهل قــول ذلــك، عزيزتــي ســلمى حايــك.

في شرفة منزلها، تقرأ لي سلمى حايك من كتاب، مؤلّفه لم يكتبْ غيره:

كانت خديجة خارجة للتّوّ من غرفة مدير المدرسة بوجه محتقن من شدّة الغضب. كانت تتشاجر مع المدير للمرّة الألف، بسبب إهمال حصّة الرياضة، وعدم توفير المستلزمات الضرورية للطلاب. طالبتُ منذ شهر بإنشاء ساحة للعب كرة السلّة، وتزويد الطلاب بالأحذية الرياضية، ومن قبل كانت خديجة قد خاضت في حروب طويلة مع وزارة التربية، بسبب معاملة إدارة المدرسة حصّتي الرياضة والفنّ بإهمال كبير. حتّى إن خديجة حاولت كسب معلّمة الرسم إلى صفّها في حروبها مع إدارة المدرسة، غير أن زميلتها هذه، كانت تنشغل في حصّتها بتطريز المناديل، بعد أن تُوزِّع على الطلاب أوراقاً بيضاء، وتطلب منهم أن يرسموا جنوداً ودبّابات، وكانت تردّ على خديجة في كل مرّة بالطريقة نفسها: (خديجة لتصيرين غبية، عوفينة من دوخت الرأس، انت مو تآخذين راتبك كامل .. بعدين ليش مصرتي معلّمة قراءة لو وطنية)).

كان أغلب زملاء خديجة في المدرسة يعدّونها فد وحده بطرانة! مع ذلك، كانوا يحترمونها كثيراً، ويعاملونها برقّة زائدة، بسبب جمالها وشبهها المثير مع الممثّلة سلمى حياك. كان التلاميذ، رغم صغر سنّهم، هم الآخرون، يخشون من ستّ خديجة، بسبب إدراكهم الطفولي المبكّر لسِحْر

جمالها المثير. وكان لقب خديجة في المدرسة، ستّ سلمى حايك. تمكّنت خديجة أخيراً من تحقيق أوّل انتصاراتها حين أقنعتْ إدارةَ المدرسة في جعل حصّة الرياضة أوّل حصّة في الصباح، بعد أن كانت مشمورة في نهاية حصص الجدول اليومي . كانت تشعر بأن دمها يسخن بسرعة لذيذة ومُربِكَة، حين خرجتْ في ذلك اليوم من غرفة المدير، وقد وافق على جدول الدروس الأسبوعي الجديد. ذهبتْ إلى السوق، واشترتْ كيلو بقلاوة لأمّها وعباءة جديدة. كانت أمّها هي الأخرى سعيدة من أجل سعادة ابنتها الوحيدة. منذ أن مات أبو خديجة، والمرأتان تعيشان في حالة إنذار. بسبب كلام الناس والأقارب. لا يمكن لامرأتَيْن شابَّتَيْن أن تعيشا هكذا من دون خيمة رجل. كانت الأمّ هي الأخرى فتية، وتبدو وكأنها أختٌ لخديجة. وأصرّت الأمّ على خطبة خديجة لابن عمّتها الذي ملأ البيت بأقفاص طيور الحبّ.

وصلتْ خديجة إلى المدرسة في ساعة مبكّرة من صباح اليوم التالي. انتظرت الحارس أن يفتح لها الباب الخارجي للمدرسة. خلعتْ ملابسها، وارتدتْ فانيلة رياضية، وشورتاً قصيراً، راقبها الحارس وهي تحمل مكنسة وخرطوش الماء، التفت إلى مؤخّرتها مرَّتَيْن، ثمّ مرّة ثالثة إلى ساقَيْها اللذَيْن كانا يضيئان الممرّ. استغفر ربّه ثلاث مرّات، وأخذ يُتمتم مع نفسه. كانت ساحة المدرسة مبلّطة بالإسفلت، وهذه أحد هموم خديجة أيضاً، ساحة للرياضة واللعب معبّدة بالإسفلت المحفّر. رغم ذلك، كانت خديجة تؤمن بنظرية الخطوة الأولى. فقط ليدقّ حجر الأساس في مكانه المناسب لتشيد فوقه الأحلام. شرعتْ خديجة بكنس وغسل الساحة بحيوية. كان زملاؤها وتلاميذها الذي أخذوا يتوافدون على المدرسة، يتفرّجون عليها من الشبابيك وهم مذهولون ممّا تفعله، بعضهم ذُهل من جمالها الذي

تضاعف سبع مرّات وهي بملابس الرياضة. كانت تشعّ مثل ماسة وسط الإسلفت الأسود وهي مبلّلة بالعَرَق والماء. بالطبع، لم يجلب كل التلاميذ معهم الأحذية الرياضية، لكن خديجة وعدتْهم أن المدرسة ستشتري لهم قريباً كل شيء. نزلتْ بالتلاميذ إلى الساحة، وأخذتْ تعلّمهم بعض الحركات الرياضية، وتشرح لهم أهمّ قواعد رياضة العَدْو، وأهمّ بطولات الساحة والميدان والأرقام القياسية والجوائز، وكان الطلاب مبهورين بصور الأبطال الرياضيين التي وزّعتْها عليهم في استراحة قصيرة، طلبتْ خديجة من (فرّاشة) المدرسة أن تعدّ للطلاب شراب البرتقال على حسابها الشخصي. كان هناك فتى يُدعى وسام محمّد. كان نحيلاً بعينَيْن تشعّان ذكاء وتحدّياً، وكانت خديجة قد انتبهتْ إلى قوامه ومشيته في الحصص الماضية. فاجأها الولد، حين أخبرها بصوت مرتفع، بأنه يريد أن يكون مثل العدّاء المغربي (سعيد عويطة). وضعتْ يدها على كتفه، ونظرتْ بعمق في عينَيْه، ستكون البطل هذه السنة في بطولة مدارس بغداد، قالت له ذلك بجدّيّة مبالغ فيها. أحسّ وسام بالإرباك، ثمّ كاد أن يبكي حين شمّ عَرَق جسدها وهو ينظر إلى تيشيرتها المبلّل تحت الأبطَيْن، ابتعد عنها، وركض بسرعة وإصرار حول ساحة المدرسة، وخديجة تصيح خلفه: تنفّسْ وسام، تنفّسْ من أنفك .. تنفّسْ حبيبي .....

لم يتبقّ على موعد بطولة مدارس بغداد لألعاب الساحة والميدان غير شهر واحد. لهذا كثّفت خديجة تمارين وسام عليّ. ذهبتْ إلى عائلته، وطلبتْ منهم الإذن لتأخذه معها إلى البيت لإعطائه بعض الدروس، ومرّات كانت تذهب به إلى حديقة الزوراء بعد انتهاء دوام المدرسة، ووعدتْ عائلته بأن تهتمّ بأمر دروسه الأخرى بنفسها. كانت نشيطة مثل شعلة أولمبية. تعرض لوسام أشرطة فيديو لأشهر عدّائي العالم، وتراقب

صحّته، وتُعدّ له طعاماً خاصّاً، وتُراجِع له دروس الرياضيات وقواعد اللغة العربية، لكي لا تكون عائقاً أمام تفرّغه للبطولة، حتّى إنها غيّرتْ تسريحة شعره، واختارتْ له ملابس جديدة. واشترتْ له حذاء مميّزاً، وملابس رياضية ماركة أديداس. ولمّا كانا يفرغان من التمارين في حديقة الزوراء، كان يمرّان لمشاهدة الحيوانات في الأقفاص، يضحكان من الزرافة، وتُصفّق خديجة للغزلان وهي تتقافز هنا وهناك، ويحزن وسام من أجل الدّبّ المريض المسكين. لهذا بدأت المشاكل مع خطيبها سمير. وبّختْه خديجة في أكثر من مرّة، لأن الخطيب كان يغار من الصغير. لكن عراكهما استمرّ. جمعتْ خديجة أقفاص الطيور كلها التي جلبها ابن خالتها، بعد أن حرّرت الطيور من الأقفاص، وهاتفتْه. حين وصل فاضل، كانت الأقفاص في الباب مع خاتم الخطوبة، ورسالة قصيرة، ترجوه فيها أن يبحث له عن امرأة أخرى مناسبة.

يرنّ هاتف خديجة، فتستأذن للردّ. تترك الكتاب على الطاولة، وتدخل إلى الصالة. آخذ الكتاب، وأقلّب في صفحاته. على غلاف الكتاب سيرة موجزة : ((وسام محمد، كاتب وشاعر عراقي شابّ، أصدر كتاباً واحداً بعنوان (بعد الدم رقصتُ مع سلمى حايك). تُرجم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة عالمية. عثروا على الكاتب معصوب العينَيْن، ورصاصة في رأسه، وكتبوا على جسده بطرف السّكّين ((ثأرنا)). أنتبه إلى شكل المزهرية في الشرفة، ضفدع ينيك ضفدعة. أبتسم، ثمّ أواصل القراءة في كتاب الرقص مع سلمى حايك:

عدنا في ذلك المساء في سيّارتها، كانت تصرخ داخل السّيّارة مثل طفلة، مثل مجنونة، مثل امرأة ترقص من السعادة . خطفتْني من بين قبلات وأحضان الأهل والأصدقاء، حتّى إنها نسيتْ أن تجلب أمّها من

الملعب. كان كأس البطولة في حضني، وأنا أراقبها بفرح وإرباك، كنتُ أشعر أن أنفاسي لم تنتظمْ بعد، وكأن الأولاد مازالوا يَعدُون خلفي في الملعب، أوقفت السّيّارة قرب دكّان، وطلبتْ منّي أن أنتظر قليلاً، عادت بعد ربع ساعة محمّلة بالأكياس والفواكه. وصلنا إلى البيت، أضاءت المصابيح كلها، ووضعتْ في جهاز التسجيل شريطاً صاخباً لمُغنٍّ شعبيّ، وأخذتْ ترقص وكأنها في عرس شعبيّ، جلستْ على الكنبة، أراقبها بخجل . لم أشاهد من قبل ستّ خديجة وهي تتلوّى راقصة بهذه الطريقة. سحبتْني من يدي إلى الطابق العلوي. فتحتْ لي باب الحمّام، وهبطت السّلّم من جديد. تسمّرتُ في الحمّام وأنا أراقب ملابسها الداخلية، أحكمتُ إغلاق الباب. رحتُ أشمّ كل ما في الحمّام: ملابسها، الشامبو، الصابون، مشطها الأخضر .... خلعتُ ملابسي، ووقفتُ تحت دوش الماء، وأنا أدعكُ جسمي بقوّة بالإسفنجة الناعمة، كنتُ أرتجف وأنا أتخيّلها عارية، تدعكُ جسدها بهذه الإسفنجة. طرقتْ على باب الحمّام، وناولتْني ملابس نوم جديدة. دخلتْ هي بعدي إلى الحمّام. كنتُ أسمعها تغنّي. كانت قد رتّبتْ على طاولة الغرفة كمّيّات كبيرة من الفواكه والحلويات وعصير التفّاح وزجاجة نبيذ أحمر. خرجتْ تلفّ خصرها بمنشفة كبيرة، وشعرها بمنشفة بنفسجية صغيرة، أطفأتْ بسرعة المصباح، وأشعلتْ ثلاث شموع فقط .

- حبيبي وسام، إنه يوم مميّز، سنحتفل بطريقتنا، اطلبْ ما تشاء، هل تريد أن أشتري لك درّاجة هوائية؟ لا تخجلْ، اطلبْ ما تحلم به، لقد أنجزتُ اليوم حلمي، هل تفهم؟ أنتَ الإنسان الوحيد الذي حقّق لي حلماً، ربمّا حين تكبر ستفهم ما أقصد.

كنتُ أشعر أنني بحاجة إلى الاختفاء، أن أفتح باب الغرفة، وأعدو إلى حضن أمّي، وأشرع بالبكاء، كنتُ خائفاً من حماسها وجمالها، ومن أحاسيس غامضة، لم يكن بإمكاني تفسيرها في تلك الليلة، لكنها حاصرتْني بحبّها وجنونها، جلستْ بقربي، وعانقتْني، دُهشَتْ من دقّات قلبي التي مازالت تنبض بشدّة،

- لمَ أنتَ حزين وخائف حبيبي وسام؟! .....

قبّلتْني مثل أخت، عانقتْني في السرير مثل أمّ، وحين انبتهتْ أخيراً إلى الغامض في نظرتي قبل أن يبزغَ الفجر بقليل، ابتسمتْ برقّة، قبّلتْني قبلة طويلة من شَفتَيّ، ومارست الجنس معي. لم يكن ذلك حقيقة! هذا ما بقيتُ أتخيّله طوال أيّام بعد أن عدتُ إلى بيت أهلي.

واصلتُ دراستي وتماريني مع معلّمة الرياضة ستّ سلمى حايك. في تلك الأيّام، كنّا نستعدّ لبطولة دولية مهمّة هي بطولة المدارس العربية. كان الحارس كعادته يراقبنا من نافذة غرفة المعلّمين. تخيّلتُهُ يمارس العادة السّرّيّة وهو يتأمّل جسد سلمى حايك بالملابس الرياضية. كنّا نتمرّن بعد الدوام الرسمي للمدرسة. يومها غيّرتُ ملابسي، وودّعتُ معلّمتي. في باب المدرسة، أشعلتُ سجارة. كنتُ حزيناً ومُربكاً، لم أكنْ أقوى على مصارحة سلمى حايك بحقيقة وضعي. تدخين السجائر، رغبتي في التوقّف عن الجري، وحبّي لها. ستكون أكثر من صدمة. لا أدري كيف سأشرح لها. بعد فوزي ببطولة بغداد، استهوتْني قراءة الكُتُب وفكرة الكتابة. في يوم من الأيّام، كنتُ ذاهباً إلى بيت خالتي صبيحة. كان بيت خالتي هو البيت الذي أشعر فيه بالفرح والأمان. كانت خالتي صبيحة تملك طاقة عجيبة من الحبّ والحنان. كانت تثق بي، وتحبّني، وتشكو لي مرارة الحياة والفقر

بهدوء وحكمة. وكان أولاد وبنات خالتي هم أصدقائي المقرّبين. تحسين ابن خالتي كان في عمري. كان شابّاً متوهّجاً وذكياً، يعشق قراءة الكُتُب. في ذاك اليوم كنتُ أساعد تحسين في تثبيت الرفوف أسفل السّلّم الإسمنتي المتآكل من أجل كُتُبه. خالتي طلبتْ منه أن يجد حلاً لكُتُبه المتناثرة في أرجاء البيت. كان البيت عبارة عن غرفَتَيْن ومطبخ وحمّام صغيرَيْن. وكان أولاد وبنات خالتي ثمانية، ويعيش معهم زوج ابنتهم الكبيرة وأطفالهما. حصلنا على ألواح خشبية من مزبلة الحيّ في الساحة. لم يكن لدينا ثمن المسامير. اتّفقنا مع نشّال الحيّ حمّودي، يسرق لنا من الدكّان كومة مسامير مقابل أن نعطيه مجلّة سكسيّة تركية. حصلنا على المسامير، وثبّتْنا أربعة رفوف لكُتُب تحسين أسفل السّلّم. أهداني تحسين كتاباً مقابل مساعدته. بيدرو بارمو لخوان رولوفو. سَحَرَني الكتاب الذي لم أفهمْه جيّداً، أحسستُ أن كل ما حولي هو غامضٌ، وليس كما يبدو في الواقع، أليفاً ومكرّراً. ولم أتوقّف بعدها عن القراءة.

أشعلتُ سجارة ثانية في باب المدرسة. وقرّرتُ أن أصارحَ معلّمتي. عدتُ إلى الداخل. في الممرّ، سمعتُ صراخ المعلّمة من غرفة المعلّمين. ركضتُ بسرعة وذعر. كان الحارس يغتصب سلمى حايك. أخرجتُ سكّيني، وطعنتُهُ في رقبته.

تعود المعلّمة إلى الشرفة، وتجلب معها بعض الحلويات العراقية. أضع الكتاب على الطاولة، وأشكر خديجة على كرمها وعلى صبرها وصراحتها. نسولف على العراق وعن خرابه وفساد ساسته. أعود وأطرح عليها بعض الأسئلة عن مقتل وسام. تعطيني إجابات موجزة، وهي تطلق الحسرات بين الحين والآخر. أسالها إن كانت تود مرافقتي لمهرجان الأدب. تتردّد أوّل الأمر،

ثمّ تبحث في الآيفون عن جدول المهرجان. تبتسم، أوكي، تقول: ستكون هناك أمسيّة اليوم مع كاتب إيسلندي أحبه كثيراً، هو شون، هل تعرفه؟ أرد: لم أقرأ له الكثير، قرأتُ له فقط روايته المترجمة إلى العربية الثعلب الأزرق. نتّفق على موعد اللقاء. عند باب شقّتها، أمدّ يدي لمصافحتها، فتتجاهل يدي، وتعانقني بمودّة. تقول: فيك ريحة بغداد، رغم كل ما سوته بينه من مصايب، تبقى بغداد حلمنا الضائع إلى الأبد! خديجة في بداية الخمسينيات من عمرها، لكنْ، تبدو أصغر بكثير. بشرة جلدها، وقوامها يشيران إلى أنها تمارس الرياضة بانتظام، وتأكل بطريقة صحّيّة.

نلتقي أنا وخديجة في المهرجان. أحصل على هدية رائعة كبيرة وهي مصافحة بيورك، وإلقاء التحية عليها. أخبرنا أحد الحضور أن بيورك تتابع أغلب أمسيّات المهرجان، وهنا الناس لا يزعجونها، فهي لا تحبّ التقاط الصور. حصلتْ خديجة على توقيع من كاتبها المفضّل (شون). تتمشّى أنا وسلمى حايك حتّى مركز المدينة، ونسكر في بار. نطلب تاكسياً عند الثانية ليلاً. يوصل التاكسي سلمى حايك إلى بيتها، ثمّ يوصلني إلى الفندق. أفيق في العاشرة صباحاً. أُرتّب ملابسي في الحقيبة. أنزل إلى الاستعلامات، أشرب قهوة، وأعمل جيك آوت. أصل مبكّراً إلى المطار. آكل سنادويج جبن وسلطة. أشرب الكثير من الماء، وأواصل قراءة كتاب رقصة الدم مع سلمى حايك. لم يغتصب الحارس خديجة في ذاك اليوم. صحيح أن الحارس كان رجلاً وقحاً، ويتحرّش طوال الوقت بالمعلّمة، لكنه لم يكن يجرؤ على اغتصابها. كان يومها قد ضايقها بالكلام، فراحتْ تصرخ بوجهه، وتوبّخه. غيرة وسام وتعلّقه الكبير بمعلّمته هي التي دفعتْه لطعن الحارس في رقبته. كانت خديجة عذراء. يومها مارست الجنس مع وسام في غرفة المعلّمين، وسال الدم من بين ساقَيْها بينما كان الحارس غارقاً في دمه. وسام وخديجة

ظنّا أن الحارس ميت. أخذت سلمى حايك ترقص وحدها بخطوات بطيئة وغاضبة ووحشية. ثمّ هدأتْ، وعانقتْ وسام. اتّصلتْ خديجة بالشرطة، وادّعتْ أن الحارس اغتصبها، وأن وساماً كان يحاول الدفاع عنها. استعاد الحارس وعيه في المستشفى، ونجا بأعجوبة من طعنة وسام الذي ألّف كتابه الوحيد في السجن. بعد سَنَتَيْن ماتت أمّ خديجة في حادث مروريّ، فقرّرت الرحيل عن البلاد. درستْ ستّ سلمى حايك التمريض في إيسلندا. تزوّجتْ من رجل فرنسي، يعمل في شركة اتّصالات في ريكا فيكا، وانفصلتْ عنه بعد ستّة شهور. تعيش خديجة اليوم وحيدة. وتسافر كلّما سنحتْ لها الفرصة، لمتابعة ألعاب الساحة والميدان حول العالم. تقول خديجة: لستُ متأكّدة إن كان الحارس هو مَن قتل وسام بعد خروجه من السجن، بعضهم يقولون إنها عداوات من داخل السجن.

أذهب إلى الأسواق الحُرّة لشراء الكحول. أضع في أذني الهتفون، وأستمع من الآيفون إلى (أرض الدخلاء) لبيورك. أطوف بين زجاجات الكحول وقدماي تتراقصان على إيقاع أنغام الأغنيّة. في الطائرة، أستمع إلى أغاني بيورك من مراحل مختلفة من مسيرتها الفنّيّة (تعالَ إليّ، عالم جديد، يوغا، من هذا)، أميل برأسي إلى جهة النافذة. أنظر إلى محيط الغيوم. أُغمض عيني، وأنام. أحلم بأنني أجلس أمام مشهد ذبح طفل، و أنا أسلخ جلدي بأظافري القذرة والطويلة، وكان الكلّ جائعاً في الحلم!

عزيـزي حســن. أرجـو أن تكون بخـير. كنـتُ محروماً مـن النت، لكنـي وجـدتُ الآن أن لا رسـالة هنـاك منـكَ. لا جديـد عنـدي سـوى متاعـب الصّحّــة. بالطبع خفّفـتُ كثـيراً من الزخـم السـابق: قراءة وكتابـة أقـلّ، عمومـاً كل شيء صـار كمـا في إبطـاء سرعـة الشريط الفلمـي. أخذتُ بنصيحة سـيوران مـرّة أخرى عـن العـودة إلى الكُتُب المقروءة سـابقاً، لكـنْ، مـرّة واحـدة. فالمـرّة الأولى من القـراءة عَدّها صديقنـا لا تعنـي شـيئاً. وهكـذا أخـذتُ أقـرأ كتـاب سـارتر عـن فلوبـير. كتـاب ضخـم وباهـر. لا أعـرف إن كان الوضـع الصّحّـيّ يسـمح بإعـادة القـراءة إلى النهايـة. كانـت عنـدي ملاحظـات أثـر القـراءة الأولى في نهايـة القـرن العشريـن، وقـد أجمعهـا في نـصّ واحـد. كمـا تعـرف أنـا لا أتابـع التراجـم العربيـة، ولا أعـرف إن كان كتـاب سـارتر هـذا، وعنوانـه (أبلـه العائلـة)، سـبق أن ترجـم. في الحقيقـة الكتـاب هـو روايـة عـن روائـي. وسـبق أن نشره سـارتر ناقصـاً في عـام ١٩٧١، ولـم تكـن في نيّتـه أبـداً العـودة إلى الكتابـة فيـه. كمـا تعـرف كان بـصره يضعـف باسـتمرار منـذ السّـتّينيّات، وفي السـبعينيات كان ضريـراً إلى حدّ كبير. وعندما رحـل في ١٩٨٠ كان أصغـر منّي عمـراً (٧٥ سـنة). هاجمـه مرض مـن أمـراض الرئتَيْن، وكان يُدخّـن بجنـون، ولـولاه لعـاش أطـول. محبّتـي.

***

القـراءة ... القـراءة ... هـذا المرهـم المضمون الـذي يدهن مفاصل

حياتنا، كي نَحُولَ دون تراكم الصدأ الذي يجلبه لنا اليومي. أعترف بأني أحسدكَ على إصراركَ على القراءة. فأنا قد هيمن عليّ هاجس الكتابة: أخذت تميل كفّتها ليل نهار. إنه هاجس ذو إملاء وآمرية لا أستطيع مراوغتهما. ويقوى الهاجس حين ينشأ دافع معيّن إلى الكتابة، أو بالأحرى تكرارها، عن هذه الحمّى التي تنتشر في هذا الجسم الهشّ أو تلك. منذ يومَيْن عدتُ إلى سيوران مُقاداً بإحساس غريب، كما لو أني أريد كتابة وصيّتي الأخيرة المعنونة، بالفعل، إلى هذا الروماني الذي كان قد أدمن على الإيمان في اللاإيمان. أنا على يقين من أنه لما أصبح سيوراننا، لو لم يكن ذلك الأرق «الإلهي» الذي جاب معه طُرُق تلك المدينة

...

سأبعث إليكَ بسيوران حال الانتهاء من كتابته. أنا أشعر أيضاً بسعادة تكاد تكون طفلية حين أكتب عن «رفاق السلاح» أمثال سيوران وبورخيس وبرغمان وميللر وكيركيغورد وكافكا وغيرهم من الذين فضّلوا جحيمهم على جنّة للخلد، هي مجهولة في الأساس ...

***

٩٩ سويدي

في السـجن حدّثنـي عـن حكايتـه مـع عبـد اللـه وأسـماء اللـه الحسـنى. والأسـماء هـي أصـل مـن أصـول التوحيـد، في العقيـدة الإسـلامية. لذلـك فهـي روح الإيمـان، وأصلـه وغايتـه، فكلّمـا ازداد العبـد معرفـة بأسـماء اللـه وصفاتـه، ازداد إيمانـه، وقـوي يقينه. إنّ للـه عزّ وجـلّ أسـماء وصفات عديـدة، ثبتـت بالسّـنّة الصحيحة والقـرآن الكريـم، وهـي الصفـات التـي أطلقها اللـه على نفسـه، أو جـاءت عـلى لسـان رُسُـله، وإنّ الإيمـان بهـا ئيعـدّ واجبـاً، وصفات اللـه لا تُشـبه صفـات المخلوقـات؛ وذلـك لأن صفـات اللـه تتّصـف بالكمـال؛ فيسـتحيل أن يعتريهـا أي نقص، ونسـتنتج ذلـك من قوله تعـالى في الآيـة الكريمـة «ليـس كمثلـة شيء وهـو السـميع البصير»

وضّـح الرسـول محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم أنّ للـه تسـعة وتسـعين اسـماً، وقـد جـاء ذِكْرهـا بالقـرآن الكريـم والأحاديـث النبويـة الصحيحـة، فقـال عليـه السـلام: «إنّ للـه تسـعة وتسـعين اسـماً، مائـة إلا واحـداً، مَـنْ أحصاهـا دخل الجنـة»، وهذه الأسـماء هـي: الرحمـن، الرحيـم، الملـك، القـدّوس، السـلام، المؤمـن، المهيمن، العزيـز، الجبّـار، المتكـبّر، الخالق، البـارئ، المصـوّر، الغفّـار، القهّار، الوهّـاب، الـرزّاق، الفتّـاح، العليـم، القابـض، الباسـط، الخافـض، الرافـع، المعـزّ، المُـذلّ، السـميع، البصـير، الحكـم، العـدل، اللطيـف، الخبـير، الحليـم، العظيم، الغفـور، الشـكور، العليّ، الكبـير، الحفيظ، المقيـت، الحسـيب، الجليـل، الكريـم، الرقيـب، المجيـد، الواسـع،

الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوي، المتين، الوَليّ، الحميد، المُحصي، المُبدِئ، المُعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المُقدِّم، المُؤخِّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البرّ، التوّاب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الوارث، الرشيد، الصبور.

الأب اليساري

من صار عمري ١٥ سنة، انفجرتْ سيّارة في الزقاق. في الأخبار يسمّونها المفخّخات الطائفية. تحطّمتْ شبابيك البيت، ووقعتْ صورة جدّي من الحائط. لمّينا الزجاج المكسّر، ونظّفنا البيت. استرحنا، وشربنا الماء البارد. فتحنا التلفزيون، لنتابع ما سيقولونه عن سيّارتنا الطائفية! الساسة والصحفيون تبادلوا الإهانات والاتّهامات بالخيانة والعمالة لدول الجوار. قامت أمّي بطبخ السمك، بينما ساعدتُ أنا أبي في إعادة صورة جدّي إلى الجدار. فرشنا سفرة الطعام، والتهمنا سمكة مشوية كبيرة مع السلطات، وشكرتْ أمّي الله على سلامتنا. كرع أبي قدحاً من اللبن البارد، ثمّ وضع يده على كتفي، وقال بحزن دراميّ: (لازم تعرف قصّة جِدَّكْ، يمكن تساعدكْ تفهم السّيّارات الطائفية وبنزينها الي من دم ونفط.). شرب أبي كأس لبن ثانياً، واسترسل في الكلام عن جدّي. كان جدّي قيادياً في الحزب الشيوعي، عُذّب طويلاً في السجن، قبل أن يعدمه النظام في سبعينيات القرن الماضي. حكى أبي قصّة جدّي من بداية نضاله حتّى حبل المشنقة. قصّة متشعّبة وغير مفهومة، زاخرة بمؤامرات داخلية وخارجية، وشيء اسمه

داء النسيان عند البشر. خيانات ودماء ودهاليز سرّية وصراخ، وعيون تنتظر في الظلام الأملَ أو الموتَ. دخت شوية، وما فتهمت قصّة جدّي! صبّت أمّي في قدحي الفارغ المزيد من اللبن البارد، وقالت: (لا تدوخ نفسك انت ابني.. اشرب لبنك وروح لغرفتك اقره لمستقبلك). شربتُ لبن أمّي، وسألتُ: وما هي ميولكَ السياسية أنتَ، أبي؟! فردّ ساخراً قبل أن يُشعل سيجارة: (أنا، يا بني، يا عزيزي، يساري يائس!).

كانت الأحزاب الدِّينية وميليشياتها قد سيطرت في الانتخابات الأخيرة على البرلمان والحكومة. كنّا في تلك الأيّام نخطّط للهرب من البلاد. قرّرنا بيع بيتنا، لندفع إلى المهرّبين، لكي يوصلونا إلى السويد. بعد أيّام من انفجار السّيّارة، ذهبنا أنا وأبي إلى المقهى الشعبي. طلبنا شاييْنِ وطاولة. كان المقهى ممتلئاً بالزبائن ودخان السجائر. (لماذا لا يفوز اليسار في الانتخابات؟) سألتُ أبي. قال إن الموضوع ربّما يكون شائكاً بالنسبة لي، وأضاف أنه سيعطيني بعض المفاتيح التي ربّما تساعدني مستقبلاً إن رغبتُ بفتح بعض أبواب حكاية الإنسان والتاريخ. انتبهتُ إلى أن أبي لا يعرف الإيجاز في الكلام، ويكرّر أفكاره وجمله. أسهب كعادته، وصارت قصّة الرأسمالية والغرب مُريبة وغريبة. قال: اسمعْ، ابني العزيز، لقد دمّر الغربُ الرأسمالي اليسارَ في بلدنا في أثناء الحرب الباردة. لهذا لم يتبقّ لنا سوى الديكتاتورية وفاشية الإسلاميين. كانت الحرب باردة بالنسبة للغربيين، ودموية وجحيمية بالنسبة لنا. ساندوا الانقلابات العسكرية والديكتاتورية في كل مكان، من أجل حربهم وأنانيّتهم الباردة. تفوّق الغرب وسلطته، وغروره شيد عبر قرون من الغزو والاستعمار. شيّدوا حضارتهم وقيمهم التي يفتخرون بها اليوم فوق ملايين الجثث، ونسوا أن قيمهم وحضارتهم ما هي إلا مزيج من ثقافات شعوب الأرض كلها، التي نهبوا خيراتها وثرواتها. في

الماضي، كانوا يرسلون جنودهم يَقتلون ويَسرقون بوحشية، اليوم يَقتلون بقنابل ذكية ديمقراطية، ويسرقون بشركات عملاقة عابرة للقارّات. بعد الاستقلال من الاستعمار بدأت الحياة المَدَنية والديمقراطية تنمو ببطء في بلادنا وسط عواصف حربهم الباردة. كانت هناك أجيال منفتحة ومثقّفة وصادقة، تحلم ببناء حياة أفضل للناس. لم يمنحوا الشبّان الفرصة. ساند الغرب الرأسمالي الأنظمة القمعية، ودرّبوا شرطتها السّرّيّة على أبشع طُرُق التعذيب وإسكات وتصفية المعارضين كلهم. باعوا للديكتاتوريات حول العالم أسلحة وكيماويات وغاز. تغيّرت خطط أمريكا الاستراتيجية وحلفائها. فقرّروا أن يتخلّصوا مثلاً من ديكتاتورنا. أشاعوا الفوضى لتأسيس مزرعة الإرهاب الإسلامي في بلدنا، وبإشرافهم، من أجل حماية مصالحهم. جيوش الشبّان غير المتعلّمين والعاطلين عن العمل هم اليوم وقود ماكينة الجهاد. إنهم دمى محشوة بالخوف والضياع والجهل. دمى تُحرِّكها مصالح أنانية وضيّقة، إقليمية وعالمية. أوربا والغرب بشكل عامّ مازالوا حتّى اليوم يخوضون حربهم الباردة على ملاعبهم القديمة نفسها. على الغرب أن يدفع ثمن الخراب الذي خلّفه في أكثر من قارّة. الهجرة الكبيرة واللاجئون الذين يتدفّقون اليوم، وبأعداد كبيرة، مشياً على الأقدام إلى أوربا، هم في رأيي يقودون أكبر مظاهرة في هذا القرن ضدّ الظلم والرأسمالية. مظاهرة عبر البر والبحر. لو كانت لديّ إمكانيات مادّيّة كبيرة، لساعدتُ في نقل ضحايا الرأسمالية كلها حول العالم إلى أوربا. لينامَ الناس في البنوك والشركات الكبرى،ليناموا في مبنى الأمم المتّحدة الأبيض والبنك الدولي الأبيض، وليحتلّوا محكمتهم الجنائية الدولية البيضاء، التي تترك قتلة مثل بوش وبلير طلقاء، يستمتعون بما ارتكبوا من جرائمهم. لينامَ اللاجئون في جمجمة أخطبوط الرأسمالية.

بعد محاضرة الأب في مقهى الرجال عن الرأسمالية، ذهبنا إلى السوق. اشترينا الخضار والخبز. أعدّتْ لنا أمّي شاي وكعك العصر، وجلسنا في الصالة نتفرّج على فلم هوليوودي عن جنود أبطال أمريكان يقتلون عراقيين في مُدُن عراقية. لم أُكمل الفيلم. دخلتُ إلى غرفتي. كنتُ قد اشتريتُ قبل أيّام بوستر فلم كيل بيل. أخرجتُ الصمغ من الجرار، وعلّقتُ الملصق قرب سريري. جلستُ أتأمّل البوستر وأنا أفكّر في كلام أبي (لماذا، إذاً، نهاجر إلى السويد؟! إن لم يتمكّن اليساريون من مقاومة الإمبريالية، لمَ لا يقاومها الإسلاميون؟).

الأمّ الأمّيّة.

بعد عامَيْن من انفجار السّيّارة الطائفية في زقاقنا، وصلنا إلى السويد. كان المتضرّر الأكبر من هجر البيت هو أمّي. لقد خسرتْ حياتها الأليفة والبسيطة في الحيّ الفقير الذي كنّا نعيش فيه على أطراف بغداد. في ستوكهولم، صارت أمّي أشبه بالطفل التائه. لم تكن أمّي تقرأ وتكتب. وُلدَت في عائلة محافظة دينياً، لم تكن تسمح بتعلّم البنات. كان حلمها الكبير أن أُكمل أنا تعليمي، لأرى العالم بألوانه كلها. كانت تقول إنها لم ترَ الحياة سوى بالأسود والأبيض بسبب جهلها. كانت ستوكهولم بمثابة المتاهة لأمّي. كانت تشعر بالقلق حين تدخل مجمع الأسواق، لتتبضّع، تقول إنه أكبر من اللازم، وفيه أضواء مخيفة كثيرة. المشكلة الثانية التي كانت تدوخ أمّي هي أرقام الباصات والعناوين. تتعجّب أمّي، وتقول، كيف يمكن أن تبقى أشجار في السويد مع هذا الصرف كله بالورق! تقصد ورق الإعلانات التجارية وورق الباحثة الاجتماعية. يردّ أبي عليها: (الورق هو الذي يحافظ

على الأشجار والنظام)، ثمّ يهتف وكأنه في مظاهرة: والأرقام والأسعار التي على الورق هي مَن تحكم العالم! مع مرور الأيّام، أخذتُ أشعر بالغضب والاستياء من معاملة أبي لأمّي. كان يسخر منها بعنجهية غبية. والأخره من ذلك هو إصراره على لوم أمّي بسبب أو من دونه، وكأنها هي المسؤولة عن صناعة قنبلة الرأسمالية النووية التي تخيّل أبي أنه كان يحاربها. مرّة ثار غاضباً من حجاب أمّي، يقول إنها ستلفت أنظار العنصريين إليها، وإن الناس سيظنّون أننا إسلاميون متعصّبون! لم تكترث أمّي لكلامه. الحجاب كان بالنسبة لها كقطعة من جسدها. وُلدت في عائلة محافظة وصارمة. والتصق الحجاب بشعرها منذ طفولتها. أبي الذي يدّعي المَدَنية وحُرّيّة الفكر، ارتبط بأمّي عن طريق زواج تقليدي قبلي. اختارت له أمّه إحدى قريباته (أمّي)، وأذعن للاختيار. لم يرَ وجه أمّي قبل الزواج، لهذا هو لا يعرف الحبّ كما يعرف النضال ضدّ الإمبريالية العالمية. نفخ أبي ريشه مثل طاووس حين تحقّقت نبوءته الخرائية. فقد عادت أمّي ذات يوم باكية ومكسورة من الأسواق. حاول رجل سويدي سكران نزعَ الحجاب من رأسها وهو يشتمها. طلبتُ من أمّي أن تصف لي شكل الرجل. كنتُ أغلي وأتمنّى مصادفة العنصري الذي أخاف وأهان أمّي.

أبي اليساري، أمّي الأمّيّة، وأنا هاو الأفلام وألعاب الفيديو، دخلنا جميعاً مدرسة اللغة السويدية. بعد عام حصلنا على أوراق الإقامة. استرخى طلاب اللغة السويدية، وعثروا على مخدّراتهم. الكحول كان مخدّر أبي. خفّف من حدّة نقده للرأسمالية، وراح يمدح سياسة وأسلوب الحياة في إسكندنافيا. وغَدَّنا أنا وأمّي أشباحاً تعيش من حوله. ثمّ راح الكحول تدريجياً يقود ذهن أبي كسيّارة تسير مترنّحة، وعلى مهل، صوب الهاوية. أما أمّي، فكان الساتلايت هو مخدّرها. ما إن علّقناه في سطح البناية، حتّى عثرتْ

أمّي على عالمها الآمن. تطبخ وتشاهد الأغاني العراقية القديمة والحزينة، وتتابع المسلسلات الدرامية العربية. تآلفت أمّي مع أوضاعها، واستسلمت لحياة الغربة المرّة والمسمومة، كما تصفها. صارت حياة الغربة شاشة: دراما حزن وأغان، ودموع حنين إلى البيت البعيد. أنا عثرتُ على مخدّري عن طريق عبد من عبيد الله. شابّ أفغاني من عمري، اسمه عبد الله، يشرب أنواع المخدّرات كلها، وبإفراط. لطيف وشجاع. وكان بمثابة أخي، وكان دليلي لاكتشاف ستوكهولم.

الأخ الروحي.

مشكلة صديقي عبد الله الكبيرة كانت إفراطه في الحديث عن أفكار الجهاد ورايات الله. قلتُ لعبد الله أكثر من مرّة، بأنني لا أفهم في الدِّين كثيراً. لم أكن أصلّي في بغداد، أبي كان ملحدا، وأمّي علاقتها بالدِّين لا تتعدّى شكر الله والدعاء والاستغفار منه وطلب رضاه. ترفع يديْها إلى السماء، وتغرّد كطائر ملائكي. قال عبد الله إنه يدعو لي ولعائلتي بالهداية والإيمان! أحبّت أمّي عبد الله كثيراً، وأخبرته أنها بمثابة أمّه وعائلتنا هي عائلته. ذات يوم كنّا نأكل الدولمة حين راحت أمّي تسأل عبد الله عن عائلته. قال عبد الله إنه يعرف أباه من الصورة فقط. صورة فتوغرافية لثلاثة شبّان مجاهدين، يحملون الكلاشنكوف الروسي على سفح جبل في أفغانستان. أبوه في الصورة هو مَن يرفع كتاب الله إلى السماء كعلامة إيمان ونصر. عبد الله كان في الثالثة من عمره حين قتل الأمريكان أباه. وكان لديه ٥أخوات و٣ أخوة يكبرونه في العمر. أمّه كانت كأمّي لا تقرأ ولا تكتب، مُجرّد كائن لغته الوحيدة التي يجيدها هي المحبّة والطيبة والألم.

ارتبكتْ حياة أمّ عبد الله بعد مقتل أبيه. لم تتمكّن من إعالة هؤلاء الأولاد كلهم، فلجأتْ إلى بيت أهلها. أعطوها غرفة طينية صغيرة، لا توجد فيها سوى سجّادة كبيرة وبطّانيات قديمة مهترئة. أشعلت الأمُّ الشموعَ في الغرفة، ودخل أطفالها، ليكبروا بين جدران الطين. كان البيت الطينيّ الكبير يسكنه ٦ بالغين و١٩ بنتاً وولداً. جدّه والد أمّه متزوّج من امرأتَيْن: واحدة في متوسّط العمر، والأخرى شابّة، لم تبلغ العشرين. وكان هناك أخوال عبد الله وزوجاتهم وأولادهم. كان الفقر يعصف ليل نهار في البيت الطينيّ الكبير. تشاور رجال العائلة، وقرّروا أن يُرسِلُوا بطلاً من العائلة في مهمّة مقدّسة من أجل إنقاذ العائلة الكبيرة من الهلاك. بطلٌ عليه أن يعبر البحار والصحاري والجبال الشاهقة. بطلٌ يتسلّل خفية عبر حدود العالم، يخدع حرّاسه وأفاعيه ودببته وحشراته السّامّة، بطلٌ يواصل طريقه الشائك والخطر والمخيف، وفي قلبه هدفٌ نبيلٌ سامٍ، إلى أن يصل إلى برّ الأمان. يقطف الزهرة السِّحْرِيّة من البلاد البعيدة، ويرسلها إلى البيت الطينيّ، ليتنفّس ويعيش. فكان البطل الذي اختاروه هو عبد الله، الذي اجتاز الصعاب والتحدّيات، وتحمّل الرعب والعذاب وهو في سنّ الرابعة عشرة حتّى وصوله للسويد. كانت المشكلة أن عبد الله لم يرسل باقة (زهرة النقود) إلى بيت الطين لتشفيه، كما كانت الخطّة. المخدّرات وصدمات حياته الماضية أزهرت في ذهن عبد الله زهرة مسمومة، اسمها الجهاد في سبيل الله. في بداية علاقتي فيه، ظننتُ أن عبد الله متبحّر بعمق في الدِّيْن الإسلامي، وهذا ما أوصله إلى طريق الجهاد وأفكاره. فكّرتُ حينها أن جهلي في الدِّيْن، هو الذي يمنعني من فَهْم فلسفته القتالية الجهادية العنيفة. لكنْ، بمرور الوقت تكشّفتْ لي أوراق عبد الله الجهادية كلها. كان جاهلاً في الدِّيْن الذي يقاتل من أجله، وكان يردّد مثل ببغاء ما يقوله

مشايخ الكراهية والجهل في النت والفيسبوك واليوتيوب. مرّة سألتُهُ إن كان يفهم الآيات التي يقرؤها. ضحكتُ حين عرفتُ أنه لم يكن يعرف معنى ما يقرؤه. كان يفهم بضع كلمات، بقدر ما تعرف أمّي وتفهم من كلمات قليلة عن الحمد والشكر والاستغفار. لكن عبد الله كان بارعاً في حفظ الخطب الجهادية من النت. شعر بغضب من سخريتي من جهله، فقاطعني. ذهبتُ فيما بعد لمصالحته، وقلتُ له: (عبد الله عوفك من الدِّين خلّي نتونّس ونعيش)، ورحنا نتسكّع من جديد على الحفلات والسُّكْر وتدخين المرايهوانا. عبد الله لم يكن يكتفي مثلي بالمريهوانا، كان يُدخِل إلى دمه أنواع السموم المخدّرة كلها. أيّامها كانت مشكلتنا أنا وعبد الله جنسية. كنّا نلتقي في الكثير من البنات المثيرات والجميلات في الحفلات. عبد الله كانت لديه صديقة سويدية قبل أن تنمو زهرة الجهاد في ذهنه، وتُسمّم حبّه. البنات اليوم بالنسبة لعبد الله هنّ عاهرات وكافرات، وهو لن يمارس الجنس بعد اليوم إلا عن طريق الزواج الشرعي. سيختار لدنياه فتاة مسلمة عذراء عفيفة، لتكون آخرته حوريات. لستُ متأكّداً ممّا يقوله الدِّيْن الإسلامي عن الحوريات، هل هنّ عذراوات أم مفتوحات؟ أما أنا، فكانت مشكلتي الخجل والإرباك الذي يشلّ لساني وأطرافي في الحفلات. أوكي، أنا خجول منذ سنوات طفولتي، لكن الخرية الكبيرة هي أننا في بلادنا لم نختلط كثيراً وبشكل طبيعي مع الفتيات. كان حرّاس الشرف والدِّيْن والتقاليد هم بمثابة جدار فصل عنصري بين الرجل والمرأة. أيّ اختلاط غير شرعي سيتسبّب في اشتعال طيز الله، ويحترق، ولن يخرى بعدها نعمه علينا! على كل حال، بعد فترة ليست بالطويلة تدبّرتُ أنا إرباكي وخجلي، وصادقتُ فتاة كرواتية جميلة رائعة، اسمها إيفانا. بعدها أخذتْ لقاءاتي تقلّ بعبد الله. لم يعجبْه أن تكون إيفانا برفقتنا وهو يتحدّث عن

الجهاد، واقترح عليّ أن أدعوها للإسلام! قلتُ له إنها من أصول مسلمة، ولم يصدّقني أوّل الأمر. لم يستوعب أن يكون هناك مسلمون في كرواتيا. قلتُ له إنهم أقلّيّة، وإيفانا هي من طائفة البوشناق، إن كان سمع بها. طبعاً جهله كان الردّ. ثمّ صار غيوراً من علاقتي بإيفانا، وأخذت اتّصالاته تقلّ، ولم نعد نتواصل. انغمستُ أنا في حبّي وإعجابي بأميرتي إيفانا، وتفرّغتُ لهموم أمّي. اقترحتْ على أمّي أن تتكلّم مع أبي بجدّيّة، فهو بحاجة لأن يتعالج من إدمانه على الكحول وأزماته النفسية. قالت أمّي إنها لا تريده أن يثور مثل ثور هائج؛ اذ فتحت فمها عن الزقنبوت الكحول. وذكّرتْني بالمثل الشعبي الذي يقول (عقلك براسك تعرف خلاصك)، وافقتُها الرأي، ووعدتُها بأنني سأتكفّل بأمر الكلام مع أبي.

سيّارة الله ٩٩.

في يوم صيفي رائع، خابرني عبد الله، وطلب أن نلتقي. كان قد انقطع عنّي طوال فترة الشتاء. قال إنه سيأتي بالسّيّارة ليصحبني. سيّارة؟ سألتُهُ مستغرباً. كان عبد الله عاطلاً يعيش من المساعدات الاجتماعية. أفهمني أنه عمل فترة بالأسود، وأن السّيّارة مستأجَرَة. اقترح أن نعمل جولة، ونذهب إلى مهرجان موسيقي يُقام في السنتر. سألتُهُ (اذ أوكي إيفانا تجي معنا، وممكن طبعاً نساهم بفلوس الأجرة والبنزين؟) ردّ عبد الله (لا داعي.. أجرة السّيّارة وبنزينها في سبيل الله.. مجاناً) ضحكتُ من (في سبيل الله) مال عبد الله الحشّاش، وقلتُ له: لن يضيعَ الأجر في سبيل الله.. فكلنا سنكون مسلمين في السّيّارة.

قبل أن ننعطف إلى الشارع الرئيس المؤدّي إلى السنتر، حيث المهرجان،

ركن عبد الله السّيّارة، وقال إنه يريد أن يبول. ذهبتْ إيفانا معه ليبولا في بار قريب. كان من الواضح أن عبد الله تعاطى مخدّراً في تواليت البار. قاد السّيّارة ببطء أولاً، ثمّ أجبرنا على أن نستمع إلى خطبة شيخ، اسمه أبو مصعب عن أجر وثواب الجهاد في سبيل الله من أجل رفع راية الله على بقاع الأرض كلها. قال أبو مصعب (دار الإسلام هي الدار التي تجري فيها الأحكام الإسلامية، وتُحكَم بسلطان المسلمين، وتكون المنَعَة والقوّة فيها للمسلمين. ودار الحرب هي الدار التي تجري فيها أحكام الكُفر، أو تعلوها أحكام الكُفر، ولا يكون فيها السلطان والمنعة بيد المسلمين). طلبتُ من عبد الله أن يركن السّيّارة، ويتوقّف. هتف عبد الله (الأرض كلها اليوم لا يوجد فيها دار الإسلام.. الأرض كلها اليوم هي دار حرب وجهاد)، ثمّ سأل إن كنتُ وإيفانا نريد تدخين الماريهوانا. أعدتُ عليه طلبي بإيقاف السّيّارة. لم يكترثْ، وأشعل سيجارة ماريهوانا. (ماهي المشكلة؟) قالت إيفانا. سألني عبد الله إن كنتُ أعرف ما تعنيه أسماء الله التسعة والتسعين، وشغّل في استريو السّيّارة حديث رجل دِين سعودي آخر عن أسماء الله. أخذ عبد الله يشعر بالانفعال والحماس. أردتُهُ أن يهدأ، فقلتُ (أكيد معنى الأسماء هو حبّ وسلام، أرجوكَ، عبد الله، أوْقف السّيّارة الآن!)، لم تفهم إيفانا سبب قلقي من عبد الله إلا حين ضغط على دوّاسة السرعة، وانطلقت السّيّارة بسرعة جنونية. كان أمامنا شارع فرعي مزدحم بالشّبّان والشّابّات وهم يتوجّهون إلى مدخل المهرجان. كان صراخ إيفانا المرعوبة يصاحب صياح وتكبير عبد الله الغاضب :((٩٩ الله سيزيل ٩٩ كافر سويدي من هذه الأرض.. الله أكبر .. الله أكبر .. ٩٩ الله ...!)) حاولتُ السيطرة على المقود. لكمتُهُ على عينه اليمنى، ثمّ قضمتُ أذنه، فاصطدمت السّيّارة بحاجز كونكيرتي.

لم يُخدَش ولم يُجرَح ولا شخص واحد خارج سيّارة الله ٩٩. داخل السّيّارة، أُصبتُ أنا بجروح بليغة في الرأس. عبد الله كان مصاباً حين فتح الباب بصعوبة، وترجّل من السّيّارة. وقبل أن يُكبّر مرّة أخرى، أطلق شرطي عليه النار، وأرداه قتيلاً. التفتُّ أنا إلى أميرتي إيفانا، وكانت ميتة. خطفها تنّين الموت صاحب التسعة وتسعين رأساً واسماً.

أستمع الآن إلى أدفارد غرييغ، النرويجي حتّى العظم. عاش في ذلك (العصر السعيد) - النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أسموه بشوبان الشمال. شيء طبيعي أن يقترب أيضاً من هنريك إبسن (هناك سمفونيته باسم بير غينت الإبسنية أيضاً). الموسيقى هي أروع تعويض عن بخل السماء علينا.

محبّتي

***

عزيزي حسن. الكل قلقون. العنف يتصاعد بوتائر جنونية. من الصواب أن يُوجَّه إصبع الاتّهام إلى الكل، وبدون استثناء، إلى المخطّطين والمنفّذين سواء أكان هؤلاء يعلمون أو لا يعلمون. كل شيء يدلّ أيضاً على أنها ستكون أفظع من الأفغنة أو اللبننة أو أيّ جحيم آخر. فتركة الماضين القريبة والبعيدة تقذف بحممها اليوم بعد أن كانت فوهة البركان مسدودة. قرأتُ مرّة قصّة لجون شتاينبيك عن لؤلؤة اصطادها صيّاد فقير، وتحوّلت إلى نقمة عليه. هكذا حالنا مع النفط الذي لو لم يكن، لكنّا من شعوب العالم السعيدة التي تعيش على السياحة والزراعة، ولما فارقت الابتسامة وجوهنا - فَمَن يستقبل السائح بوجه متجهّم... الحديث عن النشر العربي ذو شجون كما يُقال. فهذا النشر هو مرض عضال شأن بقية أمراضنا، وما

أكثرهـا. بمقـدوري أن أنـشر وأنـشر إذا دفعـتُ الثمـن، وهـو ليس بالمـادّيّ فقط.

***

رسـالتكَ الأخـيرة نثـر مركّـز جميـل حقّـاً. كان بيركيـلي محقّـاً حـين قـال عـن عـدم وجـود شيء، اسـمه العالـم الخارجي، فـكل ما في الأمـر، أي كل مـا في هـذه الخدعـة الأبديـة، هـو تلقّفات حواسّـنا. الأصـوات تفـرض كينونتهـا علينـا. بالطبـع يمكننـا رفضهـا، لكنْ، إلى حـدود معيّنـة، وفي المحصّلـة، تدحـر هي محـاولات الكتـم كلها... لكـنْ، قـل لي، يـا حسـن، هل ثمّـة حاجـز فعلي بـين نوعَـي الأصوات كلَيْهمـا - أصـوات الداخـل والخـارج؟ أكيـد أن الجـواب قريـب مـن تلـك الحافّة التـي تُسـمّى، بدافـع الخمول البـشري، حافّـة الجنون. بعبـارة أخـرى هـم يسـتثنون حـالات معيّنـة تخـصّ أولئـك الأنبياء الذيـن كانـوا مغرمين بسـماع الأصـوات الداخليـة، وأحيانـاً يأخذون بمسرحـة القضيـة كأن يهبـط مـلاكٌ عـلى هـذا أو تلك..

***

في الغرفة المظلمة، أو فوق غصن شجرة

تطبخ تمن بالباقلاء بالطريقة العراقية، وتذوب مع ألحان أغنيّة إيرانية قديمة لهيدي.

تحتاج: كيلو باقلاء منزوعة القشرة. دجاجة مقطوعة نصفَيْن. باقة شبنت. بهارات صحيحة (فلفل أسود، هيل، قرفة، ورق غار، ليمون ناشف) بهارات (كاري، كركم). ملح. بصلة متوسّطة الحجم مفرومة ناعم. بصل جوانح. سنّين ثوم للدجاج. زيت. الطريقة: نحمّس الدجاج بقليل من الزيت، ونضيف التوابل الصحيحة والمطحونة والبصل والثوم والملح، ونظلّ نقلّب إلى أن ينشف ماء الدجاجة، ثمّ نضيف لتراً ونصف ماء مغلياً، ونتركها تستوي. ننقع الرز البسمتي ربع ساعة، ثمّ نصفّيه. نحمّس الباقلاء بقليل من الزيت والملح، وتوضع على جنب. نضع قليلاً من الزيت داخل القدر، ونضيف البصلة المفرومة، ونحمّسها جيّداً، ثمّ نضيف ٣/٤ من الشبت المفروم، ونقلّب، ونضيف الرزّ، ونقلّب، ثمّ نضيف له ماء الدجاج بارتفاع واحد سم، ونقلّب جيّداً مع إضافة رشّة كركم ورشّة ملح، وعندما ينشف قليلاً الماء، ويصل مستوى الرزّ، نضيف باقي الشبت والباقلاء، ونقلّبها جيّداً، ونغطّي القدر، ونضعه على نار هادئة.

الأكل كان ناقص شوية ملح، وخلّيت كركم شوية زايد. بس لون الباقلاء الأخضر مع الشبت في الرزّ مغري وجميل. آكل وأراجع في اللابتوب بعض

الملاحظات القصيرة الساخرة التي دوّنتُها الأسبوع الماضي. ملاحظات عن عشوائيات نوفمبر وديسمبر الجنسية. كتبتُ عن أشكال شعر العانة، وأنواع الحلمات وألوانها، والروائح، وإيماءة الوجوه لحظة الأوركازم، واللَّحْس والمَصّ، ووصف أشكال وأحجام زرف الطيز، والمذاقات، والكلمات المتقاطعة من مزح وجدّ في أثناء النيك. ثمّ دوّنتُ ملاحظة تفصيلة عن ماما آنا. تصرّفتْ آخر مرّة معي بغرابة! لو أنها كانت طلبتْ منّي ما أرادتْه يومها بشكل مباشر، ربمّا كنتُ قد لبّيتُ رغبتها. لكنها اختلقتْ مشهداً مسرحياً سخيفاً. اتّصلتْ بي، وطلبتْ منّي أن نلتقي، لتحدّثني بأمر ما. اتّفقنا أن نلتقي في بار التفّاحة. شربنا البيرة، وراحتْ تصف هدوئي المثير، وكيف أن الناس في الحيّ الذي نسكن فيه يكنّون لي الكثير من التقدير والاحترام. ثمّ قالت إنها تريد أن تنام معي. شعرتُ بالإرباك! كنتُ أهمّ بالكلام، لكنها قاطعتْني ((اسمع، حسن، أعدكَ بأنكَ ستشعر جيّداً، أعرف كيف أقوم بذلك)) ثمّ أضافت، لا تقلقْ من ماتي زوجي، هو يعرف بالأمر، ولا يمانع. ذهبتُ إلى التواليت. خرج الخراء قطعاً صغيرة جدّاً، وجافّة، وكأنه لقطّة، وليس لطبيب بيطري. ربمّا لديّ مشكلة في القولون. تخيّلتُ نفسي عارياً فوق جسد ماما آنا الضخم، بينما زوجها ماتي جالساً يراقبنا مبتسماً، وربمّا يدخّن سيجارة للاستمتاع، أو يمكنه أن يشرب النبيذ وهو يتفرّج على العرض. مسحتُ طيزي، وتوجّهتُ إلى البار مباشرة، وطلبتُ يالو. وضعتُ كأسي على الطاولة أمام ماما آنا، وذهبتُ لتدخين سيجارة خارج البار.

شاهدتُ ماتي يعبر الشارع، ويتّجه نحوي (لا ينقصني سوى زوجها الآن!)، صافحني بحرارة، وأحسستُ بالمبالغة في تحيّته، أخبرتُهُ أن زوجته في الداخل. قال أعرف، وإنه جاء، لينضمّ إلينا. جلستُ قبالة ماما آنا

وماتي، وكان من الواضح أنهما قد خطّطا لهذا اللقاء. كنتُ محرَجاً وغاضباً في الوقت نفسه. أخذتُ أتعرّق من إبطي، ومن طرف أنفي. أوكي، أنا وقح فقط حين أكون غاضباً. ولم أكن أعرف لحظتها، إن كنتُ غاضباً أم منزعجاً أم هو القولون الذي خرّب نظام الخراء. لا قدرة لي على مجاراة هذَيْن الأحمَقَيْن. قال ماتي وهو يبتسم بثقة ((لا تقلقْ، صديقي، أنا أعرف ما تطلبه منكَ آنا، بالنسبة لي، أنا موافق، ويمكنكَ أن تأتي وتستمتع في بيتنا في أيّ وقت تشاء)). نظرتُ إليه، فكّرتُ أن أقول له (فك يو)، وأغادر، لكني قلتُ: شكراً جزيلاً، باي!.

أنتَ تعيش اليوم رحلة حبّ مثيرة ونقية. متعة الطبيعة ممزوجة بمتعة الحبّ هي رحلة روحية وذنبية في الوقت نفسه.

انطلقنا في رحلتنا قبل يومَيْن. استأجرنا سيّارة لمدّة أسبوعيْن. سارة تكفّلت في القيادة. أنا لم أقدْ سيّارة في حياتي. أنفقتُ من نقود المنحة ما يقارب٤٠٠ يورو على رحلتنا. لم يتبقّ لي سوى مقابلة واحدة، سأُجريها في فنلندا. لم أكنْ قلقاً بخصوص الله ٩٩، كنتُ متحمّسا جدّاً لعلاقتي الجديدة مع سارة. أنا مَن اقترحتُ عليها الرحلة إلى الشمال، ووافقتْ هي في الحال. لم تكن لدينا خطّة واضحة. جولة عشوائية بين المُدُن والغابات. اشترينا خيمة وأدوات طبخ وسكينا صغيرة حادّة، وبعض اللوازم للتصدّي للسعات البعوض. ملأنا السّيّارة بطعام وكحول، وانطلقنا من هلسنكي إلى شمال فنلندا.

تعرّفتُ على سارة في البار، وتطوّرتْ علاقتكما.

سرتْ رعشة في جسدي حين رأيتُ (الهمسة) في بار النمل. كنتُ قد رأيتُها من قبل في معرض تشكيلي. لَفتَني حضورها الهادئ والمثير

والجميل. انطبعتْ في مخيّلتي صورتها لأيّام عدّة. وتمنّيتُ أن أراها مرّة ثانية. أسميتُها الهمسة في يوم المعرض، فأنا أعدّ نفسي وبكل فخر، لوحة الصرخة لـ إدفارت مونك. في بار النمل، كانت الهمسة برفقة فتاتَيْن، لا أعرفهما، وعازف كيتار أسترالي، لم أكن أطيقه. كنتُ أشعر أنه مغرور ومزيّف. حين لمحني أنظر إليهم، رفع يده وهو يقهقه (هاي حسن، هاو آر يو)، انتبهت (الهمسة)، ونظرتْ إليّ مبتسمة. ارتبكتُ أنا، وخرجتُ للتدخين. لا أدري لمَ يقهقه هذا الكنغر الأسترالي الأحمق طوال الوقت! كان دائماً برفقة أصدقاء، وأغلبهم في العادة من النساء. كان من النوع الذي يطلق نكتة ساذجة بين جملة وأخرى، ويضحك بمبالغة سخيفة. أصدقاؤه من الفنلنديين كانوا يتسمون أو يضحكون بخجل. ربّما كانوا يمنحونه فرصة لاستعراض ضحكته الاحتفالية لمقارنة خجلهم الفنلندي مع صفاقة الأسترالي الهارب من ماضيه. كان متزوّجاً من امرأة برازيلية لعشر سنوات. خانتْهُ البرازيلية مع شابّ برازيلي وسيم. غرق في الكحول، وقرّر الاختباء في فنلندا. هل يملك رجل نيجري أو باكستاني أو عراقي هذا الترف. تخونكَ زوجتكَ أو تهجركَ، فتقرّر العيش في فنلندا. النيجيري عليه أن يعبر المحيطات، وإن لم تأكله أسماك القرش، سينجو أخيراً، ويصل إلى هنا، ليكون مادّة دسمة لقرش العنصرية. هذا العالم مشيّد على أسس متينة من الغباء والهلوسة. من واجهة البار الزجاجية، راقبتُ كل حركة تقوم بها (الهمسة). كانت الأهدأ في المجموعة، خجولة، تائهة، تنظر إلى الطاولة حين تتحدّث، وتجامل الأسترالي في بعض الأحيان بابتسامة سرعان ما تختفي، وتتحوّل إلى قلق من وجودها وسط هرج مهرّجي البار.

نهضت الهمسة، واتّجهت إلى البارمان.

إنها فرصتي!!

وقفتُ جنبها، وطلبت بيرة وويسكي. قلتُ، هاي، ومددتُ يدي، اسمي حسن.

هاي، ردّت: سارة.

((كيف حالكِ؟)) قلتُ لها بصوت خافت.

((أنا أوكي، وأنتِ؟)).

((أنا أوكي)).

أعطاها البار مان بيرتها، فانتظرتْ برهة، لتمنحني فرصة للكلام مرّة أخرى. أخرجتُ علبة السجائر من جيبي ((هل ترغبين في التدخين؟)) ((أنا لا أدخّن، لكنْ.. اتس أوكي.. أقدر أدخّن معك واحدة)).

راقب الكنغر الضاحك سارة وهي تخرج معي لتدخين سيجارة أمام البار.

((هل أنتِ رسّامة؟ شاهدتُكِ من قبل في المعرض))، سألتُ الهمسة التي اسمها سارة.

((نوعاً ما، أوكي.. أغلب أعمالي فيدو آرت)).

((خره)) خرجت الكلمة من فمي .

((ماذا؟!))

((آه.. آسف جدّاً.. خره.. لا شيء.. لا شيء..)).

((ماذا؟)).

((أوكي، لا شيء جدّي.. ربّما أنا فقط عندي رأي سيّئ عن الفيديو آرت في أيّامنا)).

((لا تقلقْ، أنتَ لم تسمع رأيي بعد عن الفيديو آرت، ولا عن الفنّ اليوم بشكل عامّ. على كل حال، أنا متوقّفة منذ مدّة عن ممارسة الفنّ، أفكّر في دراسة الفيزياء في الجامعة))، قالت سارة إنها تعرف أنني كاتب وطبيب بيطري (بالومار يصحّح: قصدكِ طبيب أبقار سابق، وثور هورني حالياً). أضافت سارة أن الكثير من أصدقائها يعرفونني، ويقولون عنّي كلاماً جيّداً. شعّلتُ سيجارة ثانية، وقلتُ، شكراً. شعرتُ بالغباء لأني قلتُ شكراً. أخذتُ نَفَساً عميقاً من السيجارة محاولاً أن لا يلجمني سِحْر عينَيْها عن الكلام. قلتُ، أكيد أن أصدقاءكِ الذين يعرفونني هم من زبائن البارات الدائمين! ندمتُ على ما قلتُهُ. قد تظنّ الآن أني مدمن كحول (وهل أنا غير ذلك؟! هل يبتسم بالومار؟) شعرتُ بأن كل ما سأقوله سيشتبك مع بعضه البعض، وسيشكّل في النهاية فزّاعة غبية مضحكة مَحشوة بالكلام الفارغ. أضفتُ: أنا اجتماعيّ إلى حدّ ما، وأتسكّع كثيراً في البارات ومعارض الرسم. الكثير من الفنلنديين لا يتكلّمون كثيراً مع المهاجرين، ربّما أنا محظوظ لأنني ما زلت أملك القدرة على الكلام مع الآخرين، أحاديث عشوائية عن الفنّ والموسيقى والسياسة والكحول وتفاهات هذا العالم الخرائي. ما في مشكلة، حتّى الآن ليس هناك الكثير من المهاجرين في هذا البلد. والفنلنديون، ربّما مازالوا يجدون صعوبة في الانفتاح على الآخر. أغلب من ألتقيهم أنا يكونون ودودين معي. قريباً سأتخلّص من هذا الامتياز المريك. كاتب لاجئ، هادئ وطيّب (هذا ليس أنتَ! هل يضحك بالومار؟) مع

موجة اللاجئين الجديدة، سيزداد عدد زبائن البارات والمعارض والمطاعم، وسيزداد عدد اللاجئين خوات القحبة، وعدد اللاجئين الطيّبين. شعرتُ أنني أطلتُ في الكلام، فسألتُ سارة إن ما كانت ترغب في مشاركتي الشرب في بار الأفعى. ادّعيتُ أني أرغب في سماع الفرقة الموسيقية التي تعزف الليلة هناك. دعوتُ في سرّي أن لا تسأل مَنْ هي الفرقة الموسيقية. كل ما أعرفه أنهم في البار لديهم أمسيّة كل يوم جمعة. كانت رغبتي عارمة في اختطاف (الهمسة) من أصدقائها، وتحريرها من مكبّر الصوت الأسترالي الذي يقهقه كل ١٠ ثوان. اعتذرتْ سارة بلطف، وقالت إن صديقتها تحتفل اليوم بعيد ميلادها. أعطتني رقْم هاتفها، تمنّت لي أمسيّة سعيدة، وودّعتْني بعناق. انحصرت بولة. لم أجرؤ على دخول البار مرّة أخرى. تحجّرتُ في مكاني، وأشعلتُ سيجارة أخرى.

العناق عمل فنّيّ مدهش!

عدتُ ماشياً إلى البيت. مرّتْ عجوز من قربي، وتمنّيتُ لو تفتح ذراعَيْها لأعانقَها. راحتْ خطواتي تتسارع، وكأنني طائرة على وشك الإقلاع. الهمسة اسمها سارة إذاً! كيف تمكّنتْ من تشويش أنظمة دماغي كلها بهذه السرعة. توقّفتُ قرب المقبرة، وتبوّلتُ. رحتُ أرسم في مخيّلتي عناق سارة، عناقاً ونحن نسبح في البحيرة. عناقاً فوق قمّة جبل. عناقنا ونحن نمارس الجنس في السرير، عناقاً ناعماً في غابة ربيعية. عناقا فوق سطح القمر ونحن نقفز مثل روّاد الفضاء في انعدام الجاذبية. عناق تمثاليْن من حجر منذ آلاف السنين. عناقاً صباحياً في حديقة زهور مشمسة.

محطّتكم الأوّل بعد هلسنكي كانت مدينة فاسا.

رَكَنّا السّيّارة في طريق جانبي في مركز المدينة، وتجوّلنا على الأقدام. التقطتْ سارة بعض الصور الفتوغرافية للمدينة المطلّة على خليج بوثنيه. جلسنا لشرب القهوة في ترّاس مقهى قريب من الكنيسة. قرأت في الويكيبيديا عن مدينة فاسا. يبلغ عدد سكّان المدينة ٥٩ ألف ساكن. وأخذتْ صفتها كمدينة في عهد كارل التاسع ملك السويد. المدينة ثنائية اللغة، الفنلندية والسويدية. أغلب السويديين الذين التقيتُهم في فنلندا كانوا مهذّبين، ويُنصتون لكَ بمحبّة، ويثقون بكَ. لكزتْني سارة بمرفقها للانتباه إلى العجوز التي تجلس قريباً من طاولتنا. كانت العجوز تضع هاتفها النوكيا أمامها على الطاولة، وتُحدِّق في الفراغ من دون أدنى حركة وكأنها تمثال. رنّ موبايل العجوز. كانت النغمة أغنيّة فنلندية. لم تعر العجوز الموبايل اهتمامها، وواصلتْ تحديقها المخيف في الفراغ. قالت سارة إنها أغنيّة للفنلندية كاتري هلينا(*)، الأطفال والطيور.

((لمَ لا تكتب قصّة صديق طفولتكَ حبيب، إنها قصّة رائعة؟)) قالت سارة وهي توجّه الكاميرا نحوي.

لا أدري أنا ما هي القصّة الرائعة والجيّدة. وهذا ما كنتُ أقوله وأكرّره لحبيب حين كان يطالبني بقصص (قوية). أنتِ تعرفين، اللعنة القديمة الجديدة هي كيف تروي القصّة! عندما كنتُ مراهقاً، دعوتُ السماء أن تمنحني التجارب في الحياة، لأكون كاتباً جيّداً. بالغت الحياة، وطحنتْني وعجنتْني وخبزتْني وأكلتْني وخرتْني أكثر من اللازم. حتّى إنني اليوم لم أعدْ أميّز بين حياتي الحقيقية وحياتي المتخيّلة. يبدو لي ومن دون أدنى شكّ، أن كل يوم يمرّ هو قصّة واقعية وغير واقعية في الوقت نفسه. مَن

(*) Katri Helena

يدري؟ ربّما! قلتُ لسارة، وعاودتُ القراءة في الويكي عن مدينة فاسا بينما واصلت سارة توجيه الكاميرا صوبي. رنّ من جديد موبايل العجوز، وغنّت كاتري عن الأطفال والطيور. كانت سارة مهتمّة لإظهار العجوز في خلفيّتي. صمت موبايل العجوز. نظرتُ إلى كاميرا سارة ((يوجد مطار في فاسا!)) ضحكتْ سارة ساخرة ((أوكي، ستكون هذه معلومة خطيرة لقصصكَ المستقبلية))، قلتُ ((أوكي، سيّدة سارة، هل تعرفين أنني لم أستقلّ الطائرة في حياتي حتّى وصولي إلى فنلندا؟!)).

((حدِّثني عن ذلك))، قالت سارة، وهي تُعدّل زاوية التصوير.

أوّل تحليق لي كان في طائرة من هلسنكي إلى ستوكهولم بعد حصولي على جواز اللجوء. ذهبتُ لزيارة صديق عراقي كان زميلي في الكُلّيّة. ما إن ارتفعت الطائرة فوق الغيوم، واستقرّتْ في مسارها، حتّى أخذتُ أتصبّب عَرَقاً. الرجل الذي بجانبي كان يقرأ في جريدة هلسنكي صانومات. التفت لي مرَّتَيْن، ورمقني بنظرة مريبة. خمّنتُ الأمر، لحيتي الشرق أوسطية المريبة وحبّات العَرَق على طرفي أنفي. كنتُ قلقا وخائفا ومُحرَجاً في الوقت نفسه. وجودي في الطائرة كان بمثابة فعل عدواني على حُرّيّتي في أن أكون على الأرض، وحيداً ملتفّاً على خوفي مثل حلزون. جاءت المضيفة، فطلبتُ كأس ويسكي وبيرة وماء. التفت لي رجل الهلسنكي صانومات مرّة أخرى. ما الذي يلتفتُ إليه هذا الأحمق؟! ألم يرَ في حياته من قبل لحية شرق أوسطية تتعرّق وتطلب ويسكي وبيرة وماء؟! كرعتُ الويسكي. شربتُ جرعَتَيْن من الماء، ورحتُ أكرع البيرة. نظرتُ من النافذة إلى محيط الغيوم في السماء، فعبرتْ في ذهني ذكرى عمر الباكستاني، وكيف تخيّلنا معاً سيناريو فلم تحطُّم طائرة أوربية في جبال إيران. تحوّلنا يومها إلى

إرهابيين، وكنّا نمتلك الدوافع كلها لذلك، اليأس، الإحساس بالذنب، التعب ورعب المجهول.

رنّت أغنيّة الأطفال والطيور من جديد.

لم تردّ العجوز، وضعت الهاتف في حقيبتها الجلدية، ونهضتْ مغادرة. تابعتْ سارة خطوات العجوز بالكاميرا حتّى عبورها الشارع إلى الجهة المقابلة، ثمّ عاودتْ سارة توجيه الكاميرا ناحيتي ((أوكي، ما هي قصّة عمر الباكستاني والطائرة الألمانية؟! لم أفهم)).

((أوكي، سيّدة سارة الهمسة.. أنتِ تصلحين لأن تكوني صانع أفلام وثائقية)).

((أوكي، سيّد حسن بومة، لا تضيع الوقت، واحكِ لي الآن.. أكشن!))

كان كل ما تبقّى لنا في ذلك اليوم هو رغيفان من الخبز الإيراني، وكيس صغير من التمر بحجم اليد. أخرج عمر صورة أخته من حقيبته، وراح يتأمّلها. أخته التي ماتت وهي في سن الرابعة عشر من عمرها. تزوّجها شيخ عجوز من طالبان. يقولون إن الشيخ خنقها وهي نائمة، لأنه وجدها تلعب مع ابن الجيران الذي كان في عمرها.

كنّا نجلس أسفل شجرة عملاقة، نتأمّل الجبل الذي بخّر آمالنا. قضينا الليلة الفائتة تائهين، نتخبّط بين الأشجار في الوادي. عبرنا منحدراً صخرياً، ثمّ نمنا من شدّة الإنهاك. صحونا، فوجدنا الجبل أمامنا، وكأنه وحش عظيم متحجّر! لفّ عمر سجارة، وقدّمها لي. أخذتُ نَفَساً عميقاً وتأمّلتُ ملامح وجهه، وكأنه طفل سحب دمه بحقنة. كان شاحباً بصورة مخيفة.

حزيناً ومكسوراً مثل عصفور دُقّ عنقه. لم تمضِ سوى ثلاثة أيّام على بلوغ عمر سنّ السابعة عشرة. اقترحتُ عليه أن نجد مكاناً آمناً، ونواصل رحلتنا في الليل. مشينا ساعَتَيْن. غيوم سوداء عملاقة تجمّعتْ في السماء. بدا وكأن السماء هي الأخرى تُهدِّدنا، وليست الحيوانات البرّيّة والبشر من حرّاس الحدود. ملأنا قناني الماء من جدول قريب، فهطل المطر بجنون. تسلّقنا بضع صخور، واحتمينا بنتوء صخرة عملاقة.

رحلتنا كانت قد بدأت قبل ثلاثة أيّام. كنّا مجموعة مكوّنة من ١٥ نفر. مهرّب إيراني كان يقودنا. كنّا مثل النعاج نطيع راعينا المهرّب. كنّا نعبر منحدراً جبلياً وعراً، حين تعثّر يلماز التركماني، وسقط على وجهه. جرحت الصخور جبهته، وسال الدم من أنفه. توقّفنا أنا وعمر لمساعدته. كان الاتّفاق واضحاً منذ أن كنّا ننتظر هذه الرحلة في شمال إيران. كل مَن يتخلّف عن القافلة، مهما كان السبب، فلن يكون أحد بانتظاره. المهرّب سيواصل المشي، ولن يتوقّف من أجل المساعدة. إن لدغك عقرب، فمع السلامة، متْ برعب وحيداً، لا أحد سيضع كفّه على جبهتكَ وينتظر إلى أن تموت ويحلّ السلام. هذا يحدث في الأفلام فقط. أو ربّما تتيه في هذه الجبال الشاهقة. تأكلكَ الحيوانات المفترسة، أو تموت جوعاً أو تقصفكَ المروحيات التركية، بذريعة أنكَ من جماعة المتمرّدين الكورد.

خالفنا أنا وعمر قواعد المهرّب بمحاولتنا مساعدة يلماز، وندمنا بعد ذلك على مدّ يد العون. لم يتمكّن يلماز من مواصلة المشي. طلب منّا أن نتركه ونواصل المشي للّحاق في القافلة. تركناه، وأعطيناه المزيد من الطعام الذي نحمله وقنّينة ماء. مشينا عبر الوادي، لكننا لم نتمكّن من اللحاق بالقافلة. تهنا، ودخلنا في دوّامة الليل والغابة والخوف.

التقيتُ بيلماز التركماني وعمر الباكستاني في إحدى بيوت المهرّبين التي يستخدمونها كمحطّات للانتظار والتخطيط..كان بيتا قذراً في شمال إيران. كانوا يجمعون فيه القادمين من الدول المجاورة. انتظرنا حتّى يسلّمونا إلى المهرّب التركي الذي سيعبر بنا الحدود الجبلية. كنّا ننام في الغرفة نفسها مع شابّ كوردي ضخم الجثّة، اسمه سامان. كان هناك شابّان إيرانيان يحرسان البيت الذي نختبئ فيه، ويقدّمان لنا الطعام. الشّابّان كانا يدخّنان الحشيش بإفراط، ويصلّيان، ويأخذان كل يوم يلماز إلى غرفة أخرى في البيت. ثمّ يعود يلماز فرحاً، وقد أعطوه ملابس جديدة، وطعاماً إضافياً، وسجائر حشيش. أقسم سامان أن الإيرانيَّيْن ينيكان يلماز، وأقسم أنه سيذبح هذا المنيوك الشاذّ في أقرب فرصة. أنا وعمر كنّا نحاول أن نُهدِّئ سامان، قلنا له إن أيّ مشكلة تحدث الآن ستتسبّب في مقتلنا، أو تلقي الشرطة القبض علينا. حاول عمر إقناع الشّابّ الكوردي بأن يلماز ليس مِثلِيّاً. لم يكن مسموحاً لنا من مغادرة الغرفة سوى إلى الحمّام المجاور في باحة البيت. ذات مساء تسلّلت من الباحة إلى نافذة الغرفة التي كان المهرّبان يقيمان فيها. كان يلماز عارياً تماماً، وكان أحدهم بينكه من طيزه، والآخر يضع زبّه في فمه.

لم يتوقّف المطر إلى بعد هطول الظلام. تلاشت الغيوم، وبدت السماء صافية. رغم المخاطرة أشعلْنا أنا وعمر ناراً لنتدفّأ. كانت بين الحين والآخر تعبر السماء طائرة مَدَنية. خمّنّا أن الطائرات قادمة من أوربا وذاهبة للسياحة والتجارة في آسيا. كنّا نحسد ركّاب الطائرة على نعمة الطيران عبر السماء. قال عمر هؤلاء يعيشون حياتهم كبشر، أما نحن، فمجرّد حيوانات تزحف عبر هذه الجبال. قلتُ له ماذا لو سقطتْ إحدى الطائرات الآن قريباً منّا في هذه الجبال الوعرة؟ سيكون ذلك رائعاً، ردّ عمر، وأخذتْ مخيّلته

تنشط! أوكي، نذهب إلى حيث حطام الطائرة، ونفتّش هناك عن النقود أو الذهب أو أي شيء ثمين آخر. إن حصلنا على شيء ثمين، وبعد الوصول إلى تركيا، نتمكّن من شراء فيزا مزوّرة والسفر بالطائرة إلى أوربا، مثل الأوغاد الذين تفحّموا في حطام هذه الطائرة التي تحترق! ((علينا أن نسرع قبل أن يعثر حرّاس الحدود على الطائرة)) قلتُ لعمر. رحنا نفتّش في الحقائب والجثث عن النقود والذهب والمجوهرات. ((انظر!)) صاح عمر. كان هناك امرأة قُذفتْ مع مقعد الطائرة إلى مسافة، وفي حضنها طفل يبكي. إصابة المرأة كانت بالغة. اقتربْنا منها، فقالت بالإنكليزية إنها ألمانية، وطلبتْ منّا أن نأخذ طفلها، ونعيده للبيت. قالت إنها من فرانكفورت. أرادت أن تتذكّر رَقْم هاتف شخص ما، لكنها شهقتْ وماتتْ. ما إن حملنا الطفل للابتعاد عن الحطام حتّى رأينا رجلا في الخمسين من العمر. ناجٍ آخر. كان الدم يسيل من رأسه، وكان يعرج بسبب جرح في ساقه. إنه رجل فرنسي حقير. لم يكن يتكلّم الإنكليزية. لقد أرهقنا بعناده وعدم فهمه لوضعنا وتعاليه الأوربي المقرّز. أوّل الأمر حملتُ أنا الطفل الألماني، واهتمّ عمر بمساعدة الفرنسي على المشي. لم نقطع مسافة كبيرة في المشي بسبب حمولتنا الألمانية والفرنسية. وما إن بزغ النهار حتّى راح الفرنسي ينادي بصوت مرتفع لطلب المساعدة. طرحه عمر أرضاً، وكمّم فمه. حاولنا أن نُفهمه أننا نعبر الحدود بطريقة غير رسمية، وإن أمسك بنا الجيش الإيراني لن تكون حياتنا سهلة في سجون إيران. توقّف الفرنسي عن الصراخ، وعاودنا المشي. ثمّ لمحنا في البعيد راعياً مع أغنامه، فراح الفرنسي يصرخ بأعلى صوته من جديد. قرّر وحيد دفعه من فوق الصخرة. شُجّ رأس الفرنسي، ومات.

دخل وحيد في كيس النوم ((ما الذي سيحصل بعد ذلك؟)) تأكّدتُ

أنا من إخماد الجمرات، دخلتُ في كيس النوم، وقلتُ لعمر ((نصل إلى ألمانيا مع الطفل، ونصبح لاجئين أبطالاً ومشاهير)). (بعد سَنَتَيْن، يكتشف المحقّقون مقتل الفرنسي، وندخل السجن، ونتحوّل إلى لاجئين مجرمين مشاهير))، ينهي وحيد القصّة التي نتخيّلها، ويغمض عينَيْه. أراقب أنا النجوم في السماء، فتمرّ طائرة أخرى.

قـــادتْ ســـارة السّـــيّارة أكثـــر مـــن ســـاعة. تتّجهـــون إلى مدينـــة روفانيمـــي في الشـــمال.

لزمتْ سارة الصمتَ طوال الطريق، وغرقتْ في نفسها. لم تكن تطلب سوى أن أفتح لها قنّينة الماء، أو أن أناولها علكة. لم تكن سارة تتحدّث كثيراً عن حياتها. لا شيء مثير في حياتي، كانت تقول وهي تبتسم بخجل. وُلدت وحيدة من أب محامٍ، وأمّ محاسبة في مدينة حدودية صغيرة كئيبة. في الإعدادية، لعبتُ رياضة البيسبول، وحصلتُ على الميداليات. بعد الإعدادية، ذهبتُ إلى هلسنكي لدراسة الفنّ. حدّثتْني عن بعض علاقاتها العاطفية وأعمالها الفنّيّة الأولى. لا تجارب حقيقية، ولا مغامرات تستحقّ أن ترويها لي. تظنّ أنها عاشت حياة عادية خاملة، وربّما هذا ما يجعل من فنّها بسيطاً، لا عمق ولا حرارة فيه. لم أوافقها الرأي. قلتُ بنبرة غير واثقة ((لا أعرف.. أعتقد أنه لا توجد هناك حياة مثيرة، وأخرى خاملة، بالنسبة لي كل حياة هي ثمينة، فقط عليكِ أن تعملي وتبحثي)).

اقترحـــتَ أنـــتَ أن تقضـــوا ليليـــة في مدينـــة روفانيمي. اســـتأجرتُم غرفـــة في موتيل.

شعرنا بالراحة والاسترخاء بعد الاستحمام. جسدها النظيف والمسترخي في السرير بدا مثيراً وإنسانياً جدّاً. لحستُ بَظَرَها برقّة، ثمّ أدخلتُ لساني

في طيزها. كانت تُطلق ضحكات طفولية وهي تُبعد رأسي بيَدَيْها حين يمسّ لساني زرف طيزها. سألتُها عن أكثر الأماكن إثارة، مارستْ الجنس فيها من قبل. حاولتْ أن تتذكّر، ثمّ أضافتْ، لا أعتقد أن هناك شيئاً مثيراً أو غريباً. ربمّا في التواليت! قالت وهي تضحك ساخرة من الأمر. ثمّ أخبرتْني أنها مارست الجنس بإفراط وعشوائية في مرحلة من حياتها، لكنها لم تعر اهتماماً لأمكنة الجنس. قلتُ إن الأماكن تُثيرني. تخيّلي في محطّة فضائية، أو في قعر المحيط. حدّثتُها عن ممارستي الجنس فوق غصن شجرة، ولم أذكر لها أن ماريا هي مَن كانت على الغصن. ثمّ حدّثتُها عن صديقتي ديانا البلغارية. كنّا نعمل معاً في مطعم شاورما وسط صوفيا، اسمه علي بابا. لم يكن لي سَكَنٌ حينها، لهذا كنتُ أنام ليلاً في مطبخ المطعم. بعد أن أغلق الباب، وينصرف بقية العمال، كانت ديانا تعود في بعض الأحيان إلى المطعم بعد الثانية ليلاً. كانت تسكن مع أمّها قريباً من المطعم. كنّا نجلس في المطبخ، نعمل سندويشات، ونشرب الكولا، وندخّن، ثمّ نمارس الجنس. كانت تجلس فوق شوال الحمّص الذي نعمل منه الفلافل، وأنيكها، وتنيكني مرّة تلو الأخرى. كلانا كانا ناقماً من صاحب المطعم السوري البخيل والحقير، ومن بعض الزبائن التافهين والمزعجين. في إحدى ليالي المطبخ تلك، فتحتْ ديانا كيس الحمّص، وقالت لي اقذفْ داخله. مصّتْ زبيّ، وفي الذروة خضّتْه بيدها، ورشّت الحمّص بالمني، وهي تكاد أن تموتَ من الضحك.

قرصتْ سارة بطنكَ وهي تنظر لكَ متقزّزة ((فك يو اسف هول))

ألححتُ على سارة أن تخبرني شيئاً عن ذكرياتها. كرّرتْ كلامها عن أن كل

شيء عادي كان في حياتها، ثمّ تذكّرتْ ((أوكي، ذات مرّة مارستُ الجنس مع مصوّر فوتغرافي في الغرفة المظلمة))، أردتُ معرفة التفاصيل وإحساس الأوركازم في الغرفة المظلمة. لم تردّ سارة عن سؤالي، واكتفتْ بالقول ((خره، أنا غبية، كنتُ أعرف أنه متزوّج)) ثمّ سألتْ: قطعتَ أصابعكَ في المطعم في صوفيا؟

في إحدى ليالي الجنس والحمّص، غادرتْ ديانا مطعم علي بابا في الساعة الرابعة صباحاً. لم يبقَ سوى ساعات قليلة لبدء العمل من جديد. لم أنمْ سوى ساعة يومها. في السادسة صباحاً، بدأتْ مجزرة تقطيع البطاطا والطماطة والخسّ والخيار والمخلّل، وشقّ صمّون السندويشات، وطحن الحمّص، وتقطيع الدجاج، وتنقيع لحمه بالخلّ والليمون، وعجن الحمّص، وتحضير لحم الهمبركر، وإعداد المايونيز، وخلط اللبن، وإخراج ورق السندويشات، وتبديل الزيت، وحكّ أطراف المغسلة، ونبش الأوساخ في قعرها، وخلط الماء في علب الكجب الكبيرة، ووضع قناني الكوكاكولا والمشروبات الأخرى في البرّاد. هذا كله عليه أن يتمّ بنصف ساعة قبل وصول الزبائن. ثمّ تنظيف المكان، وتحضير كل شيء من جديد، التقطيع والتنظيف والتنقيع، لأن كل شيء سينفد مع هجوم الجياع مرّة ثانية وقت الظهيرة.

تصل ديانا إلى العمل في السابعة والنصف، هي تعمل كاشيرة. صوت ديانا يصلني من الصالة وهي تجامل بعض الزبائن. أخرجتُ طبقة البيض، ووضعتُ قربها قنّينة الزيت وعلبة الخردل وكأسَيْن من الماء وملعقة سكّر كبيرة، وملعقة ملح صغيرة . مستلزمات تحضير (المايونيز). حين يرفّ كتف أمّي الأيسر، كانت تفتح دولاب الملابس القديم، وتُخرج قرآناً صغيراً ملفوفاً بقطعة قماش خضراء. تقرأ ما تحفظه من سورة البقرة، وقد تكون الصفحة

المفتوحة أمامها الآن سورة النحل. فهي أمّيّة مثل نبيّنا كاتب القرآن. إن رفّت عين أمّي أو كتفها، فهذا كان يعني إشارة لخطر أو شرّ قادم.

قبل أن يتدفّق الدم. دخلتْ ديانا إلى المطبخ، توصي على سلطتها التي تحبّ. عضّتْ أذني، فضربتُ مؤخّرتها بملعقة خشبية. (أحبّكَ!) قالتْها بطريقة المرأة الخائنة حين تكون مُرغَمة على إظهار مشاعرها لزوجها. ربّما كان السبب جوعها. أعددتُ لها طبقاً سريعاً من شرائح اللحم مع سلطة مميّزة .

ذبابة متوسّطة الحجم تحطّ على لحم الدجاج المنقوع بالخلّ.

تركتُ الذبابة تشرب ربّما يقتلها الخلّ. رفّ كتفي الأيسر. أدرتُ المفتاح الكهربائي لماكنة صنع الميانويز، بعد أن رميتُ في القدر المخصّص البيضَ والخردلَ والماءَ والسّكّرَ والملحَ . نسيتُ أن أغلق بإحكام مفتاحاً خاصّاً بماكنة المايومينز. وكانت سكاكين حادّة تدور في القدر لخلط البيض بالموادّ الأخرى بسرعة كهربائية جنونية. يدي تتّكئ على القدر لسدّ ثقب في مقدمة القدر خشية أن يتطاير منه الخليط.

هوتْ يدكَ للحظة، ولا مست السكاكين التي تدور بسرعة كبيرة.

شعرتُ بلسعة نار خفيفة حين سقط غطاء القدر على الأرض، وساحت الخلطة. تدفّق الدم، واختفى إصبعان، وبقي إصبع ثالث معلّقاً بيدي بخيط من اللحم. لم أصدِّق، أو أني تعمّدتُ للحظات أن لا أُصدِّق. وحين صدَّقتُ، كان عليّ أن أصيح أو أتألم أو أن أقوم بأي ردّ فعل. مرّتْ دقيقة، قبل أن أصيح بمبالغة مخزية وغير معقولة، إذ لم يكنْ هناك أيّ ألم للوهلة

الأولى سوى الدم الذي أصبح بساطاً من الدم ذا نقوش من خلطة المايونيز. أطلقتُ صرخة قاسية، وكأنني أطلق كوابيس حياتي كلها دفعة واحدة. دخلتْ ديانا مسرعة إلى داخل المطبخ. أطلقتْ هي الأخرى صيحة جيّدة وعالية. أكيد أنها كانت تصرخ لإفزاعي!

تعتذر سارة: أنا غبية! أنتَ تتحدّث بمرح عن الجنس، وأنا أذكّركَ بالألم! تُقبّلها من بطنها، وتقول ساخراً: لا عليكِ، أيّتها الهمسة، الألم هو ظلّي! ترتدي ملابسكَ، وتخرج للتدخين في الشرفة. تعود إلى السرير، وتحضن عري سارة، وتنظر في عينها. لا تريدها أن تظنّ أن الذكريات قد أزعجتكَ، فتواصل عرض المشاهد الجنسية الساخرة.

حكيتلها سالفة مغامرتي الجنسية في كوردستان العراق التي كدتُ أن أُقتل بسببها. بعد هروبي من بغداد، لجأتُ إلى كوردستان العراق. كنتُ قد تعرّفتُ على فتاة تعمل في مكتبة عامّة. كنتُ زائراً يومياً للمكتبة. كنتُ أعيش أيامها ظروفاً خرائية صعبة. أسكن في غرفة، مساحتها متران في متر، في سطح أحد الفنادق الشعبية. في الشتاء، تصبح غرفتي ثلاجة، وفي الصيف فرن طبّاخ. بالكاد كنتُ أدبّر فلوس السجائر والطعام وإيجار الغرفة من عملي في تعليم اللغة العربية في مركز ثقافي. زارني مرّة صديق شاعر كوردي في غرفتي القبر في سطح الفندق. تأخّر الوقت، ونام عندي. لم تكن لديّ سوى بطّانية واحدة. سكر ونام صاحبي. غطّيتُهُ ببطّانيّتي، وتغطّيتُ أنا بأوراق رواية، كنتُ أكتبها حينها، وكان عنوانها (أسطورة الفنّان كأحمق). صديقتي المكتبية الشّابّة، واسمها تافكة، كانت فاتنة ومثقّفة ومرحة. تطوّرت علاقتي معها بسرعة. سكنتُ المكتبة الصغيرة من أجل حبّها. خرجنا ذات يوم في رحلة إلى الجبال مع صديقَيْن آخرَيْن. كاميران وخطيبته شيرين.

كانت الطقس ربيعياً مذهلاً. افترشنا الأرض تحت شجرة. شربنا وأكلنا وضحكنا. كنّا سعداء جميعاً. كاميران كان يدرس المسرح وشيرين تدرس النحت. ذهب كاميران وصديقته للمشي حول الجبل. وبقينا أنا وتافكة نتبادل القبل والكلام الحلو. ما إن خلعتُ بنطالي حتّى أطلق أحدُهم ثلاثَ رصاصات. كانوا حرّاس حدود من البيشمركة الكوردية. الظاهر كانوا في أعلى الجبل في دورية. راقبونا من خلال المنظار قبل أن يُطلقوا الرصاصات في الهواء. أحد أفراد البيشمركة حين عرف أنني عربي من بغداد، أقسم أنه ندم لأنه أطلق رصاصاته في الهواء، وكان رأسي هو المكان المناسب. كان البيشمركة يغلي غضباً (صديقتي كوردية، ونحن حتّى غير متزوّجَيْن، وعربي يقبّل امرأة كوردية، ويريد ينكحها في حضن طبيعة كوردستان)، تلطّخَ شرف القضية القومية! تداركتْ تافكة الموقف بذكاء وبرود أعصاب. قالت لهم بالكوردية إننا نعمل مع زوجة رئيس الحزب الحاكم في السليمانية والذي سيصبح لاحقاً أوّل رئيس كوردي للعراق، وإننا مخطوبان، وسنتزوّج قريباً. وما إن تأكّدوا من بطاقة عملي في المركز الثقافي التابع لزوجة رئيس الحزب، حتّى تغيّرت ملامحهم الجادّة. قال أحدُهم: أوكي! بس هذا الي تسوّنه هنا عيب.. يالله.. مع السلامة!

آخر يوم من الرحلة مشيت مع سارة بمحاذاة النهر عشرة كيلومترات، وخيّمتم في منطقة اناري.

وحيداً في الخيمة أمسح دموعي. ذهبتْ سارة للسباحة في البحيرة. أقرأ في رسائل صديق طفولتي حبيب في الفيس وأنا أتحسّر على خساراتنا وأوجاعنا. تدخل سارة إلى الخيمة وهي تلفّ جسدها بمنشفة سوداء ماركة ماري ميكو. تتمدّد إلى جواري. شعرها مبلّل، تفتح المنشفة، فتفوح من عُريها رائحة البحيرة. أطبع قبلات خفيفة فوق نهدَيْها ((أنا جائعة))،

تقول سارة. أسجد قرب جسدها، وأطبع ثلاث قبلات سريعة. وحدة على شَفَتَيْها، وثانية فوق سرّتها، وثالثة في شعر عانتها. أوكي، حبيبي، سأذهب وأعدّ الطعام.

أجمع الأغصان المتيبّسة، وأشعل ناراً. أطبخ الرّزّ ومَرَق الباميا على الطريقة العراقية.

جاءت سارة، وجلستْ قربي. قبّلتْ عيني، فأحسستُ بسريان مشاعر الحبّ في كل خلية من جسدي. كادت الدموع تهرب من عيني، لولا أننا تفاجأنا بسماع صوت طائر البومة. ابتسمتْ سارة، وقبّلتْني.

سارة تعرف بأنكَ تحلم بكتابة رواية عن البومة.

الذاكرة! هي مثل قالب الثلج: لا (تموع) مرّة واحدة، بل تستمرّ هذه العملية طويلاً لدرجة أنكَ لا تشعر بها إلا في النهاية حين يختفي القالب تاركاً بركة ماء! تماماً مثل أفواج الأسماك الصغيرة الأمازونية التي تكلّم عنها ألبير كامي في (السقطة)....
عزيزي حسن. إنه عيد ميلادكَ. أجمل التهاني على كل شيء قدّمتَهُ كهبات وهدايا للآخرين، لكن حصّة الأسد من تهانيّ إليكَ هي على متانة الكتفَيْن اللتَيْن تحملان طيلة هذه العقود الثلاثة مثل هذا الصليب... تذكّرتُ هنا فلماً تشيكوسلوفاكياً رائعاً، اسمه (شجاعة في كل يوم) يتكلّم عن تلك الشجاعة الصامتة التي لا ترى بكل وضوح حين يواجه الإنسان دراما هذا الوجود (العادي) الذي ليس فيه أيّ شيء استثنائي أو خارق، لكننا نرى بوضوح كاف شبح الصليب في خلفيّته... نصوصكَ أعجبتْني كثيراً. لا أعرف هل هي جاهزة؟ أم أنكَ تكتبها بصورة منتظمة؟ أواصل ترجمة سيوران ..

محبّتي

***

عزيزي حسن. شلونك؟ أكيد أنكَ غارق هنا وهناك - في العمل والكتابة والتواصلات مع الآخرين ...

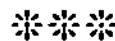
عندي لا أزمات كبيرة حالياً. الصغيرة اعتدتُ عليها، لكنْ،

ليس دائماً، والظاهر أنها اعتادتْ عليّ أيضاً! بالضبط أقدر في ظلّها وحضورها الناعم أحياناً، أن أكتب وأمارس حياة (طبيعية).

***

عزيزي حسن. أنا أعرف كيف هي صعوبة التوفيق بين الخَلْق، الكتابة مثلاً، وبين متطلّبات العيش. وما يزيد الطين بلة كما يقال، هو تلك الصراعات الداخلية التي قد تنتصر فيها حقيقة أن (كل شيء باطل وقبض الريح). بالطبع يكون فوزاً عظيماً إذا كانت النتيجة هناك هي التعادل... بالنسبة لمعركتكَ هي ليست بالمضحكة، بل الدرامية التي يؤكّد الكثير من التجارب على أنها قد تحاذي التراجيدي. ليس لديّ شيء غير تجربتي، فكما أخبرتُكَ مرّة بأني أكتب كما لو أني ماكينة أوتوماتيكية، ثمّ أضع الحساب لما كتبتُهُ محاكياً هنا عدّة مهن: الحدادة والصياغة، بل فنون التجميل. في واقع الحال أنا أحسدكَ على هذا المزيج من الواقع، سواء الرابض خلف الباب والشّبّاك أو بين الجدران، ومن تلك السوريالية السوداء التي هي تلك الثمرة المعلّقة عالياً في شجرة الوجود! وقد تتّفق معي بأن الكوميدي قائم في الظواهر كلها، والأمر كله يخصّ نسبتَهُ فيها. أنا معكَ في أني لا أعرف التوقّف عن الكتابة، لكنْ، هناك تلك الحقيقة المروّعة: خيانات الجسد. و(الإيجابي) هنا أنه رغم كل شيء ثمّة إصرار على إنهاء الشوط بالتي هي أحسن. ولكم أرغب في أن تكون أنتَ تلك الماكنة التي تقذف في الوقت ذاته الهراء والحقائق، علماً بأن الهراء هو حقيقة أيضاً، لكنْ، بغلاف آخر. إذنْ، انسَ الحروف، وليتحوّل كل شيء فيكَ وما حولكَ إلى قصّة كابوسية، كما تقول. وليأتِ بعدها دور الحدادة والماكياج من لغوي وغيره. كلنا مُحبَطُون، لكنّ (الشطارة) في تحويل الإحباط إلى فنّ. رغم كل شيء عدتُ إلى الكتابة كعادة

يوميـة رغـم أن الزخـم لا يُحسَـد عليـه. أنـام الآن أطـول، وأفكّـر بالمـاضي أكثـر مـن الحـاضر رغـم نصيحـة سـيوران بـترك مثـل هـذا العَبَـث. أشـعر بازديـاد القـرب مـن بيكيـت، إلى درجـة أنـي أشـعر بلفـح أنفاسـه. كان إنسـاناً رائعـاً جمع هـذا النقيـض وذاك، فرغـم حصاراتـه الوجوديـة كان شـديد الالتـزام بقضايـا الآخـر، بـل الآخريـن، وخجلـه مـن أنـه ليـس متـشرّداً حقيقيـاً، كان يعمل كالسّـكّين الحـادة في أحاسيسـه. كاتـب عظيم حقـاً. ولوكنـتُ أملك سـلطة مـا، لفتحـتُ دورة إجباريـة لحملـة الأقـلام العراقيـة غـير المَبريّـة جيّـداً، كـي يحفظـوا عـن ظهـر قلـب كل جواهـر الإيرلندي. في قصّتـي الجديـدة محـاولات فاشـلة، يقـوم بهـا رجـل متقـدّم في السّـنّ، كي يكتـب وصيته الأخـيرة، ويبعثهـا إلى كاتب العـدل، وهكذا تتحـوّل الوصيـة إلى سلسـلة اعترافـات مـن حيـاة، امتزجـت فيهـا أسـاطيرمن الواقـع وشيء آخر قريـب من سـورياليتك السـوداء تلك. في هـذه القصّـة كل شيء يغـري بصيرورتهـا روايـة. وربّما سـيحدث هـذا (المسـخ). محبّتـي الدائمـة.



لعبة الابن، لعبة الأب

شـــهر يوليـــو وريـــح وأمطـــار طـــوال أســـبوع. كل مَـــن تلتقيـــه صدفـــة أو بموعـــد ســـيتذمّر معـــكَ مـــن الطقـــس، وهـــو يخـــرب بيتنا الصيفـــي الـــذي حلمنـــا به طـــوال شـــهور مـــن الـــبرد والعتمـــة. منهم مَـــن يشـــكو ســـاخراً، ومنهـــم وكأنه يصـــف لكَ أحـــوال طقـــس كآبته السـيّئة بـدل أن يتكلّـم عـن الغيـوم والمطـر. عـبرتُ الجسر، وكانت الريـح شـديدة. طـارتْ قبّعتي. ركضـتُ خلفهـا، لكن الريـح أبعدتْها مـرّة أخـرى بنفخـة قويـة. صـارت القبّعـة عـلى مسـافة أبعـد، واسـتقرّت قـرب حاويـة نفايـات. هرولـتُ خلـف القبّعـة والريـح تنفـخ، وصرتُ ممثّـلاً في فيلـم سـاخر كلاسـيكي بالأسـود والأبيض (الرجـل الـذي يطـارد قبّعتـه). أخـيرا أمسـكتُ بالقبّعة، ودخلـتُ إلى أقـرب مطعـم. كنـتُ جائعاً كحـوت. طلبتُ حسـائي المفضّل، سـوب السـمك عـلى الطريقـة الفنلنديـة. لـم أشـبع. الحسـاء كان قليـلاً وغاليـاً. دفعـتُ الحسـاب، ورحتُ إلى مقهـى 'الإيقاع. أغلقـتُ مظلّتي، وطلبـتُ قهـوة بالحليـب. كان المطـر يهطـل بغـزارة. فجـأة أخـذتُ السـماء اسـتراحة، قبـل أن تعـاود النـزول مـن جديـد. هـذه المـرّة أنزلـتِ السـماء مطـراً ناعمـاً خفيفـاً. قضيـتُ أكثـر من ٣ سـنوات وأنـا زبون شـبه دائـم لمقهـى الإيقاع الـذي يقـع في منطقـة الكاليو. أقـرأ وأكتـب وأشرب القهـوة تلـو الأخـرى. سـيصل ضيفـي مصمّم الألعـاب بعـد ١٠ دقائـق. دخـل المهنـدسُ إلى المقهـى. أشـاح بوجهه حـين لمحنـي وهـو يتفحّـص الزبائـن. طلـب بـيرة، وذهـب ليجلس وحـده يقـرأ في الجريـدة. المهنـدس مـن نـوع الرجـال الفنلنديـين

اللطفـاء والحذريـن والحزينـين. والمهنـدس مهـذّب وشـخص ذكي. كان مـن قلّـة مـن زبائـن المقهـى الدائمـين أدردش معهم بـين الحين والآخـر. كان يحـب أن يتحـدّث عـن السياسـة معـي وعـن الهجـرة. ومـرّات عـن عملـه كمهنـدس ومشـاريعهم في مـصر وروسـيا. كنـتُ أحـاول أن أشرح لـه أمـور بلـدان الهجـرة ومشـاكلها، وهـو كان يتحـدّث عـن النظـام الفنلنـدي ومشـاكله. ذات يـوم هاجمنـي بطريقـة مفاجئـة بعدائيـة وعنصريـة. ظننتُ أنـه كان سـكراناً. لم يكـن يبـدو أنـه شرب كثيراً. قـال لي مـن دون مناسـبة: أنا سـأُصوِّت في الانتخابـات القادمـة إلى حـزب الفنلنديـين الحقيقيـين! وهو حزب يمينـي يعـادي المهاجريـن والاتّحـاد الأوربـي. لـم أفهـم مـا الـذي حـلّ بالمهنـدس، مـن أيـن جـاء هـذا الغضـب كلـه دفعـة واحـدة؟! ومنـذ ذاك اليـوم، أخـذ يتجاهـل وجـودي في مقهـى الإيقـاع. عـاد المهنـدس إلى إيقاعـه، قـراءة الجريـدة وشرب البـيرة وتشـجيع فريق الفنلنديـين الحقيقيـين. وصـل ضيفـي مصمّـم الألعـاب الشـاب، فقمـتُ لمصافحتـه. إنـه شـابّ وسـيم وهـادئ.

في الشهر القادم يكون عمركَ ٢٢ سنة.

صحيح.

معنـى الحيـاة الـذي أعرفـه هو أنـتَ تلعـب وتُطـوِّر اللعبـة، هذا مـا قلتـه في لقـاء تلفزيوني.

أوكي.

هل أنتَ غاضب من أبيكَ؟

لا أهتمّ، هو فهم اللعبة، وعاشها بطريقته.

صمَّمـتَ لعبة كمبيوتـر ناجحـة، وحققتْ لـكَ الشـهرة والأموال. ما هـي فكـرة لعبـة السّـيّد زبالـة الجديدة التـي تعمـل عليها؟

أنا لا أصمّم ألعاباً تبحث عن جمهور كبير وفلوس كثيرة، فهذه ليست لعبتي! أنا أصمّم ألعاباً ساخرة مع الأصدقاء من أجل التسلية، وفي أوقات الفراغ. فأنا مشغول بتطوير قدرتي على اللعب. أنا لاعب ماهر في ألعاب الفيديو، وأشارك في مسابقات دولية، ويأخذ جلّ وقتي متابعة عالم ألعاب الفيديو. ملخّص فكرة اللعبة الجديدة، التي سننتهي منها قريباً هي كالآتي: أمامكَ خارطة العالم. تختار الموقع الذي تريد أن تنطلق منه في رحلتكَ. مثلاً تقرّر الانطلاق من لندن إلى قرية في بنغلادش، أو من مدينة صغيرة في نيجيريا إلى شمال النرويج. رحلتكَ ستكون بطريقة غير شرعية مثلما يعبر المهاجرون واللاجئون الحدود. مشياً على الأقدام، عبر البحر، في شاحنات التهريب. ستكون أمامكَ عوائق وتحدّيات كثيرة. أسماك القرش في البحر، حرّاس الحدود، عواصف، الحشرات السّامّة في الغابات، الصحاري، جدران، أسلاك شائكة.. إلخ. درسنا بيئات أغلب بلدان العالم. ستكون العوائق ليست أقرب إلى البيئة الواقعية لكل بلد تمرّ فيه فحسب، بل أيضاً لبيئة ذاكرة الشعوب الفنتازية والمتخيّلة. ستقابل الخرافة والواقع في متاهة زمنية على مكان اسمه الأرض. السّيّد زبالة، وهو شبيه بشخصية ترامب هو مَن يقود ويُشرف على العوائق التي تعترض طريقكَ. السّيّد زبالة يحاصركَ في كل الأماكن والأزمان: يركب أسماك القرش، ويُوجِّهها إلى قوارب المهاجرين، يدفع الأموال لعمّال من أجل بناء جدار شاهق، يقود قطيعاً من الذئاب في غابة، يُوجِّه حرّاس الحدود، يستدعي وحوش كراهية القرون الماضية، أو يُحرّض جماعة عنصرية تعترض طريقكَ. هناك طبعاً مَنْ يحاول مساعدتكَ طوال الرحلة، من طيور وبشر وحيوانات. تسجيل

النقاط يتمّ عبر اجتيازكَ الحدود والتخلّص من العوائق. الوصول إلى النقطة المحدّدة لا يعني نهاية المطاف. هنا تصل إلى الخطوة الأخيرة والمهمّة، وهي القدرة على الإقناع. سيكون عليكَ أن تكتب وتتحدّث مع حيوانات وبشر المكان الذي تصل إليه، وتُقنعهم بسبب مجيئكَ إلى بيئتهم. إن اقتنعوا تبقى، عكس ذلك سيرحّلونكَ إلى النقطة التي أتيتَ منها، وعليكَ أن تحاول مرّة أخرى إلى المكان نفسه، أو إلى مكان آخر.

أظنّ أن أباكَ كان له تأثير على أفكار ألعاب الفيديو التي تُصمِّمها.

وُلد أبي في إحدى القرى التي كانت تنتشر على ضفّتَي النهر التاريخي العظيم، حيث الأرض الخصبة والشمس الخلاقة. لكن القرى كانت تعاني من اختلافات دينية وفكرية وقبلية. كانوا يختلفون حول نصوص كتابهم المقدّس، وعلى طريقة إدارة مياه النهر، وعلى توزيع الأراضي فيما بينهم. كانوا يختلفون على الأشياء المصيرية، وعلى الأشياء الحياتية البسيطة. حتّى طريقة تناول الطعام وارتداء الملابس وممارسة الجنس كانوا يختلفون فيها. طوال عقود طويلة ونار الحرب تحرق الأخضر واليابس في قرى النهر العظيم. ثارات وقتل وذبح ونهب. حتّى حكماء القرى تعبوا ويئسوا من الاختلافات، فتحوّلوا إلى فاسدين، يتاجرون ببضاعة (الاختلاف). حاول أبي القيام بكل ما بوسعه من خلال إصدار جريدة، يوزّعها على القرى، تتبنّى ثقافة السلام والتركيز على المفاهيم والأفكار والقِيَم العديدة المشتركة بين أهالي القرى. تعرّض أبي لمحاولة اغتيال. طعنه متطرّف في بطنه. نجا أبي من الموت، وقرّر الرحيل. قام ببحث عن المكان الذي ينوي الهجرة إليه، فقرّر الرحيل إلى فنلندا بعد أن قرأ عن قرية الواحد. لم تكن أمّي مقتنعة بفكرة الهجرة. كان عمري حينها سَنَتَيْن.

ممكن أن نتحدّث عن العملية الإبداعية في تصميم ألعاب الفيديو؟

لا يهمّني الحديث عن هذا الأمر! أنتَ قلتَ إنكَ تريد أن تقابلني من أجل حكاية أبي، وأنا هنا من أجل أن أقول ما أعرفه. وصلنا إلى فنلندا، بعد رحلة مرّة شاقة وقاسية كما كانت تصفها أمّي. بقينا في هلسنكي حتّى حصولنا على أوراق الإقامة الدائمة. ثمّ قرّر أبي أن نذهب للعيش في شمال فنلندا، حيث توجد قرية الواحد، فهي كانت هدفه منذ البداية. كانت قرية حديثة ومتطوّرة تِقْنِيّاً مقارنة بالقرية التي عاش فيها أبي. كانت القرية تخضع لقانون (الواحد) بعد أن ناضل أهالي القرية بصبر وتفانٍ من أجل أن يرسموا طريقتهم الخاصّة في الحياة. كان هناك مدرسة واحدة، وطبيب واحد، ومطعم، ورجل دِين واحد، وأسواق واحدة، وبار وشرطي واحد، وحلاق واحد. لم يكن مسموحاً أن تفتح مثلاً محلّ حلاقة ثان أو بار. كان هناك شارع رئيس واحد في القرية، وباص واحد يأتي ويذهب إليها. حتّى فصول السنة لم تكن واضحة، فقد كان هناك فصل شتاء واحد طويل وقاسٍ، يغطّي القرية بالثلوج. أهالي القرية كانوا ينتخبون حزباً واحداً في الانتخابات جميعها. كان هناك متطرّفون في القرية، حاولوا فرض لون ملابس واحد على الأهالي. لكن غالبية أهالي القرية لم يتّفقوا مع آراء المتطرّفين، ووجدوها فكرة غير مُجدية. فأغلبية أهالي القرية كانوا يرتدون السواد طوال الوقت، ثمّ ما الداعي إلى تحويل اللون إلى قانون! كان هناك شيأان لا يخضعان لنظام وقانون الواحد في القرية، المقبرة وحُرّيّة التعبير. لم تكن فكرة إنسانية مقبولة أن يكون هناك قبر جماعي واحد. وكان الأهالي يُعبّرون عن آرائهم بكل حُرّيّة عن الدِّين والسياسة والحُرّيّة الشخصية وحتّى نظام الواحد كانوا يناقشونه، وينتقدونه، لكن الثابت والمعبود كان النظام الذي لا يتغيّر. خضع أبي في عامه الأوّل لعملية إدماجه في فكرة (الواحد).

أغلب أهالي القرية كانوا متسامحين، لكن المتطرّفين منهم، خاصّة عندما يسكرون، كانوا يأخذون بالصراخ والتذمّر من لون بشرة أبي الذي لا يتماشى مع أخلاق وقِيَم فلسفة اللون الواحد. حاول أبي بكل السُّبُل الاندماج والخضوع، رغم عدم اقتناعه في بعض الأمور. نعمة السلام الواحد الذي يحتضن القرية كان بالنسبة لأبي هبة كبيرة. لم يكن يتذمّر من برد الشتاء، ولا من كآبة أهالي الواحد، ولا من غربته. المشكلة كانت في فرص العمل. أبي كان صحفياً، وفي القرية لا يوجد غير صحيفة واحدة، وصحفي واحد. كان أغلب أهالي القرية يعملون بجدّ. قرّر أبي أن تكون مهنته الكسل، فسيكون الكسول الوحيد في القرية. تذمّر الأهالي من كسله، لكنه لم يكترث. واصل حياة التسكّع والكسل. وعشنا من مساعدات نظام الواحد. كتب أبي قبل أن أبلغ الرابعة عشر بياناً عن حقّ من حقوق الإنسان الذي يجب أن يُضمن في مواثيق الأمم المتّحدة، ونشره في النت. بعدها هجرنا أبي وهجر قرية الواحد بعد أن خاض معركة شرسة مع أمّي التي كانت ترغب في العودة لقريتها الأمّ. كنتُ أظنّ أن أمّي ستعود إلى قريتها، وتنفّذ حلمها بعد رحيل أبي. لكنْ، أظنّ أنها خافت، فبقيتْ في قرية الواحد. تفرّغتْ لرعايتي ومحبّتي، ولم تتزوّج مرّة أخرى.

مع الأسف لم أطّلع حتّى الآن على البيان.

بعد انتشار البيان إلى حدّ ما في شبكة النت، اتّصل بأبي ناشطون وفنّانون من أماكن مختلفة من العالم. كان ملخّص البيان هو أن يُمنَح الإنسان حقّ العيش والحياة في أيّ قرية من قرى العالم من دون مساءلة. حقّ العيش في أيّ قرية في هذه الأرض من دون حدود وجوازات وأنظمة، ومن دون أيّ مساءلة سواء كانت أمنيّة أو ثقافية أو عِرْقِية. إنسان له حقّ

حُرّيّة العيش والتّنقّل في قرية صغيرة مجهرية في هذا الكون الشاسع، اسمها الأرض. واقترح تأسيس جماعة عالمية باسم (مهرّبون بلا حدود).

هجر والدكَ قرية الواحد، وأسّس مع ناشطين عالميين جماعة (مهرّبون بلا حدود)، سافروا إلى أكثر من بلد، درسوا الحدود، وساعدوا المهاجرين واللاجئين على اجتياز الحدود، طبعاً من دون مقابل ماديّ. آخر مجموعة عمل معها كانت نشطة في الحدود المكسيكية الأمريكية. التقيتُ هناك بصديقته، وسجّلتُ لقاء معها. لا أدري إن كنتَ تودّ سماعه.

أوكي.

- اسمي ماركيرتا إدواردو. عمري ٢٩ سنة. تعرّفتُ على نوري مصطفى في إحدى البارات. كان يحتفل مع أصدقائه جماعة المهرّبين بلا حدود. قدّمه لي صديقي خوسيه، وهو ناشط من إسبانيا. كنتُ على علاقة مفتوحة مع خوسيه طوال عام قبل أن أتعرّف على نوري مصطفى. كان رجلاً مهذّباً ولطيفاً، لكنه كان حزيناً أكثر من اللازم حين تعرّفتُ عليه. أخذتُ أواعده وأكتشفه. نوري قال لي أجمل وأعذب كلمات الحبّ. كان دافئاً ومُلهَماً. توطّد حبّنا، وأخذتُ أساعد جماعته في التهريب. قضينا أياماً حافلة بالمغامرات والإثارة والصخب. ذات مساء مارسنا الجنس فوق الكنبة، ثمّ جلسنا عاريَيْن نشرب النبيذ الأحمر. لا أذكر بالتحديد لمَ أخذنا الكلام إلى خوسيه. شعرتُ بانزعاج نوري. راح يتحدّث من دون مناسبة عن الخداع عند الإنسان والحيوان. قال إن الحيوانات تكذب وتغشّ أيضاً من أجل البقاء. ثمّ استرسل في حديثه عن أنواع السحالي في العالم. دُهشتُ من الخزين الهائل من المعلومات التي يملكها فيما يخصّ عالم

الحيوان والحشرات والطيور. تحدّث عن حياة بعض السحالي التي تقطع ذيلها، وتتركه يتلوّى خلفها، ممّا يشغل الحيوان المفترس، ويعطي فرصة للسحلة للهروب. ظننتُ أن غيرته من علاقتي السابقة من خوسيه قادتْهُ لإلقاء محاضرته المفصّلة عن الكذب والغشّ. قاطعتُ كلامه، وأخبرتُهُ أنني لم أعد أنام مع خوسيه منذ أن أخذنا نتواعد. لم يصغِ لي، وواصل كلامه. هناك نوع من أنواع النمل يُسمّى نمل النار. لهذا النمل لسعة قاتلة لبقية الحشرات التي تهاجمه. لاحظ العلماء أن بعض الزنابير كانت تدخل إلى عشّ النمل بسهولة، وتأكل اليرقات، وتخرج من دون أن يكتشفها نمل النار. تبيّن للعلماء أن الزنبور يطلق رائحة خاصّة تشبه الرائحة التي يطلقها النمل، فلا تستطيع النملات المدافعات عن العشّ تمييزه. فكّرتُ يومها أن الغيرة أسقطتْ نوري بالضربة القاضية، فراح يهذي عن عالم الحشرات. بعد يومَيْن من محاضرة الخداع والغشّ، لم يعد نوري يتّصل بي. رحتُ لزيارته في بيته، فاستقبلَني ببرود، وكان واضحاً أنه يريد التخلّص منّي. تركتُهُ لحاله، وحاولتُ لاحقاً أن أفهم ما يحدث له. صار انطوائياً، وأخذ يتهرّب من التزاماته مع جماعة المهرّبين بلا حدود، إلى أن انقطع عن الجماعة نهائياً. لم يعد من السهل العثور عليه. كان يختفي لعدّة أيّام، قبل أن يظهر من جديد في شقّته. مضتْ شهور وهو على هذا الحال، إلى أن تمكّنتُ أخيراً من مقابلته. زرتُهُ في شقّته في ساعة مبكّرة من الصباح. كانت عينه اليمنى متورّمة، ويبدو أنه تعرّض لِلَكْمَة قوية. كان محطّماً وكئيباً. قلتُ له إنه يحتاج إلى مساعدة. قال: تقصدين طبيباً نفسياً، تمام! أعتقد أنني أعاني ممّا يسمّى الهوس الاكتئابي. ربّما تعرفين أن هذا المرض هو عبارة عن تأرجح بين نقطتَيْن: الكآبة والابتهاج. مرّة في أعلى قمّة الابتهاج، ومرّة في أعلى قمّة الحزن. التأرجح بين نقطتَيْن وهميَّتَيْن هو ما أريده. لا أريد

مساعداً يُنزلني من مرجوحة ذهني. رحتُ أزوره في أوقات متفرّقة للاطمئنان عليه، وحزنتُ على انكساره وكآبته. راح نوري يغوص تدريجياً في إيقاع حياته الجديد. صارت شقّته كحاوية مكتظّة بالحاجيات والأشياء. يخرج كل يوم متسكّعاً بحثاً عن امرأة ينام معها. في أثناء رحلة البحث كان يلتقط كل ما يعثر عليه من الشارع والبارات والمقاهي وبيوت العاهرات. دمى، حجارة، علب صفيح فارغة، كرسي مكسور، أقلام، ملاعق، ألبسة نسائية داخلية (فهمتُ أنه كان يسرقها من العاهرات) مظلات. نظّارات شمسية، كؤوس، كُتُب قديمة، فرشة أسنان، وأشياء عديدة أخرى لا تُعدّ ولا تُحصى. لم أفهم هدفه من جَمْع هذه الأغراض كلها. سلوك نوري لفت انتباه طالب يدرس التاريخ، اسمه لويس. كان الطالب جاره. راح لويس يتقرّب إلى نوري، ويرافقه. صارا صديقَيْن مقرَّبَيْن. شرح نوري لصديقه لويس لعبة جمع الحاجيات. قال نوري (تعيش في المخيّلة حاجيات كثيرة. إبرة خياطة إلى جوار حيوان خرافي. نهد بحلمة فسفورية فوق عقرب محنّط. شجرة عارية تتّكئ على زجاجة كحول. حاجيات كثيرة. لا أذكر من أين ومتى اقتنيتها. تتكدّس. تلّ من الهذيان.) أثبّتُ معظم الحاجيات التي أجمعها على ألواح خشبية، تكون أحجامه متباينة، وحسب تيمة اللعبة. أُصمِّم ألعاب المتاهة. أوّلاً أختار حاجة من الأغراض. وليكن مثلا هذا السيف البلاستيكي الصغير الذي هو بحجم إبرة. أثبّتُ السيف على اللوح الخشبي، وأفكّر أن أختار له صورة في ذهني. أختار صورة دجاجة مذبوحة. أرسم خطّاً أحمر يصل السيف بصورة الدجاجة. طبعاً بعدما أُحوّل الدجاجة الذهنية إلى دجاجة مادّيّة. لنقل إنني اخترتُ لصورة الدجاجة المذبوحة ريشة العصفور هذه، والتي التقطتُها من أمام مدرسة أطفال. وهكذا أُحوِّل الفكرة الذهنية إلى غرض مادّيّ، وأصله بالغرض الذي عثرتُ عليه عن طريق الصدفة.

أواصل اللعب بهذه الطريقة، لكنْ، ليس من دون تخطيط. فهدفي الأخير هو تصميم لعبة متاهة، يمكن لأيّ شخص أن يلعبها. عندما تنجح اللعبة أبتهج وأنطّ من الفرح، وعندما أفشل، أحطّم لعبة المتاهة، وأرميها في المزبلة. كان بودّ لويس أن يقول لنوري، إن ما تلعب به هو مُجرّد هراء! عليكَ أن تعثر على لعبة أخرى أكثر مكراً ومتعة. لكن لويس لم يرد جرح نوري. كان لويس ينظر بدهشة إلى صدق نوري وضياعه الطفولي الحزين. واصل الصديقان حياتَيْهما، ومرّت الأيّام إلى أن احترق بيت نوري. لم يفهم المحقّقون لمَ كان لويس طالب التاريخ ينام في سرير نوري؟ وأين كان نوري في أثناء نشوب الحريق؟ شرح نوري أن لويس هو صديقه، وكان يستريح في البيت، وأنه كان في الخارج يتسكّع في الشوارع لحظة نشوب الحريق. كانت الأدلّة المتوفّرة كافية فقط لاتّهام نوري بإشعال البيت عمداً، وإحراق لويس، حكم القاضي، وسجن نوري.

لا أدري، ربّما لم يُشعلْ أبوكَ النار في البيت. لستُ متأكّداً، لكني أفكّر مرّات ربّما تكون إحدى عصابات التهريب هي مَن دبّرتْ كل شيء، وأحرقت البيت. ربّما كانوا يظنّون أنه مازال العقل المدبّر لجماعة مهرّبين بلا حدود. أنتَ تعرف، مساعدة عبور الناس الحدود من دون مقابل، هو كابوس العصابات والسياسيين.

لا أدري! لديّ موعد بعد نصف ساعة. يجب أن أغادر. أظنّ أنني شاهدتُكَ من قبل في السنتر في حفلة راب.

آه، صحيح؟ لا أذكر! آسف، لم أنتبه.. هه، أكيد، كنتُ سكراناً.

كنتَ برفقة صديقتكَ، فتاة شقراء، أنا أعرفها.

تمام ... أوكي، تذكّرتُ.. تقصد، لاورا؟ صحيح! في الحقيقة هي

ليست صديقتي. إنها فتاة مجنونة حقّاً، ولديها طاقة خرافية على المغامرة والسفر. تعرّفتُ عليها في حفلة في بار. مارسْنا الجنس معاً طوال أسبوع، ثمّ افترقنا، ولم نلتقِ بعدها أبداً!

لاورا تعرّضتْ لحادث خطير.

لا.. خره ...

خرجتْ لاورا من الخيمة وهي تتثاءب. كان خوان يعدّ القهوة في حفرة النار.

صباح الخير، قالت لاورا. تأمّل خوان ملامحها وهو يبتسم لها بمحبّة كبيرة: أنتِ فاتنة ومثيرة جدّاً!

(هذه الطبيعة هي الساحرة والمثيرة) قالت لاورا، ثمّ خلعتْ ملابسها، وصاحت (أنا أعشق الطبيعة)، وركضتْ عارية صوب النهر الذي لم تخرج منه إلا بعد أن تمزّقت ذراعها اليمنى، وتهشّم نصف وجهها. لقد نجتْ بأعجوبة من أنياب التمساح.

منذ يومَيْن أراوح في مكاني. لم أُنه بعد الترجمة. وكل شيء شبيه برعاف الأنف: سيل بطيء جداً من الكلمات! آمل أنها حالة طارئة. ربّما تأخذ القراءة وقتاً أطول. قرأتُ البارحة قصّة طويلة بديعة ليوكيو ميشيما (موت في عزّ الصيف) أستهلُّها بكلمات بودلير من (الفراديس المصطنعة) : «في عزّ الصيف يثيرنا الموت أشدّ» . وأنا تُثيرني دائماً سيرة حياة هذا الكاتب والشاعر. أظنّه حاكى غوغان حين ترك تلك الوظيفة العالية، وتفرّغ للفنّ.

***

عزيزي حسن، لو لقيت الشيوع أحكامكَ وتصوّراتكَ فيما يخصّ محنة الفنّ/ الأدب العراقي - العربي، ولو بنسبة عشرة بالمائة، لحدث في موقفي انقلاب جذري، قدره ١٨٠ درجة، لكني لستُ من الصنف المتفائل، ولا الآخر الذي يغمض عينَيْه، كي لا يرى الإعصارات والحمم، وكلها جنونية. ولو حدث ما يحدث الآن، قبل نصف قرن، لأصابتْني عدوى التفاؤل. حينها كان الدِّيْن وكل هذه الفوبيات تحت رماد ثقيل، ولم تُوقِظها بعد شتّى أصناف الأبالسة. بالطبع أنا لا أشكّ بنظرتكَ المستقبلية، فشمولية الإنترنت وبقية مصنوعات الإلكترونيكا هي حاضر دينامي، ومرشّح للهيمنة الكاملة على قرية المستقبل الإلكترونية، غير أن الإنسان باق على أحلامه السوداء، فهو من أسماه

شبنغلر بالمفترس الروحي الذي يعذّب كل شيء ممارساً جبروت العقل، أو كما يقول إن مصدر كل اختراع تِقْنِي هو الحلم الفاوستي بالانتصار على الرّبّ والعالم... باختصار أنا لا أثق بمقولة تخلّص الإنسان من أدرانه وعوقه في مجالات كالتفكير والأخلاقيات، فالاحتمال ضعيف للغاية في أن ينتصر تماماً على تأريخه وأوهامه، لكن هذا لا يعني أنه محتوم علينا أن نضيع، مثل أطفال صغار، في متاهات القنوط القاحل وذاك الإحباط السارتري من نوع (لا فارقَ هناك، إذا قدتَ الشعوب، أو سكرتَ في حانة). وأعترف لكَ بأني (أبالغ) بالتفكير بمصائرنا كحيوانات عاقلة إلا أن هذا وغيره لا يحول دون ممارستي صنعتي: الكتابة التي أعاملها كمصدّات الرياح أو الأمواج.

***

أين أنتَ الآن؟ في الغابة أم لاتزال في مكانكَ؟

قرأتُ مرّة أخرى كتاب سيوران قبل أن أغفو البارحة وقبلها. أقصد كتاب (متاعب الولادة) الذي هو مجموعة ضخمة من الشذرات.

محبّتي

***

الأفعى والرصيف

بيت الصيدلاني متواضع وحميمي. أثاثه ينسجم من روح الهدوء والمحبّة التي تسود البيت. زوجة طموحة، أنهت الماجستير في الاجتماع، طفل وُلد منذ ستّة شهور، يمدّ البيت بأنفاس الأمل والمرح، وزوج قنوع لا يشغله سوى عمله في الصيدلية ومطالعة الأدب الروسي الكلاسيكي. نجلس في غرفة الخطار، نشرب الشاي بالهيل. تستأذن زوجة الصيدلاني، وتدخل إلى الغرفة المجاورة لإطعام طفلها من صدرها. على الجدار لوحة كبيرة، أفعى تلتفّ حول كأس. تحدّث الصيدلاني عن الرمز. كان الإغريق يؤمنون بعلاج الأمراض عن طريق السِّحْر والشعوذة. وكان أحد هؤلاء الإغريق، ويُدعى إسكيلابيوس يعالج المرضى بلمسة من يده أو عصاه أو بلمسة من لسان حَيّته التي كانت ترافقه، وكانت لديه بنت تساعده في مهنته. ظهر إسكيلابيوس في إحدى التماثيل مُمسكاً بعصاه الملتفّة حولها الحَيّة بينما ظهرت ابنته وقد التفّت الحَيّة حول ذراعها وفي يدها كأس. كانت العصا الملتفّة حولها الحَيّة رمزاً للطّبّ والصيدلة على مستوى العالم لسنوات طويلة. وحين استقلّت الصيدلة عن الطّبّ، صارت الحَيّة والعصا رمزاً للطّبّ بينما الحَيّة والكأس صارت رمزاً للصيدلية.

كان اللقاء الأوّل قبل ١٥ سنة.

كنّا رايحين إلى سوق الملابس القديمة قرب نصب الحُرّيّة لبيع الجينز

مالتي وقميص رنا أختي. مضى أسبوع لم نأكل فيه سوى الخبز والباذنجان. أفقنا ذات صباح على إعلان أمّي: ماكو شي ينوكل اليوم بالبيت، عدنا بس الشاي وحتّى شكر ماكو!

كان الباص مزدحماً بطريقة بشعة. جلسنا في المقعد الأخير قرب النافذة. وقف سائق الباص في منتصف الطريق، والتفت إلى الركاب مهدّداً بأنه لن يواصل طريقه، إن لم يدفع مَن لم يدفع أجرته، فقد عدّ النقود، ووجدها ناقصة. يبدو أن أحد الركّاب لم يدفع الأجرة التي كانت تصل بطريقة الموجة. المقاعد الأخيرة كانت تُسلّم أجرتها إلى مَن يجلس في المقاعد التي أمامها، وهذه المقاعد إلى التي تليها وهكذا، إلى أن تصل النقود مثل موجة صغيرة، لتستقرّ أخيراً في يد السائق. خلال فوضى الموجة، ضاعت أجرة الراكب الذي يُنصت الآن إلى زقزقة الركّاب الصباحية عن جريمته!

نهض رجل من وسط الباص يقول:

(أخوان! إلي ما عنده فلوس يقول ... وأنا أدفع بدله!).

((كلش كريم الأخ .. بس هو عنده دودة بطيزه تخلّيه يريد يعرف الراكب الي ما دفع حتّى يذلّه، قبل أن يتكرّم بدفع الأجرة))، همستْ رنا في أذني.

بعد قليل، تدخّلتْ عجوز من دون أن تنهض من مكانها، وقالت:

(ياالله ابني السايق .. .يمكن واحد ما عنده فلوس ... اعتبره ثواب للحسين ... وهواي اكو ناس ماتستحي).

كانت الظهيرة حمماً تسيح على سقف الباص. ومن السقف كانت

تصلنا موجات من الخيوط النارية. وقد أصبحت رائحة الباص قريبة من رائحة معصرة جواريب جنود يحاربون منذ شهور من دون توقّف. أخيراً نهض شابّ في مقدّمة الباص، وقدّم اقتراحه. بالنسبة لمَن كانوا يقدّمون اقتراحاتهم من المؤخّرة، كان يُعينهم في ذلك الركّاب الذين أمامهم في إيصال أصواتهم ومقترحاتهم إلى المقدّمة، لأن الباص كان طويلاً. وبالعكس حين يقدّم اقتراح من المقدّمة. الشابّ الذي كان قد بدأ يسيل من زلفَيْه الزيت الذي مشّط به شعره الملتمع بقوّة، قال: (اخوان هاي من عندي الكروة)، وضعها بطريقة مسرحية وعصبية بيد السائق العريضة. ثمّ أضاف: (وين راح يروح إلي ما دفع من الله يوم الحساب).

((الله راح يشوي هذا الراكب بجهنم الحمرة)) همستُ أنا في أذن رنا التي كتمتْ ضحكتها الساحرة بصعوبة.

تحرّك الباص أخيراً، وواصل طريقه إلى سوق الملابس والقنادر القديمة قرب نصب الحُرّيّة. كدتُ أن أتقيّأ، أخرجتُ رأسي من النافذة قليلاً، ليلفحه الهواء، لم أتحمّل أكثر من ٢٠ ثانية، الخارج كان يغلي بأقسى من حرارة الداخل. مثل الفرق بين دماغي والعالم. همستُ من جديد في أذن رنا: إذا كشفونا هذولة ركّاب باص الجحيم، وعرف السايق أكيد راح يدوسنا بباصه الطويل هذا بكل حمولته من هذولة الشياطين!

اقترحتْ رنا أن أساهم باقتراح، وأن أشتم الراكب الذي لم يدفع الأجرة، لدفع الشبهات عنّا.

صحتُ من مكاني ((إخوان الحياة طرطرة الي ما يموت بالسيف يموت بالقندرة)).

فضحك نصف نزلاء الفرن الذي يسير على أربع إطارات!

كانت الساحة مزدحمة. باعة ومشترون ومتسكّعون وفضوليون ونشّالة ومكبسلون. وقفنا بين عربة لبيع الركّي ورجل عجوز يبيع مسابح وخرز. أعرض أنا قميص رنا، وتعرض هي بنطالي للجمهور.

مرّتْ أكثر من ساعة أسفل الشمس اللاهبة، ولم يلتفتْ أحد لقميص رنا، ولا لبنطالي. فقط رنا تلقّت حصبة كبيرة ومبالغ فيها من النظرات المتحرّشة بجسدها. لم يكن هناك الكثير من النساء في السوق. وكان أغلب النساء المتواجدات ملفوفات بعباءات سود. المرأة العراقية لها كفنّان: عباءة سوداء للحياة، وعباءة بيضاء للموت. رنا كانت ترتدي جينزاً زيتونياً نسخة من الجينز الذي كنتُ أرتديه. قلتُ لرنا ((صيري قوية، لا يهمّك نظرات هاي الثيران الهايجة، باجر تصيرين معلّمة تعلّمين أولادهم، وأنا أبيع الدواء إلهم، وخلّي نشوف، بلكت تفرج ويتحرّر العبيد من سجن الكبت والحرمان والخوف من الحُرّيّة.. خلّي اليوم نحصّل فلوس الخبز والبيتنجان وربك البيتناجنة يحلّها!!)) أطلقت رنا سراح ضحكتها المميّزة من أعماقها. ضحكة مفعمة بالحياة والفرح. كنتُ أنا في الثانية والعشرين، أدرس في كُلّيّة الصيدلة في جامعة بغداد. وكانت رنا في عمر التاسعة عشر تدرس في معهد المعلّمات.

اقترب منّا بتردّد وخجل شابّ من عمر رنا، وسأل عن سعر القميص. قدّمتُهُ له لكي يتفحّصه. قالت له رنا ممازحة (إذا تريد تشتري هدية لأختك أو حبيبتك راح أسويلك تخفيض خاصّ) ارتبك الشّابّ، وقال (لا، شكراً! بس اقدر ادفع سعره مرتين ضعف، ونفس الشي بالنسبة للبنطلون، على شرط أن تقدموا لي خدمة، وراح أكون منكم ممنون كلش).

فكّرتُ في ما عرضه الشّابّ، وتخيّلتُ أن ندخل أنا ورنا على أمّي، ليس

بالخبز والبيتنجان (يحيا الإنسان)، بل بسمكة وطرشي وخيار ولبن. قالت رنا (انت تبين خوش ولد، بس لازم نعرف شنو تريد أوّلاً، إحنا مو أهل مشاكل) أوكي، قال الشابّ، اسمعوا، وأنتم قرِّروا: اسمي مراد، لديّ باص صغير، أوصل فيه بعض الطلاب إلى كُلّيّاتهم. تعرّفتُ على طالبة، تدرس في كُلّيّة الزاراعة. أحببنا بعضنا، وكنّا نتحمّل بصعوبة أيّام الفراق في العطلة الصيفية، لأن صديقتي كان ممنوعاً عليها الخروج من البيت إلا في الحالات الضرورية. كان لديها خمسة أخوة ثيران أصيلة، شوارب وعضلات. صاحبتي هسّه في البيت. وسمعتْ راح يزوجونها لواحد من أقربائها، رجّال بكرش عظيم، ويكبرها في العمر بـ ٢٤ سنة. كل ما أريده أن تروح الأخت (يقصد رنا) على بيت صديقتي، وتدّعي بأنها صديقتها، تعطيها القميص هدية، وتقول لها أن تصبر وتنتظر كم يوم حتّى أفكّر في حلّ! آني ماعندي خوات، وما عندي علاقات ببنات حتّى اطلب منهم يساعدوني).

دمعتْ عينا رنا الحسّاستان، ووعدت مراد بأنها ستفعل ما يريده. قلنا لمراد، إنه ليس بحاجة إلى أن يدفع ضعف سعر القميص والبنطال، لكنه أصرّ على أن نأخذ النقود. رتّبنا التفاصيل، واتّفقنا على موعد لتأخذ رنا القميص إلى حبيبته.

حبيبة مراد أخبرتْ رنا بسبب رفض عائلتها زواجها منه.

كان لا بدّ من النزول إلى الرصيف دفاعاً عن معدة العائلة التي لا يمكن تركها تذلّ أكثر. أجّلتُ دراستي في كُلّيّة الصيدلية بعد أن اهتديتُ بفضل صديق إلى عمل نظيف وقريب من دراستي، كما كان يقول الصديق. كان يتاجر بالأدوية في السوق الأسود وسط بغداد. كان باعة الأدوية بلا أماكن معيّنة على الرصيف أشبه بباعة أكياس البلاستيك الجوّابين في السوق،

وهذا لضرورات أمنية. في يد كل واحد منهم كيس أسود صغير، تخرج من فوهته بعض الخضر من باقات الرشاد والكرفس أو الخيار أو أيّ فاكهة أخرى للتمويه. أسفل هذه الخضر تكون علب الأدوية أو الحقن أو خيوط العمليات الطّبّيّة. فالمتاجرة كانت بكمّيّات قليلة. لكنها بأسعار خيالية، وتدرّ عليهم ربحاً هو أكثر من معقول. أما الشحنات الكبيرة من الأدوية، فهذه كانت من نصيب تجّار منتسبين إلى أجهزة أمنية رفيعة، أو أقارب لهم، ولتغطية التجارة، وجعلهم بعيدين تماماً عن المحاسبة، اكتظّت السجون بتجّار الأدوية الصغار مثلي ومثل صديقي. قل إنني صرتُ رسمياً طالب كُلّيّة الصيدلة الذي يتاجر بالأدوية في السوق السوداء.

كان باعة الخضر والطحين والسّكّر والملابس القديمة والسمك وصحون الطعامِ ومكانس سعف النخيل لهم أماكنهم الخاصّة على الرصيف. منهم مَن يفترش الأرض. ومنهم مَن صنع له طاولة خشبية، أو من حديد السكراب. وقد اشتهرت في سنوات الحصار، وأصبح الرصيف يعجّ بهذه الطاولات التي تسمّى (جنابر / مفرد: جنبر). كنتُ أستريح وأدردش مع أصحاب (الجنابر) هنا وهناك، بانتظار الزبائن. لا يمكن البيع بتاتاً لزبون غير معروف. فهذا يعني ضرباً من الانتحار ووقوعاً في فخّ الأجهزة الأمنية. في بعض الأحيان، كنتُ أفضّل حياة الاستجداء في الشوارع على مواصلتي هذا العمل المهين، لكن أفواه العائلة كانت مسوؤليتي، وكان لا بدّ من مجاراة كابوس الحياة. كنتُ أحمل طوال اليوم كيساً أسود يحتوي على مجموعة من أشرطة حبوب السلستون والبرياكتين المطلوبة. وهي أدوية تُستخدَم كنوع من المشهّيات، وهي تساعد على زيادة وزن الإنسان. وغالباً ما تستهلكها النساء للمحافظة على انتفاخ الوجنات، بدل الوجوه الهزيلة التي ابتكرها الحصار. وكما تعرف كلّما كانت المرأة (متروسة) كانت حظوظها

في الزواج أكبر. خاصّة مع عزوف الرجال عن الزواج، وتفرّغهم للهرب من البلاد أو للموت في الحروب المتواصلة، وأخيراً للحفر في أرصفة الشارع، من أجل خبز العائلة. كنتُ أتاجر في بعض الأحيان بالحبوب المخدّرة مثل الآرتين الإنكليزي والإيراني (غير مفضّل، لكن سعره مناسب) والمغشوش. وأيضاً خيوط العمليات الطّبّيّة الأصلية، وحقن الأنسولين وحبوب الفلاوات.

لم يمضِ على عملي سوى ٣ شهور حتّى تعرّضتُ لخسارة قاسية. غامرتُ بشراء كمّيّة كبيرة من عصارات إزالة (حَبّ الشباب) على أساس أن هناك طلباً كبيراً عليها في السوق. نصحني واحد من جماعة عقد (غامر على حب الله) أن أنتظر قليلاً، حتّى ترتفع أسعار (العصّارات) في السوق. لكن أرصفة الحصار الاقتصادي كانت سوقاً لا يمتّ بصلة لتخمينات الأذكياء، ولا يمكن لتاجر عبقري أن يتكهّن بحركة السوق. ولم يكن هناك أجوبة كافية ومعقولة حول تبدّلات الطقس العنيفة التي كانت تعصف بالسوق والبشر. على سبيل المثال، حين تسأل: لماذا ارتفع سعر حلمة الرضّاعة الاصطناعية في هذه الأيّام، وانخفض سعر موسى الحلاقة ماركة (لورد)؟! لا تنتظر إجابة أكثر من: ربمّا ستقصف الطائرات الأمريكية بعض قصور الرئيس، أو أن الحكومة أعدمت مجموعة من التّجّار، بسبب ارتفاع الأسعار.

لهذا، مات (العصارات) ولم يعد هناك أيّ طلب عليها في السوق، وخسرتُ فلوسي! كل بضاعة ينخفض سعرها في السوق انخفاضاً مرعباً تُوصَف بأنها (ماتت). مات شامبو (الياسمين) المحليّ، وأفاق شامبو (دوف) الأجنبي. ماتت سجائر(سومر) المحلّيّة، ووُلدت السجائر الأجنبية المغشوشة. مات معجون الحلاقة (آدم)، وطلع (أركو) التركي. مات طفل بالإسهال، ووُلد تاجر آخر جديد! في فترة انتكاسة تجارتي، حالفني

Telegram: @Arab_Books

الحظّ بالتعرّف على تاجر كوردي. كان يجلب من السليمانية بعض الصور والمجلات السيكسية المهرّبة. قال الكوردي إنه يحتاج إلى موزّع في بغداد. أخبرني أن كل ما عليّ فعله هو أن أجد لبضاعته هذه منفذاً لتصريفها. ثمّ يعطيني أجراً مقابل بيع بضاعته. لكنه اشترط أن أعمل مع موزّع صديق له، فهو لا يعرفني، وبحاجة للوقت لأفوز بثقته.

كان الموزّع صديق التاجر الكوردي هو مراد.

تفاجأ كلانا أوّل الأمر باللقاء! وسرعان ما انسجمنا أنا ومراد، وصرنا صديقَيْن حميمَيْن. رحنا نُوزِّع مجلات السيكس في الأحياء الفقيرة والغنية، وأدْمَنّا حينها على بَلْع الحبوب المخدّرة. كان مراد مُهلوِساً بارعاً. ما إن يبدأ مفعول الحبوب المخدّرة بالعمل حتّى ينطلق في هذياناته من دون توقّف. حتّى إنه كتب ذات مرّة صفحة من الهذيان عن الرصيف، مازلتُ أحتفظ بها!

تقصد أن الطائفية كانت موجودة قبل سقوط بغداد.

كان السبب الرئيس لرفض عائلة حبيبة مراد زواجهما هو سبباً طائفياً. الطائفية لن تنتهي في البلاد قبل أن نضع جثّة التاريخ الإسلامي على الطاولة للتشريح، وأن يعقّم القرآن وأحاديث النبي في المختبر.

قتل مراد بطريقة بشعة.

بعد الاحتلال، وخلال الحرب الأهلية، صار مراد أشهر ذبّاح في طائفته. التقيناه آخر مرّة في أثناء اقتحام المسلّحين لحَيّنا. كانوا يقتحمون البيوت، ويعدمون الناس بعشوائية، ومن دون رحمة. دخل أربعة رجال منزلنا، وكان مراد قائدهم. صُدم حين شاهدني مع رنا. طلب رجاله منّا أن نجلس إلى الأرض، ووجوهنا إلى الجدار. أنا وأمّي ورنا. أدنى مراد رأسه منّي، وهمس

في أذني (بعدك تكبسل گواد)، ثمّ همس في أذن رنا (بقيت سنوات أحلم بحبيبتي لابسه قميصك الأبيض)، ثمّ أمر رجاله بالانصراف، وغادروا المنزل. راحت أخبار مراد تتردّد في الأحياء كلها التي تسكنها طائفتنا. كان لقبه يثير الرعب في الرجال، مراد البتّار! كانت مهنة مراد الجديدة هي خطف الرجال وقطع أيورتهم أوّلاً، ثمّ قطع رؤوسهم. يوم من الأيّام، نصبوا لمراد كميناً. أخذوه إلى قرية على أطراف بغداد، وأحرقوه حياً!

رنا تعيش الآن في مع زوجها، ولديها بنتان.

ورنا الحبيبة تعمل اليوم في منظّمة مدنية في حيّ شعبي فقير. تُعلّم الناس مداواة حياتهم بالضحك.

مكن أن أحصل على نسخة من هذيان مراد عن أرصفة الحصار؟

أكيد، كان في نيّتي أن تطّلع عليه.

(يتّجه الصيدلاني إلى رفّ الكُتُب، ويُخرج ورقة مطوية من بين طيّات رواية نشيد الشيطان، ميخائيل بولغاكوف).

الأرصفة هي ضفاف الشوارع المعبّدة لمرور الناس. ذهاب وإياب. قَتَلَة وخراف. وهي مظلّة انتظار أيضاً. رصيف كلمةٌ استهلكها شعراء البلاد في قصائدهم إلى حدّ القرف، لما للرصيف من ذاكرة مكتظّة بالبؤس، وهي في الحقيقة ذاكرة خليط من الأوجاع والمسرّات. والشاعر كما متعارف عليه مصبّ وحنينٌ دائم صوب خليج البؤس. والرصيف كما نشاهد هو ممرّ للتائه، وسرير للمتشرّد. وعادة ما تكون الأرصفة المزدحمة فرصة لشمّ رائحة الأجساد، ومناخ ملائم لعمل النشالة أيضاً. أما أرصفة الليل، فهي

لحناجر السّكارى المبحوحة وللبول، ومصادفة كلب شارعٍ. هاتان كلمتان بديهيّتان عن الرصيف قبل الادّعاء أن أرصفة إبلاد في سنوات الحصار الاقتصادي قد تحوّلت برمّتها إلى سوق عملاق، أبوابه مشرّعة ليل نهار. بيع وشراء. من الرصيف يمكن شراء سرّ صناعة قذيفة كيماوية، أو الحصول على دواء لمغص نملة. لا للمبالغة، بل للوقوف عند حقيقة سوق الأرصفة العجائبي. هو مثل قبّعة الساحر، بل أدهى بكثير. فمنه يمكن إخراج كل إكسسوارات الحياة وكل إكسسورات الموت. من الرصيف يمكنكَ أن تحمل شهادة دكتوراه في الفلسفة أو في اللغات، بعد أن كنتَ البارحة شرطي برتبة صغيرة. ثمّ تحصل على ختم وزاري على شهادتكَ للعمل في دولة أخرى بعد أن تُرتّب بقيّة الأوراق الضرورية الأخرى للهرب من البلاد. لا داعي للقلق، فكل أوراق الهرب يمكن الحصول عليها من الأرصفة أيضاً.

أرصفة على هيئة أفاع طويلة متموّجة في طول البلاد وعرضها. هنا لا بد من معلومة صغيرة عن الأفعى لمعرفة آلية عمل رصيف الحصار. كلنا يعرف أن الأفعى لا يمكنها سماع أيّ صوت وهي تعوّض عن ذلك من خلال حساسيتها المفرطة للاهتزازات التي تحسّ بها على الأرض، ومهما كانت الاهتزازات - عالية أو منخفضة. أما حاسّة الأبصار، فتكون عند الأفعى قوية بشكل مشرّف وخلاب، وهي تفتح عينَيْها غالباً بسعة أكبر لتحديد مكان الفريسة. حاسّة الشمّ عندها ممتازة أيضاً، فهي تشمّ عن مسافة بعيدة. والأدهى من ذلك كله قابلية الأفعى على تحسّس الكائنات الأخرى التي تختلف درجات حرارتها وبرودتها قليلاً عن محيطها، وهذا ما يتيح لها التحديد الدقيق لموقع الفريسة والانقضاض عليها في أحلك ظلمة. لهذا لو بدا رصيف الحصار معاقاً في جانب أو مكسوراً، فهو يملك في المقابل حواسّاً شرسة، مكّنتْه من حياة على درجة عالية من البشاعة. ورغم

أن الأفاعي بلا أقدام، لكنها قادرة على الزحف كما الأرصفة. بإمكانها أن تتحرّك بسرعة فائقة، وتتسلّق الأشجار، وتسبح وتتوغّل في التراب، وتلتفّ على نفسها للوقوف، وعلى الرمال تتحرّك بطريقة جانبية. وبعض الأرصفة تكتفي بالعضّ، والأخرى تمتلك سمّاً لسقوط الفريسة. والأفعى تلتفّ بقوّة على فريستها، ليس للإمساك بها فحسب، لكنها تقوم بخنقها، وإسكات قلبها. التفّت الأرصفة على الكثيرين، كانت أنفاسهم تخفتُ تدريجياً مثل مضخّة ماء تتعطّل. وبعض الأفاعي يعيش فوق الأشجار، ويرتمي على فريستها حين تمرّ من تحتها. والأفعى تبلع ضحاياها كاملة عن طريق فتح فمها واسعاً. لهذا تبدو الأرصفة في زمن الحصار منتفخة بأجساد المبلوعين. وبعضها يبيض وآخر يلد. وهي تبدّل جلدها، ولأنه لا يُمطّ كي يماشي نمُوُّها. الفرق الوحيد هو أن الأرصفة كانت تنمو بالجلد نفسه منذ خلقها المنبوذ، منذ أن التفّت الأفعى على جسد الإنسان العاري، وطردتْه من حلم إلى آخر.

Telegram: @Arab_Books

عزيزي حسن. خيانات جديدة للصّحّة (فقدان التوازن وسوء السَّمْع) وبعد ساعَتَيْن عندي موعد مع الطبيب. في الحقيقة، لستُ متفائلاً، ولأني لا أثق بكل طبيب، لكنْ،، ما العمل، فأنتَ محصور في الركن؟ ...

***

الصّحّة في تقلّبات، ومن هنا تدخّل الأطبّاء والمستشفيات إلى آخره. الشيء الجيّد في هذا كله أني لا أضيع الوقت بعيداً عن الكتابة والقراءة ومشاهدة الأفلام الجيّدة والاستماع إلى الموسيقى!

الوضع في العراق تعبان جدّاً، بل مُفزع حقّاً. شياطين الأرض جميعاً جنّت في بلدنا المنكود. وفي كل لحظة قد تصبح الحرب نصف الباردة ونصف الساخنة تماماً، بل قد يحصل الأسوأ: انفجار الشرق الأوسط كله، إذ لا أحد من أبناء القحاب يبحث عن حلول وسط، فكل اقتراب من هذه يُعدّ انحرافاً عن الهدف المشترك: قطع أطراف البلد، ثمّ وضعه في كرسيّ متحرّك للمقعدين... إنه عالم بالغ الحُمق، لا يملّ من تكرار تجاربه التي يعدّها هو نفسه بأنها الأسوأ...

***

هبطت آلام الظهر بشكل ملحوظ، لكني لا زلتُ محسوباً على

المعوقـين! الطبيـب يقـول إنهـا مؤامـرة مـن عـدّة جهـات: العمـر ومـرض الدم والنسـيان – نسـيان أن بعـض الأفعـال الجسـمية لا تصلـح لواحـد مثلي.

أكتـب، وكأن الكتابـة ينتظرهـا أحـد. لكـنْ، لا يهمّ، فلـديّ صارت الكتابة والتلويـن الوسـيلة الأكثـر حكمة لملء وقـت الفراغ!

محبّتي

***

عزيـزي حسـن. اليومـيّ يقـرض فيّ بانتظـام! يـزداد القـرض حـين تكـون هنـاك مشـاكل مـع الصّحّـة عنـدي وفي البيـت. رغـم كل شيء أواصـل مسـار حياتـي: قـراءة، كتابـة، متابعـة للأخبـار العـراق والعالـم. هنـاك تلـك الخيبـة الكـبرى مـن كل شيء، وخاصّة هـذه الأزمنـة الثلاثـة ...

أواصـل ترجمـة (دمـوع وقدّيسـون) لسـيوران الـذي كان يتمتّع دائمـاً بتجديفـه وهرطقته.

***

الحياة بخار

عــرض عــليّ مــي دخــول الســاونا مجانــاً. شــكرتُهُ، وقلــتُ لــه لا داعــي لذلــك. جلســنا نتحــدّث في مقهــى قريــب. لا تثيرني ســاونا عموميــة وســط المدينــة. ســاونا بيــوت الريــف برفقــة أصدقــاء، تكــون كافيــة ومناســبة لمزاجــي. تحدّثنــا عــن الصــور النمطية عن الفنلنديــين والمهاجريــن. مــن الســهل لأيّ أجنبــي يقيــم في فنلندا من أن ينتبــه إلى أن الفنلنديــين محافظــون مــا عدا حين يكونــون في معبد الســاونا أو معبــد البار. هنــاك يتعرّون جماعيــاً، ينزعون بــكل حُرّيّة وبســاطة ملابس خجلهم. تفتــح حناجرهم وأجســادهم، ويعربدون في طقــس جماعــي متنقّلين بــين حــرارة الجحيم وصقيــع الفردوس. مــي هاجــم بشراســة المهاجريــن، وقــال إن بعضهــم واهــم، ويحلم أن يبنــي (وطنــاً مفقــوداً) داخــل البــلاد التي اســتقبلتْه. أدهشــتْني قدرة مــي على حفــظ الدراميــات. كان مفتونــاً بالطبيعــة الفنلندية، وكان فصلــه المفضّــل هــو الخريــف. ســمعني بعــض الدارميــات: (احنة بجســد روحــين، والــدم فــرد دم. والكلــب واحد صــار، بالفرح والهــم.) (يســألني ملــك المــوت، روحك شــجاها. گتله حبييــب الروح گبلــك خذاهــا) (بالحلــم چنــك جيــت، مــن ذاك الغيــاب. گبــل ايــدي شــفت الــروح، فتحتلك البــاب) (يمكــم تريد الــروح تســكن وترتاح. بس وســفة عــلى النقــال مايرســل أرواح).

بعد أن طُردنا من العمل في الحمّام قرّر **سا** أن يتفرّغ للغناء حتّى وإن

مات من الجوع هذه المرّة. كان يلومني ونحن في الطريق إلى السوق، لشراء الدجاج ومعجون الطماطم.

خرة بربّك **مي**، أنتَ مُجرّد حشرة. اسكتْ. العالم مطحنة، وأنتَ تغنّي عن الحبّ.

كنّا نعيش في غرفة صغيرة تقع في شارع النهر فوق محلات الذهب. غرفة نوم ومطبخ صغير، لكن هناك مرحاضاً خاصّاً لـ **سا** شيّده بنفسه على الطريقة الغربية، بجوار المرحاض المشترك. كانت أمنيّته الوحيدة أن تسمح له ظروف الحياة الهائجة والمتقلّبة في أن يستخدم مرحاضاً واحداً خاصّاً به طوال الحياة، لكن المسكين تفاجأ في شارع النهر بكتيبة كاملة من المخرين الأصلاء.

اخترتُما لعلاقتكما اسماً واحداً، هو سامي. هو اختار سا وأنت مي.

أجمل ما في غرفتنا أن لها شرفة واسعة تطلّ على النهر. أما الغرفة نفسها، فكانت مخزناً صغيراً للأحذية. مع توسّع تجارة صاحب المعمل الشعبي للأحذية النسائية، استخدم سرداب العمارة للخزن. وعرضوا هذا المخزن للإيجار، ليساهم مورده في تسديد قوائم الكهرباء والماء . نصعد إلى الطابق الخامس في البناية من خلال سلّم حلزوني ضيّق. وفي الطريق، يلتصق بأحذيتنا العديد من المسامير البالغة الصِّغَر التي يستخدمها العمّال في تثبيت الجلد على قوالب الأحذية الخشبية. أما رائحة السيكوتين، فهي تُسبِّب الدوار لشقّة الأحذية طوال الوقت. يحيط بنا أكثر من معمل شعبي للأحذية أو للخياطة. كثيراً ما تصادف هناك صبية متسكّعين، يجمعون من حاويات المعامل علب السيكوتين الفارغة،

ويستنشقونها. استنشاق السيكوتين يُوفّر لهم تخديراً مُسكراً طوال فترة تسكّعهم على الأرصفة. دخل **سا** طور الهيجان خلال هذه الفترة، بسبب المرحاض. عمّال معمل الأحذية كانوا قذرين مثل مجموعة نشطة من الخنازير. اعتادوا على الاستحمام، والحمّام من دون باب. أما المرحاض المشترك، فقد كان زريبة كاملة بحاجة إلى أن يؤلّف **سا** أغنيّة عنه بدل أن يجنّ جنونه، بسبب انتهاك مقعده الأبيض، النظيف واللامع. فقد اقتحم العمّال بخرائهم مقعد **سا** الغربي. كان **سا** موهوبا بالغناء والتلحين، ويعزف على العود والكيتار. بعد أن مشّط **سا** الشوارع طوال النهار محاولاً العثور على حلّ لمأزق المرحاض الذي اقتحمه العمّال البرابرة، قرّر أن لا يخرى أو يتبوّل إلا على ضفّة النهر. لكن المسكين كان يتبوّل في النهار في أيّ زاوية من الشارع، ويخزّن خراءه لليل النهر. كتب ولحّن في فترة الضّفّة - المرحاض العديد من الأغاني الدِّينية الكوميدية. في إحدى أغانيه لا يقول سوى ((علي ناك عايشة فوق الجمل .. عايشة ناكت علي فوق الجمل .. علي ناك عايشة فوق الجمل .. عايشة ناكت علي فوق الجمل)).

صاحب المعمل لم يكن يظهر إلا في نهاية كل أسبوع حين يُوزِّع على العمّال أجورهم، وقد اكتشفنا أنها أجور عالية بالمقارنة مع أجور الحصار. صاحب المعمل يُدعى(أسطة ضياء)، ولم يكن في وجهه حبّة ضوء. كان أقرب إلى ابن إبليس الرابع. الأصلع. الإبليس ضياء كان قد دخل سنّ الأربعين. وينادي على عمّاله الصغار بهذه الطريقة: لك أحمر، وينك؟ .. وين الجلد؟....

اشعل قواد ! جيب السيكوتين...

ابن المصّاصة، على أساس زاجل ابن التضرّط، لك شغل البنكة....

أشعل، أحمر، زاجل، هي أسماء الطيور المتعارَف عليها بين المطيرجية. بعد فترة، عرفنا أنه يربّي أيضاً أسراباً كبيرة من الطيور في سطح البناية، ويتاجر بأفراخ الطيور.

تقول إنكَ تحبّ فنلندا كثيراً، وتعدّها وطنكَ وبيتكَ. تعرف أنني أعيش هنا منذ سنوات، وأسمع الكثير من الآراء المتباينة عن علاقة المهاجر بالأرض الجديدة. لديّ صديق مصري يقول إنه يشعر أن علاقته مع فنلندا تشبه زواجاً إجبارياً، علاقة مملّة، لا خلاص منها، ولا متعة فيها. بالنسبة لي، لستُ متأكّداً، مرّات أفكّر أن العالم صار بالنسبة لي مُجرّد فندق. غرفة في بغداد، غرفة في هلسنكي، غرفة في بكين .. لم تعد الأمكنة تثير فضولي، ولا حتّى مشاعري!

ربمّا أتفهّم، في كثير من الأحيان، مشاعر اللاجئين والمهاجرين تجاه البلدان التي يلجؤون إليها. أظنّ أنكَ حين تخسر بيتكَ وطمأنينتكَ، تصبح حسّاساً وكسولاً ومشكّكاً في كل شيء. تنكسّر إرادتكَ، ويتشوّش عندكَ حسّ التفكير السليم. عيوب الآخرين تصير لعبتكَ أمام الحياة التي لعبتْ بكَ، وربمّا هزمتْكَ. أليس الإنسان بشكل عامّ هو كائن مهاجر، يحمل شظايا طمأنينته المهشّمة في أعماقه؟! هل تجرحكَ أنتَ الشظايا وتسمّم دمكَ؟! لا أدري! الفنلنديون يعجبونني، يعملون بجدّ، وهم صادقون، ويملكون حسّ سخرية ذكياً. حبيبي الألباني الذي أعيش معه لا يعجبه الفنلنديون. يقول إنهم غير مهذّبين،خاصّة الرجال منهم، الرجل الفنلندي رغم مستواه التعليمي الممتاز، وظروف حياته الجيّدة يشبه في تصرّفاته القروي الساذج، إنهم أشبه بروبوتات قروية! لا أتّفق مع صديقي. مثل هذه الصور النمطية ممكن أن تُريح إنساناً خاملاً أو غاضباً، لم تعد الإثارة

والمغامرة مع الآخرين تُثيره. ثمّ ما هو الحبّ، البيت، الوطن؟! بالنسبة لي، لا أقول إنني أعشق فنلندا بتاريخها وجغرافيّتها والخمسة ملايين الذي يعيشون فيها، مثلما لم أكن أشعر قطّ بمشاعر خاصّة تجاه تاريخ وجغرافية وكل ناس بلدي. مثل هذه الانتماءات لا يمكنها أن تمتّع أحساسيسي وذهني، وهي بالنسبة لي هلوسات لا غير. أنا أريد أعيش كإنسان بسيط، يؤمن أن الحبّ هو بلده وتاريخه ومخبأه. أعرف أنني أبدو رومانسياً. لكن أغنيّة الإنسان عن الحبّ قديمة قِدَم العصور. البيت بالنسبة لي هو الناس، القلّة من الأصدقاء والأحباب الذين يحيطون بي، ويحبّونني وأحبّهم، سواء كانوا يعيشون في ثلاجة فنلندا العزيزة، أم في فرن العراق العزيز. أما أسباب الهجرة، فهذا موضع آخر، يتعلّق بحُرّيّتك ومحاولتكَ عيش حياتكَ بسلام أينما ومتى أردتَ.

أنتَ مُحقّ في الكثير من ما تقوله! أوكي، إنه موضع معقّد، يطول الحديث عنه، ولا أريد أن ندخل إلى بركة السياسة الخرائية، فقط أذكّركَ، أن الشعور بأنكَ متعب ومذنب طوال الوقت هو شعور رهيب وقاس. تتحطّم ثقة الإنسان بنفسه، ويخاف، ومَنْ يخاف دائماً يصير الأضعف. مثلاً اللاجئ الذي دمّر العنف والخوف حياته عليه أن يعيش في كل يوم في بلاد اللجوء كمذنب، معلّقاً على صدره لائحة اتّهامات (هارب من حربك .. مغتصب.. غاز جديد.. بربري.. إرهابي، متخلّف .. سارق نسائنا.. سارق ضرائبنا .. مشوّه ثقافتنا...) أنتَ تعرف .. أوكي، لنرجع إلى موضوعنا! قلْ لي، واصلتَ عملكَ أنتَ في التدليك، هذه المرّة في الساونا، وليس في الحمّام.

أعمل مدلّكاً في ساونا عمومية، تُعدّ من الأقدم في فنلندا، تسمّى (باب الحد) في مدينة تامبيره. **سا** كان يكره عملنا في حمّامات بغداد، وكان يرى

الحمّام العمومي مكاناً سطحياً وطقساً قبلياً تافهاً. ألّف أغنيّة عن الحمّام، اسمها (من اشوف الخنازير مصلخين بالحمّام). بالنسبة لي كنتُ سعيداً بعملي. الحمّام كان لي واحة من الاسترخاء. الإنسان في صلاة الماء والبخار. كنّا نعمل، أنا و**سا**، في حمّام بغدادي قديم من القرن السادس عشر. في العصر العباسي، كانت بغداد تحتوي على ١٠ آلاف حمّام تقريباً. أحمد بن الحسن المنجم، وهو أحد المؤرّخين، له مقولة ظريفة عن بغداد في تلك الأيّام: ((وجدتُ مساحة بغداد كلها حمّامات، ثمّ طلبتُ بغداد، فلم أجدْها من كثرة حمّاماتها)). لم تكن الحمّامات تعني النظافة والاستحمام، بل منتجعاً للترفيه والتعارف والطبابة. وكانوا يغنّون في الحمّامات كهواية أو من أجل إثبات الموهبة. والأعراس اليوم تبدأ من الحمّامات، حين يأخذ ألاصدقاءُ العريس إلى الحمّام، ويغسلون صديقهم وهم يتندّرون على انقضاء أيّام عزوبيته. الحمّامات كانت حافلة بالتقاليد الشعبية والحكايات. مع الأسف، يتناقص اليوم عدد الحمّامات، ويهجرها الناس. كلمة حمّام أصلها (حمى) في اللغة العربية، وتعني الحرارة المفرطة. المشهور في العالم هو (الحمّام التركي)، لكن الأتراك لم يستخدموا الحمّامات حين كانوا في موطنهم الأصلي في آسيا الوسطى، لكنهم عرفوها حين دخلوا الإسلام.

هناك مقولة فنلندية قديمة تقول (الساونا هي صيدلية الفقراء). سرقت أنتَ وسا الطيور، ورحلتُما.

اكتشفنا أن أسطة ضياء اختار طيوره من الصبية بعناية فائقة. كان ينيك كل أسبوع واحداً منهم . بعد أن يُوزّع الأجور عليهم يوم الخميس، يختار واحداً من عمّاله، ويغادر البقية. قبل دفع الأجور يستحمّ أسطة ضياء في الحمّام حين يجمع العمّال ما تبقّى من الأحذية النسائية في العلب الكارتونية، ونقلها إلى المخزن. يحلق أسطة ضياء إبطَيْه وشَعْر عانته. الحمّام

بلا باب طبعاً. كان يشعر بالزهو حين يلمحه شخص وهو عار. كان فخوراً بعتلته الطويلة. زبّ لا يُقارَن بأيّ زبّ على الأرض. زبّ حصان حقيقي. حين يشاهد طيراً من طيوره. يمُسك زبّه المبلّل، ويحرّكه إلى أعلى : ها أحمر، تريد تبقة اليوم أنته! صادف مرّة أنني مررتُ من قرب الحمّام بينما أسطه ضياء يلمّع خصيتَيْه مثل قندرة:

- أستاذي، رحمة لأبوك... شنو رأيك؟ ... عندي مشكلة ... زبيّ طويل وغليظ كلش، شنو الحلّ برأيك !. ثمّ أطلق ضحكة بطولية.

قال **سا** إنه لو قُدّر لنا أن نرتكب جريمة قبل أن نرحل، يكون أسطة ضياء الجثّة الأنسب للتمثيل بها، وإنزال غضب الله عليها. ألّف **سا** عن إبليس القنادر أغنيّة (راح آكلكْ وإطحنكْ بأسناني). في ليلة الطيور، كان أسطة ضياء قد اختار الأشعل. صرف الباقين الذين أصابهم الحزن لعدم اختيار واحد منهم. لا أدري إن كانوا حقّاً يستمتعون معه أم أن الدافع كان الخوف أو النقود. راقبنا الأسطة ضياء أنا و**سا** بحذر من الشّبّاك الي من دون ستائر. فتح أسطة القنادر زجاجة عَرَق. شرب مع الأشعل وهما يستمعان إلى أغنيّة شعبية ضاجّة. بعد الانتهاء من شرب نصف القنّينة الأولى، تقدّم الأشعل، وسجد بين فخذَي أسطة ضياء، وأخذ بلعق زبّ الحصان، فراح يصهل إبليس ضياء من النشوة. داعب شعْر الأشعل، وقبّل رقبته. رفعا صوت الغناء المسجّل إلى أعلى درجة. بعد نصف القنّينة الثانية، أخذ الأشعل وضعية الكلب، وراح أسطة ضياء يشمّ مؤخّرة الأشعل. سكب عليها القليل من العَرَق، وأخذ بلحسها بجنون، وهو يعضّ الأشعل من ردفَيْه، ويمرّر لسانه على زرف الخراء بسرعة جناحي دبور. ثمّ نهض الأشعل بسرعة، وجلب من طاولة قريبة كريم ماركة (نيفيا)، عاد إلى سجوده وهو يردّد بخوف: أسطه

.. الله يخلّيك، بس على كيفكْ .. دَخِّلْ بس ربعه، الله يخلّيكْ. يضحك أسطة ضياء: لَكْ أشعل، شبيكْ؟ انته سبع .. تشيله وتشيل أبوه...

لم ننمْ طوال الليل. كان الاتّفاق أن يتمّ الهرب بأول باص متّجهاً إلى شمال البلاد. كنّا نخشى النوم. أحسسنا بأن رحلة الخلاص ستضيع إذا ما أغمضنا رمشاً. كنّا قد جمعنا حاجياتنا من غرفة القنادر منذ ساعات طويلة. كان أسطة ضياء آخر مَنْ غادر المعمل. مرّ علينا قبل ذلك وهو يحمل قنّينة عَرَق كاملة. قال إنها هدية منه. هكذا من دون سبب. أو لأنه (يحترمنا)، كما قال وهو يبتسم. لم تكن ابتسامة سخرية بقدر ما هي خجولة صادقة. عجيب زبّ الحصان هذا! تمنّينا له ليلة سعيدة، وقدّمنا له أجمل كلمات الشكر. وما إن أغلق الباب حتّى نعته **سا** بأقذر وأبشع الكلام، حتّى إنه ابتكر شتائم، لا يمكن لقحبة معمّرة أن تبتكرها. حملنا حقائبنا وشرشفاً أبيض. صعدنا إلى السطح، وجمعنا كل طيور أسطة ضياء من سطح البناية داخل الشرشف الذي أصبح مثل منطاد من الريش.

كان الليل خدعة كبيرة. فقد بدا كرنفالاً من الهواء والنجوم. كما كانت السماء تفتقد أيّ دليل على كونها سماء لمدينة الجرذان والجوع المرعبة هذه. كأن الشياطين قد احتشدت وتكاتفت من أجل أن ترسم هذه الليلة كطعم من السراب. كانت تريد أن تُوهمَنا بأنها سماء مازالت مثمرة. لكننا لم نبكِ، ولم نندمْ. بل كنّا نشتهي أن نمسكَ بعقرب الساعة، وندفعه إلى الأمام بأقصى سرعة، كي يطلّ الفجر، وينتهي كل شيء.

رحنا إلى ضفّة النهر. فتحنا الشرشف، فانطلقت طيور الإبليس ضياء فوق النهر. كانت مذعورة، تتخبّط ويصطدم بعضها ببعض. وظلّت أصوات أجنحتها تتردّد للحظات، ثمّ حطّتْ على بنايات ضفَّتَي النهر، ومنها ما سقط

في الماء، ثمّ خرج مسرعاً إلى الضّفّة الطينية. خيّم صمت، وازدادت عذوبة الهواء. رمى سا شرشف الريش الأبيض إلى النهر، فطفى كشبح ميت.

كان الباص يشقّ طريقه بسرعة، وشمس عملاقة تخرج من الأفق صاعدة صوب المدينة التي تركناها وراءنا. لكنها لم تكن شمس دفء ولا ضوء ولا رمز ولا شفاء . كانت براكيناً صاعدة بإصرار فوق يوم جديد من أيّام شواء المدينة. من دون ندم أو خوف، راقبْنا الطريق بصمت.

بعد سيطرة الأحزاب الإسلامية على الحكم، صارت حياة المِثْلِيِّيْن في خطر أكبر. قرّرتُم الهروب من البلاد.

لا، نحن هربنا في زمن الدكتاتورية، كانت حياة المثْليّيْن في خطر أيضاً. كانت صدمة كبيرة بالنسبة لي رحلة عبور الحدود بطريقة غير قانونية. إنها تجربة قاسية ومؤلمة، ولا تشبه إطلاقاً ما تتناقله الاخبار والأفلام عن الحدود. مهرّبنا الأوّل من البلاد قادنا إلى الحدود الإيرانية التركية، وتركنا في واد عملاق. كنّا عشرة أشخاص. لم نفهم أوّل الأمر لمَ علينا الانتظار في الوادي. كانت السماء تُمطر بين الحين والآخر، ولم يكن لدينا ما يحمينا من الأمطار. كنّا منقوعين بالماء، متعبين ومذعورين مثل حيوانات أليفة مَنسية في العراء.

أفهم ما تعنيه. عبرتُ أنا طريق الجبال نفسه.

عرفنا لاحقاً أن المهرّبين (الصغار) يجمعون في الوادي ما لديهم من بشر وصلوا من أفغانسان وباكستان والعراق، ثمّ يسلّمونهم للمهرّبين (الكبار) الذي سيقودون القافلة بين الهضاب والجبال والوديان. بعد أن وصل عددنا إلى أكثر من ٤٠ شخصاً، سارت القافلة على بركة الله.

مهرّب يمشي في المقدّمة، وآخر في المؤخّرة. مشينا أسبوعاً تقريباً، إلى أن حدثت معركة الماء. في ليلة دامسة الظلام، كنّا نستريح في مساحة ضيقة بين جبلين. كان الماء قد نفد عند بعض مسافري القافلة. حاول شابّ بنغلادشي شرب الماء من قنّينة أحد الباكستانيين التي كان قد وضعها جنبه. ثار الباكستاني غاضباً، وتشاجرت القبيلة، واندلعت النار. حاول **سا** التدخّل لحماية البنغلادشي، فحذّرتُهُ، وقلتُ له أن يبقى على الحياد. تطوّر الشجار، وخرجتِ السكاكين. الباكستانيون الخمسة كانوا مُزوَّدين بالسكاكين، فتحوّلوا من حيوانات أليفة تمشي كقطيع خانع إلى ذئاب. انتقلتْ عدوى العراك بين أكراد العراق والإيرانيين. خرجت المزيد من السكاكين. عمّت الفوضى بعد أوّل طعنة تلقّاها شابّ كوردي في بطنه. لم يتمكّن المهرّبون من السيطرة على الوضع. راحت الذئاب المسلّحة تطارد النعاج الأليفة. فرّ كلّ بصوفه وجلده، وتبعثرت القافلة في الظلام. صرنا مجاميع صغيرة، اختبأنا في أماكن متفرّقة، وانتظرنا حتّى بزوغ الفجر. بحثتُ عن **سا**، فلم أعثر عليه. التقينا بجماعة ثانية (مسالمة)، وأخبرونا أن **سا** لدغتْه أفعى، ومات. أرجوكَ، لنتوقّف! قليلاً..

أكيد، آسف .

أنا، أوكي.. آسف.. تريد بعد قهوة؟

لا، شكراً.

اليوم هناك حفلة جيّدة في بار ضدّ التّيّار، إن أحببتَ نلتقي هناك، ونسولف أكثر، وأعرفك على صديقي الألباني.

عظيم، نلتقي هناك! من وقت طويل وأنا أريد أن أتعرّف على مدينة التامبريه.

سيُعجبكَ المكان كثيراً! وربّما تجري مقابلة مع حبيبي الألباني. تستمتع أنتَ في إجراء المقابلات.

لستُ متأكّداً تماماً! مرّات أفكّر أن الآخرين بالنسبة لي هم بمثابة مرايا سِحْرِيّة في فيلم فنتازي. تنظر إلى نفسكَ، فترى ملامحكَ وقد صارت كل الوجوه.

فلسفتي أنا: الحياة بخار.

يـزداد يقينـي أن العـراق دخـل طريقـاً مسـدودة. غـرور القـوّة العظمـى الأمريكانـي يحـول دون الاتّفـاق مـع الملالي حـول البعـير العراقـي، ولذلـك تتكاثـر عليـه السـكاكين. هكـذا هـي السياسـة دائمـاً. مسـاومات بازاريـة بائسـة عـلى حسـاب الآخريـن بالطبـع. أمـيركا غانغسـترية العشرينيـات كانـت بحـال أفضـل مـن حـال هـذه الدولـة العراقيـة الكسـيفة التـي لـم يبق تحـت سـيطرتها ولا حتّـى عـشرة كيلـو

مـترات مربّعـة... أنـا أكتـم الألـم عـادةً، ولا أريـد أن أحوّلـه إلى صراخ. لكـنْ، مثـل هـذا التصاعـد الجنونـي للقتـل، وقـد خُطّـط له بالطبـع، يُخـرِج حتّـى الملائكـة عـن أطوارهـا.

***

عزيـزي حسـن. كيـف الأحـوال عندك؟ كمـا تعـرف أنا متشـائم بطبيعتـي، ولا أميـل إلى التصديـق بالمعجـزات، كأن نملـك الخلـود، ويصـير كل إنسـان، لكنْ، بعـد هذه الحيـاة التافهـة، نموذجـاً باهراً للمثاليـة! قـد يكون هـذا محض شـعور يرافـق الحـال الصّحّيّة وكل هـذا السـوء الـذي يُنزلـه علينـا العالـم الخارجي.

في الـرأس شـتّى الخطط، لكنـي تركـتُ كل شيء، ورحـتُ إلى قراءة المسـكين ميخائيـل بولهاكـوف، ولا أعـرف إن كان مسـكيناً بالمعنـى التقليـدي. كان إلى آخـر لحظـة مـن حياته السـوداء سـاخراً، ووضع

يده المرتجفة قليلاً على (موطن الداء). في الحقيقة هو أستاذي إلى جانب سقراط وغوغول وبيكيت في (تفلية) الإنسان، لكنْ، ليس بدون محبّة.

***

هناك متع صغيرة، أكيد أن قناعات صغيرة أيضاً ترافقها، كنوع من المواجهة، بل التحدّي، لهذه الخيانات كلها التي تحاصرنا: خيانات الجسد والآخرين والربّ، وقبل كل شيء خيانات العقل الذي هو مَخصيّ منذ ملايين السنين، ولا يُدبِّرأموره مع هذا العالم الذي يطرح، كأيّ جهة شرّيرة، ألغازَه، وفي كل ثانية... هذا ما توارد إلى ذهني بعد قراءة رسالتكَ الأخيرة التي تكلّمتَ فيها عن قصّتي (الجحيمان). هي قصّة كنتُ قد نسيتُها تماماً في أثناء الحمّى اليومية... في الحقيقة كنتُ قد بالغت في (نفض) الغيظ، لدرجة أنه كان يحاذي الاشمئزاز...

***

براميل

كنتُ جالساً على ضفّة البحيرة أقرأ في كتاب (بعد طول تأمّل) لبول ريكور. اقترب رجل كحوليّ، وجلس قربي على المصطبة.

The man: where are you from?
me: Iraq!
the man: oh, I have a friend married with an Irani-
an.
me: where are you from?
the man (smiling): I am from here... I am Finnish!
me: oh, I have a friend married with a Norwegian.
the man: joo
me: joo
the man: have a nice day. chao!

me: you too, chao!

تخرج بطّة من البحيرة، وتقترب منّي. إنها جائعة أو ربّما لديها رأي في مسألة ما! أتذكّر بالومار في فصل (كيف تتعلّم أن تكون ميتاً): يعزم السّيّد بالومار على أنه، منذ اليوم، سيتصرّف كما لو أنه ميت، ليرى كيف سيسير العالم من دونه. فقد لاحظ منذ بعض الوقت أن الأمور بينه وبين

العالم ليست على سابق عهدها، وإذا بدا له لوقت مضى أن واحدهما، هو أو العالم، يتوخّى شيئاً من الآخر، فهو ما عاد يذكر اليوم ماذا كان هذا المرتجى، خيراً أم شراً، ولا السبب الذي يجعل من هذا الرجاء حافزاً لاضطرابه وقلقه المتواصلَيْن.

تعود البطّة للبحيرة، فأقول: انتظري! وير آر يو فروم؟

جاو، تقول البطّة، وتسبح مبتعدة.

توقّفتَ لفترة عن التسكّع في البارات. تواصلتَ عبر الفيسبوك مع الأصدقاء والأقارب محاولاً الحصول على معلومات عن عمّكَ في القاهرة. فلوس المنحة خلصت! من الجيّد أنكَ اشتريتَ تذكرة السفر إلى القاهرة قبل أن تُجهِزَ على ما تبقّى من نقود في رحلة الشمال والكحول.

انشغالي في الفلم وتعلّقي بسارة ودعم إيميلات صديقتي عالية انتشلتْني من متاهة البارات والكحول. لم أنقطع عن الشرب نهائياً. صرتُ أشرب قليلاً من الواين حين ألتقي بسارة من أجل المتعة، لا من أجل إغراق كوابيسي بالسموم. لكن سفر سارة المفاجئ حرّك في داخلي رغبة السهر في البار. كانت علاقتنا تتوطّد، وأحلامنا تتلاقى. سافرتْ مع أصدقائها لممارسة هواية التسلّق في إسبانيا. سفر سارة برفقة خمسة شبّان مغامرين بأجساد رياضية، وفي حضن جمال الطبيعة الإسبانية كان كافياً لإثارة الغيرة في داخلي.

فكّرتَ في الاتّصال بماريا، لكنكَ تراجعتَ.

قرّرتُ أن أبدّد غيرتي في السهر في النايت كلوب. أنا وسارة كنّا قلقَيْن من فكرة العيش سوية. كنا في مرحلة اختبار مشاعرنا. حلقتُ لحيتي، وتحمّمتُ، ولم أعثر على تشيريت نظيف. ماما آنا كانت قد أهدتْني في

عيد ميلادي الأخير تشيريتاً أحمر مرسوماً عليه شبح رجل معلّق فوق كتفه مغذٍّ طبّيّ. مكتوب على صورة الشبح بحروف سود: الجندي المجهول. هو عنوان رواية شهيرة للكاتب الفنلندي فاينو لينا. الرواية كانت تتناول حرب الاستمرار بين الاتّحاد السوفيتي وفنلندا من وجهة نظر الجنود الفنلنديين العاديين. ارتديتُ الجندي المجهول، وذهبتُ إلى النايت كلوب. أنا أيضاً سأتسلّق الليلة مع الراقصين جبال الإيقاع! التقيتُ بأصدقاء عدّة. شفت فليامي، ثمّ التقينا بهيدي ونرمين...

دقيقــة واحــدة! قبــل الأصدقــاء في النايــت كلــوب، لــم تعــد أنــتَ تلتقــــي بماريا.

في يوم من الأيّام، كنتُ وحدي في بار الحاوية. اتّصلتْ ماريا، وسألتْ إن كنتُ أودّ أن أنضمّ إليهم. كانت تحتفل في بار الطوفان مع أصدقائها. كان الطوفان قريباً من شقّتي. أخبرتُها أنني أشعر بالملل في الحاوية، وبأنني سألتحق بهم قريباً. لا يمكن لماريا أن تعيش من دون الكثير من الناس من حولها. تشعر بالإرباك والملل سواء كانت وحيدة أو برفقة شخص واحد. تنطفئ وتتجمّد. لكنْ، مَنْ يراها وهي برفقة مجموعة من الأصدقاء لا يسعه إلا أن يشتهي أن يضمّها، وينام مع جمالها الأخّاذ. مع رفقة مجموعة، تتّقد ماريا وتضحك وتلعب وتمرح وتمازح الآخرين وتكسر كل قيود زنزانة الصرامة الفنلندية الكئيبة. درست ماريا التصميم. لم تكن لديها الطاقة الكافية للمنافسة في مجال العمل. تعمل الآن في مركز الاتّصالات لتلبية طلبات سيارات الأجرة. كلانا كان يعرف أن علاقتنا لا يمكن لها أن تدوم، وبقيت الأبواب مفتوحة للانسحاب، أو مواعدة شخص آخر. يجذبني إلى ماريا جنونها، وجمال جسدها الرائع المتناسق، خاصّة نهدَيْها وساقَيْها الرهيبَتَيْن. ذات يوم كنّا نتمشّى ليلاً على ضفاف البحيرة. تسلّقت ماريا

فجأة إلى غصن شجرة. وراحت تتعرّى فوق الغصن وهي تُلقي بثيابها لي قطعة قطعة. قالت، إن أردتَني، تعرَّ وتعالَ إلى الغصن. مارسنا الجنس فوق الغصن، ونحن نُطلق نوبات ضحك هيستيرية.

قبل أن ألتحق بماريا في بار الطوفان، جاء ميكو، وجلس إلى طاولتي. ميكو ممثّل مسرحي. قال الممثّل: موي! وراح يستمع إلى الباند الي يعزف الروك. أعرف ميكو منذ سنوات، وهو زبون مقيم في بار الحاوية. يحاول ميكو أن يخفي كآبته وعنصريّته الفجّة خلف إيماءة مبهمة مزيّفة. وكأن ملامحه رقعة من الكلمات المتقاطعة. تحتاج إلى القليل من الصبر والتخمين والقليل من التفكير لفَهْم مشاعره . هل هو سعيد، حزين، غاضب؟! بعض وجوه الفنلنديين وكأنها وجوه ميتة في لوحات. وجوه جميلة فارغة من المشاعر. وجوه العراقيين منفعلة ومتعبة. الحرب ترسم وجوهاً متآكلة. السلام ينحت وجوها فارغة. ما رأيكَ، سيّد بالومار، بهذه الأحكام العامّة؟! كنتُ أنتظر جواب بالومار، حين نطق ميكو من جديد (هل تستمتعون في بلدكم بمثل هذه الموسيقي؟..) ومن دون أن ينتظر جوابا، عاد لمتابعة الفرقة وهو يهزّ رأسه مع إيقاع الموسيقى. بعد سنوات، صار بإمكاني قراءة الممثّل الذي يبدو وكأن الظلام والتعليم الجيّد والرفاهية والكآبة والبرد حوّلوه إلى فيلسوف غامض. مثلي أنا الذي حوَّلني ظلام الحرب والقراءة والكحول إلى حالم غامض. لكن الممثّل كان مُجرّد ضرطة! وأنا مُجرّد مهرّج! لم يكن ميكو يتبادل الكلام معي كثيراً. مرّات كان يطرح أسئلته البرقية عن الهنا والهناك، ولا يكترث حتّى لإجابتي. مزاجي يتعكّر بسرعة حين تكون لي دراية بأفكار الآخر. ذهبتُ إلى البار، كرعتُ ٢ يالو، وأخذتُ بيرة، وعدتُ للجلوس قرب الممثّل. كنتُ أظنّ ساذجاً لسنوات طويلة أن كل مَنْ يقرأ كثيراً ويهتمّ بالمعرفة سيتحوّل إلى إنسان حُرّ عبر

مخيّلته، لا سجون قومية، ولا افتخار مقزّز، ولا عنصرية، ولا كراهية. كنتُ أظنّ أن كل كتاب هو رسالة حبّ عظيمة. رومانسيّتي السطحية تكسّرت خلال رحلتي. الكراهية والتفاهة وسوء الفَهْم طريق يمتدّ من بغداد إلى هلسنكي. في كل محطّة يختبئ قاتل. وفي كل زاوية هناك عنصرية ممكن لها أن تنفجر فجأة مثل لغم خرائي قديم، أو قنبلة سمّ موقوتة. لم أكن أتخيّل أنني سأعثر في فنلندا مثلاً على مَنْ يدرّس الفلسفة وهو عنصري أو فنّان مسرحي، مثل ميكو، عنصري بامتياز، وأفكاره نمطية عن العالم والآخرين. نطق ميكو من جديد (كم سنة أنتَ في فنلندا؟) بدأ رأسي يغلي، وفي مثل هذه الحالات، وبدل الانفجار بغضب، يعينني التنفيس من خلال اللعب بالكلمات. ميكو يريد أن يُعلّق من جديد، وللمرّة الألف، عن اللغة الفنلندية التي لا أجيدها بشكل يرضي لغته الأمّ، لينتشي. الكحول والتمثيل والحياة ليست كافية لثمالة ميكو. قلتُ له (سأحكي لك قصّة قصيرة جدّاً عن الضراط)، فتحتُ فمي، وبدأت الكلمات الضراط تخرج بسرعة من فمي من دون فكرة أو هدف أو معنى: كان الرجل يجلس على مقعد الخراء، ويضرط بعد أن رمى المفتاح في قعر المقعد. لم يكن يضرط بسعادة. ولا حتّى بألم. لم يكن يضرط برضى. كان يضرط. لم يكن يحلم، ولم يضرط بقناعة. لم يكن يضرط من الخوف. ولم يكن يسمع، كان يشمّ فحسب، وكان يضرط. ولم يكن يُبصر. لم يضرط هذه المرّة وهو يبستم، ولا من التعب. كان يضرط ورغبة وحيدة قد تحقّقتْ أخيراً من دون أن يدرك تماماً أنها تحقّقتْ. كان يضرط وجثّة مخنوقة تمدّ لسانها ميتة أسفل مؤخّرته.

نهضتُ، وخرجتُ من الحاوية.

في الباص، استمعتُ من الهتفون إلى هذيان لسام باغانيني(*). هذا العالم التافه فرنٌ يشوي روحي! أخذ الثلج ينزل بخفّة ونعومة، فراح غلياني يخمد تدريجياً. توقّفتُ عن سماع الموسيقى، وتأمّلتُ من نافذة الباص الثلج الذي يهبط وكأنه موسيقى مترنّحة مليئة بالحبّ والغموض الجميل. راحتْ عضلات ذهني تسترخي، وتختفي رغبتي في أن أكون عنصرياً حتّى النَّفَس الأخير: أن أكره البشر، لا بسبب الدِّيْن، العِرْق، القومية، اللون، الجنس، الثقافة، فقط كراهية مطلقة لجنس الإنسان.

وصلتُ إلى بار الطوفان. لعبنا الفيشة أنا وماريا ضدّ يوري ومينا. كان لعبي لا بأس به. لعبتُ كثيراً في طفولتي، لكن يدي اليسرى ضعيفة بعد أن بُترَتْ أصابعي في مطعم علي بابا. من كنت بعمر ١٣ سنة تقريباً، كنت أملك مع أخي فيشتين، نطلّع منهن مصروف الخضار لأمي، وطبعاً ثمن سجائرنا. كنّا نضع الفيشتين عند مؤخّرة السوق الشعبي. وكان الأولاد والمراهقون والأكبر منهم يأتون بالعشرات، ليلعبوا. كان علينا أنا وأخي إدارة الفيشتين ونحن مزوّدون بالسكاكين. لم يكن من السهل استحصال الأجرة من اللاعبين أو إنهاء المباراة. كانوا يغشّون، وهوايتهم المفضّلة هي العراك. كان المكان عبارة عن وكر للمخدّرات والنشّالة والمكبسلين والفرخجية والمجرمين. تأتي الشرطة في بعض الأحيان، تُفرغ جيوب المتسكّعين من النقود، تشتمهم، وترحل. فتعود مؤخّرة السوق إلى خرائها اليومي الطبيعي.

فزنا أنا وماريا فوزاً ساحقاً. خرجتُ أنا ويوري، وابتعدنا قليلاً عن الطوفان، ودخّنّا الماريهوانا. ثمّ التحقتْ بنا ماريا. ودّعنا يوري، وتمشّينا أنا وماريا باتّجاه شقّتي. كان مزاجها سيّئاً. سألتُها إن كان هناك ما يُزعجها،

---

*) Sam Paganini

لكنها لم تردّ. قبّلتُها من خدّها، وأدخلتُ يدي أسفل حزام بنطالها إلى ردفيْ طيزها. أبعدتْ يَدَيّ بقوّة، وقالتْ بخبث ((يو آر جست شتي هورني اس هول))، صحتُ في وجهها ((نعم، أنا مُجرّد زبّ منتصب، هورني خرائي.. وأنت؟ ماذا؟! كسّ بارد، أناني وتافه ..

((فك يو اس هول)) صاحت في وجهي، وغادرت باتّجاه موقف الباص. لحقتُها، حاولتُ أن أعتذر منها، لكنها رجتْني أن أتركها وشأنها. كرّرتُ اعتذاري، وحاولتُ أن أحضنها، أبعدتْني برفق. أذعنتُ إلى رغبتها، وتركتُها وشأنها. عدتُ مترنّحاً من شدّة السُّكْر والغضب.

إنه يوم الكراهية!! الكراهية وحدها هي القوّة الحقيقة القادرة على تخليص العالم من احتضاره البطيء. ضربتُ جدار البناية بقبضة يدي، فتألّمتُ بشدّة، وسال الدم.

غسلتُ يدي، وربطتُها بلفاف طبّيّ. تعرّيتُ، وارتميتُ على الكنبة. أرسلتُ لماريا تيكست مسيج ((آسف!)) انتظرتُ أن تردّ، لكنها لم تفعل. كتبتُ مرّة أخرى ((آسف، إني غبيّ حقّاً!)).

((إتس أوكي)) ردّتْ.

بقيتُ ساكناً أكثر من ربع ساعة، أحدِّقُ في سقف الغرفة، إلى أن رنّ هاتفي. ماريا على الفيس تايم. ثبّتُّ الهاتفَ في زاوية، بحيث لا يمكنني سوى أن أرى كسّها. راحتْ تداعب بَظَرَها، وقالت بصوت هادئ ويائس ((جيركنك ناو اسهول)).

كانت تعرف جيّداً ولعي الشديد بلعبة جات الفيديو هذه. مرّات كثيرة

حين تكون ماريا في الحمّام مع هاتفها، أتّصل بها من الغرفة المجاورة، وأطلب منها أن تبثّ لي مباشر، الكسّ الذي يبول. مرّة بثّت لي مباشر خرية حلزونية تخرج ببطء من زرف طيزها. ويوم من الأيّام، كانت لدى ماريا مقابلة في دائرة العمل. في أثناء فترة الانتظار، اتّصلتْ بي، وطلبتْ منّي أن أمارس العادة السّرّيّة مباشر. كنتُ في المقهى أقرأ رواية بول أوستر (رجل في الظلام). ذهبتُ إلى التواليت، أغلقتُ الباب، وبدأتُ البثَّ.

لم نعد نلتقي أنا وماريا بعد جات فيديو المني والبظر الأخير. التقينا مرّة صدفة في حفلة عيد ميلاد صديق. قبّلتْني من خدّي، وهمستْ بأذني (طيز جيّد)، كانت تلمّح إلى الفتاة التي برفقتي. أخبرتُها أنني روّضتُ زبّي، وبأنني على علاقة جيّدة بالفتاة، وأنا أحبّها كثيراً، واسمها سارة. قالت ماريا ساخرة (أنتَ تحبّ زبّك فقط، قحبة!)، وراحت للتعرّف على سارة.

فليامي وهيدي ونرمين في النايت كلوب.

تعرّفتُ على هيدي عن طريق كايسا مساعدة البرفسور. رشّحتْها كايسا لي لمساعدتي في التقديم إلى أكثر من جهة مانحة، من أجل مشروع الله ٩٩. هيدي فتاة لطيفة، تضحك من أعماق قلبها، وتبتسم وكأنها طفلة. ربّما يكون عمرها في أوسط العشرين. ملامحها عادية، وصدرها نافر بطريقة مثيرة. حدّثتْني هيدي كثيراً عن عملها مع اللاجئين في مركز اللجوء. كانت مَحشوة بعاطفة مبهمة كبيرة تجاه اللاجئين، وكانت تتحدّث عنهم وكأنهم كتلة واحدة، وليسوا أفراداً بشراً مختلفَيْن. سألتُها إن ما كان الفنلنديون كلهم يُشبهون بعضهم البعض كزيّ عسكريّ موحّد. ارتبكتْ، وحاولتْ توضيح قصدها لي، لكنها لم تتمكّن من الخروج من حلقة البديهيات حول اللجوء والإسلام والحروب. على الرغم من أنها كانت تعمل مباشرة مع

اللاجئين، غير أنها كانت تردّد ما تسمعه من وسائل الإعلام، باستثناء إضافة من عندها هي (أنا أعتقد!) كانت تستخدم مصطلح العالم الإسلامي بين جملة وأخرى بطريقة مضحكة، تقول (العالم الإسلامي) وكأنها تعمل في مختبر أبحاث إسلامي متخصّص في دماغ النبي محمّد، ولحية الله الخالدة! وهي التي لم تغادر حياتها فنلندا. أخبرتُها أن ما يسمّى العالم الإسلامي هو اختراع غربي، استثمره المتطرّفون الإسلاميون لصالح حلم، العالم كله مسلم، ولديه ربّ واحد. الناس في باكستان والمغرب والعراق وتركيا يعيشون في بلدان مختلفة، وحين يصلون إلى أوربا مثلاً، لا يقدّمون أنفسهم كمسلمين، بل كعراقيين وباكستانيين ومغاربة. أنتِ لا تقابلين شخصاً من تركيا، فيقول لكِ: نايس تو ميت يو، أنا مسلم! ثمّ سألتُها هل يوجد مثلاً طعام إسلامي، موسيقى إسلامية، رواية إسلامية، رقص إسلامي؟ أخبرتُها أنه هناك رقص مصري ورقص هندي ورقص عُماني وآخر تركي. هناك طعام تونسي وطعام إيراني وطعام موريتاني. العالم الإسلامي تبسيط من قِبَل الغرب لممارسة الهيمنة وعدم الدخول في التفاصيل التي تحتاج إلى جهد كبير لفَهْمها خارج حقائق الميديا، وخارج حقائق الميديا يمكن أن تتكشّف حقائق مؤذية ومخزية عن أنانية الإنسان وجشعه، خاصّة للذين يتفاخرون ليل نهار بأقنعة حقوق الإنسان وكرامته. وافقتْني هيدي على بعض الأمور، واختلفتْ معي في أمور أخرى. واصلتُ أنا كلامي، إلى أن بدأتُ أفقد التركيز على ما أقوله، وأستمع فقط لنبرة صوتي، فتوقّفتُ. يحدث هذا لي حين أشعر أن ما أقوله مُجرّد هراء، لا طائل منه!

كنتُ مع فليامي نلعب الفيشة ضدّ فتاتَيْن مِثلِيَّتَيْن حين جاءت هيدي مع صديقتها. أينما تواجدت الفيشة، في أيّ بار أو نايت كلوب، لم أكن طبعاً أفوّت الفرصة للاستمتاع باللعب. عانقتْني هيدي بحرارة، وتعارف

الآخرون. كان اسم صديقتها نرمين. وتعمل باحثة اجتماعية. انسجمتُ مع نرمين بسرعة. كانت تدخّن بشراهة. نريمن كردية من السليمانية، لكنها وصلت إلى فنلندا مع عائلتها وهي في الثامنة من عمرها.

رحنا نسكر أنا ونرمين معاً، ونخرج مراراً للتدخين والكلام في بالكون النايت كلوب. أطلقْنا أنا ونرمين النكات والأحكام القاسية على بلدنا والمجتمع والتخلّف الدِّيْني. حكيتُ لها عن إقامتي في مدينة السليمانية في فترة هروبي من بغداد. وحدّثتْني هي عن اشتياقها الدائم للسليمانية، فهي لم تزرْها سوى مرّة واحدة منذ أن عاشتْ عائلتها في فنلندا. رقصتْ هيدي مع فليامي. هو شابّ وسيم بشعر طويل مربوط، ونظرة حادّة. وهو صديق عزيز على قلبي. فليامي ليس ناشطاً ضدّ النازيين والعنصريين فحسب، بل هو كاره كبير لهم، ويؤمن بأنه يجب استخدام العنف معهم. سكرنا وشربنا ورقصنا. في التواليت، جاء شابّ يرتدي نظّارة شمسية، ووقف جواري يبول. سألني إن كنتُ أرغب في بعض المخدّرات. وافقتُ في الحال من دون تردّد، ولا من دون حتّى سؤاله عن نوعية المخدّر. بلع كلانا حبّة. ثمّ اختفى الشابّ.

رأيتَ الراقصين يدورون حول برميل فيه نار. كانوا ينزعون ملابسهم تباعاً، ويرمونها في البرميل، ويتصاعد شرر ملابسهم المحترقة. تنزع أنتَ الآخر ملابسكَ، وتُلقيها في النار، وترقص معهم.

كانت البراميل في صباي لعبتي. كان لدينا برميل نُخزّن فيه النفط لفصل الشتاء. نفط من أجل مدفأة ماركة علاء الدِّين. وبراميل ثلاثة لتخزين الماء الذي كنّا نحصل عليه من شاحنات بيع ماء الشرب. وكان هناك برميل آخر لتخزين الطحين. في برميل النفط، كنتُ أرمي قطعة بلاستيكية

صغيرة، من أجل أن يكبر حجمها بعد أيّام. وفي براميل ماء الشرب، كنتُ أُغافل أمّي، وأغطس فيها في حرّ الصيف. كان الماء شحيحاً طوال سنوات طفولتي ومراهقتي في بلاد براميل النفط. أسفل برميل الطحين كنتُ أخبّئ بعض الصور السكسية التي كنتُ أحصل عليها من الأولاد في الحيّ.

فتحتَ عينَيْكَ في شقّتكَ. حاولتَ تذكّر ما حدث. تفحّصتَ هاتفكَ. فليامي كان قد اتّصل أكثر من مرّة قبل ساعة. اتّصلتَ بفليامي، وفهمتَ. فجأة أخذتْ تهلوس في النايت كلوب. كنتَ في حالة ضياع تامّ، وبدأتَ بخلع ملابسكَ كلها. يقول فليامي إنه لا يعرف متى أخذتَ مخدّرات وأيّ نوع! تخربطتْ أموركَ، فأوصلتْكَ نرمين في التاكسي إلى البيت. وضعتْكَ في السرير، وغادرتْ بعدما اطمأنّتْ عليكَ.

اتّصلتُ مباشرة بنرمين، وشكرتُها. ضحكتْ هي، وردّتْ: اكل زين واشرب مي هواي واصحا .. الليلة اكو حفلة اندركراوند لا تفوفت.. سأكون أنا هناك في العاشرة .. سأرسل لكَ عنوان المكان في تيكست مساج.. يجب أن تأتي!

رقصنا كالمجانين، وضحكنا كثيراً، وأخذنا الأكستسي(*). في الرابعة صباحاً مشينا أنا ونرمين مسافة طويلة قبل أن نأخذ تاكسي إلى شقّتي. حدّثتْني عن طفولتها في السليمانية في كوردستان العراق. في كل ليلة كانت نرمين الطفلة تربط يدها بيد أختها الصغيرة بقطعة قماش. كانتا تخافان من اقتحامات رجال الأمن ليلاً بحثاً عن الفدائيين الأكراد. الطفلتان كانتا تتخيّلان أن قطعة القماش التي تربط يَدَيْهما ستمنع رجال الأمن من تفريقهما، لو أخذوا إحداهنّ. حدّثتْني نرمين عن اغتيال أخيها الكبير في

(*) Ecstasy نوع من أنواع مخدرات.

سوق شعبية في وضح النهار وأمام الناس. تسلّل أخو نرمين من الجبل الذي يقاتل فيه إلى المدينة. جاء لزيارة أمّه المريضة. توسّلتْ به أمّه أن يعود للجبل بسرعة، وأن لا يظهر مرّة أخرى في البيت. لكنه أصرّ للذهاب إلى السوق، وأن يشتري هو بنفسه فاكهتَهَا المفضّلة، متحدّياً الخوف والموت. تناثرتْ حبّات المشمش التي تحبّها الأمّ على الأرض، بعد أن سقط ابنها الفدائي وسط السوق المزدحم بثلاث رصاصات.

كانت نرمين كالإعصار. طلبتْ منّي أن أصفعَها بقوّة، وأقرصَها، وأعضَّها. نكتُها على الكرسي، وفي السرير، وكانت تصرخ من فرط اللّذّة. طاردتْني إلى الحمّام، وأنا أتبوّل، وناكتْني فوق مقعد المرحاض، وهي تتأوّه بصوت مرتفع. أصواتنا أزعجتْ نوم جاري مهندس النوكيا، فطرق بقوّة على الجدار. فضحكنا، وصمتْنا. ذهبنا إلى غرفة المطبخ بعيداً عن نوم المهندس. شربنا الماء، وطلبتْ نرمين أن أُدخل شمعة في طيزها. أخيراً حملتُها إلى السرير، ولَحَسْنَا بعضنا البعض، ونمنا. بعد شهر، سرّحوا جاري المهندس من نوكيا، وقرّر أن يبيع شقّته.

تُقبِّلُ جفنَيْها، فتفتح رمشَيْها كجناحَي فراشة.

((صباح الخير)) أقول.

تداعب نرمين شعر صدري ((أكملْ لي حكايتَكَ مع عالية وصديقكَ حبيب)) أحشر كفّي بين فخذَيْها الدافئَيْن ((ليس الآن، لنشرب القهوة أوّلاً)).

أرجوكَ، تقول.

(أوكي، سأحكي على شرط أن نمارس الجنس من الطيز).

(تقصد أن أُدخل في طيزكَ خيارة، أو موزة، إن كنتَ تفضّل!)

(لا، لا، أن أدخلَ خيارتي أنا في طيزكِ.. لو أنتِ تحبّين بس الشموع!)

تضحك هيدي، وتقول بعربية مكسّرة (اكل خره.. گواد.. ابو العيورة)

أضحك، وأُقبّلُها.

أوكي، اسمعي نرمين خان: كانت أمّي تظنّ أن المشي الكثير هو سبب ضياعي. وكنتُ أقول إنه رياضة جيّدة. وكانت أمّي تردّ: لا، أنتَ تمشي أكثر من اللازم، لهذا تفكّر أكثر من اللازم، دماغك سيتوقّف في سنّ مبكّرة، يجب أن تُريحه من الأوهام التي تغلي فيه. كانت أمّي مُحقّة. كان المشي يساعد على نمُوّ حشرات سِحْرِيّة دقيقة في رأسي. حشرات لطيفة تغنّي وتأكل من قشرة دماغي.

في طفولتي، كنتُ أمشي مع صديقي حبيب مسافات طويلة، كانت مغامرتنا هو أن نمشي حتّى نتيه في المدينة الكبيرة. نمشي حتّى نصل الأحياء الغنية البعيدة، حيث الناس لديهم بيوت كبيرة، فيها حدائق وسيّارات، والأولاد لديهم درّاجات هوائية. وحين نتعب أو نخاف، نسأل رجلاً أو امرأة، نكذب ونقول نحن أخوة، وقد تهنا من أمّنا. كان بعضهم يقلّنا بالسّيّارة، ويشتري لنا الحلويات. الأغنياء طيّبون، كنّا نفكّر، ليسوا كالأشرار في حيّنا القذر. دخلنا أنا وحبيب في السنة نفسها إلى المدرسة الابتدائية. كانوا جيراننا. وكان بيتانا بمثابة بيت واحد. كنّا ندخل ونخرج من دون استئذان. والد حبيب كان جندياً، وأبي كان جندياً. وأغلب رجال البلاد

كانوا جنوداً أو شهداء حرب. أمّهاتنا كنّ ربّات بيوت، يشاهدنَ في المساء المسلسلات الدرامية، المحلّيّة والعربية. ونحن الأولاد والبنات كنّا نحبّ المسلسل الأمريكي المترجم (البيت الصغير). أما نهارات أمّهاتنا، فهي طبخ وغسل وخياطة وتنظيف. لم يكن يسترحنَ سوى خلال مدّة عرض المسلسل الدرامي في التلفزيون. يشتغلنَ النهار كله، ويذرفنَ دموعاً كثيرة عن ظلم الحياة وقسوتها. حياة الرجال المحاربين، والتائهين في دهاليز معركة الخوف من المقدّس والمدنّس. طرطرة طرطرة، الحياة فرفرة! كان لحبيب ثلاث أخوات. وكانت أميرة أخته التي من عمري، هي حبيبتي. ترك حبيب المدرسة في فترة المتوسّطة، ليعيل عائلته. وقَلّتْ لقاءاتنا. كان يعمل طوال الليل في بيع السجائر في كراج لنقل المسافرين إلى مُدُن البلاد. أغلب المسافرين في الليل كانوا من الجنود الذين عليهم أن يلتحقوا بوحداتهم العسكرية. ابتكرنا أنا وأميرة في تلك الأيّام حلاً لتبادُل القبلات بعيداً عن عيون الرقابة المجتمعية الصارمة. أخذ كلانا يدّعي أنه يصلّي. كنّا نفيق معاً في ساعة مبكّرة بحجّة تأدية صلاة الفجر. لم يكن هناك أيّ من أفراد عائلتَيْنا يصلّي. لهذا كان الجميع يشخر، أو غارقاً في أحلامه وقت الفجر. كنتُ أعبر السياج إلى سطح بيت أميرة. نلتقي هناك بأمان، ونتبادل القبلات. تلعب هي بزبيّ، وألعب أنا بكسّها وحلمَتَيْها، إلى أن أقنعتُها ذات يوم أن أُدخل زبيّ في طيزها. كنتُ مرعوباً من فكرة فضّ بكارتها. ستحدث كارثة عشائرية لعائلتها وعائلتنا. الكسّ في البلاد مُغلَق ومُحرَّم، ويفتح أبوابه فقط في الزواج. لم أكن قد دخلتُ في كسّ حتّى دخولي الكُلّيّة. كانت هناك موظّفة شابّة أرملة تعمل في قسم التسجيل. أنقذتْني بكسّها المفتوح غير المغلق بشبكة العنكبوت. كان هناك الكثير من الجنس في السّرّ. وفي العَلَن كان الناس شرفاء محترمين،

كلّ يعرف حدوده. في الحقيقة، كنّا مثل القطط في الشوارع، ننيك بعضنا البعض مهما كانت الرقابة، كنّا ننيك حتّى الأقارب والمعارف، وكل ما هو حلال أو حرام، لكنْ، بسّرّيّة تامّة، ومن زرف طيز الخراء، لكي لا تُهان راية الأخلاق السوداء المقدّسة، المرسوم عليها كسّ وردي، تحميه شبكة عنكبوت. بعد موت أبي، ضرب زلزال الفقر حياتنا. لم يمت في جبهة القتال، قتلتْه الجلطة الدماغية وهو يستحمّ. بعد رحيل أبي، ترك أخوتي وأخواتي كلهم المدرسة، وراحوا يعملون في مهن شتّى، وناضلتْ أمّي من أجل أن تجد عرساناً لأخواتي، لكي تتخلّص من مسؤليتهنّ. أما أنا، فواصلتُ دراستي. أمّي قالت إنني لا أصلح للعمل، والدراسة أفضل لي! كانت تعتقد بأنه لن يصبر أيّ صاحب عمل على واحد مثلي، لو عيونه في كتاب، لو ذهنه شارد ليل نهار.

تعرّضتْ قبلات الفجر مع أميرة إلى تهديد، شكّ أخي باسم الذي يكبرني بعام في الأمر، وراح يدّعي المواظبة على الصلاة. هذا يعني أنه سيفيق معنا في الفجر. قلتُ لباسم: أدري أنت تعرف أني وأميرة لا نصلّي ولا هم يحزنون، ونتواعد بالسطح الفجر، بس علمود نتباوس. ادّعى باسم أن قبلاتنا لا تهمّه، وأنه يريد الصلاة لا غير. أنتَ تكذب، قلتُ له. وتقدّمتُ له بعرض: سأعطيكَ ٥ سجائر مجانية كل يوم مقابل التخلّي عن صلاة الفجر فقط، يمكنكَ أن تصلّي بقية الأوقات، وأدعو لكَ بدخول الجنّة. وافق باسم على عرض السجائر الخمس، وتلاشى تهديد اختفاء قبلات الأميرة في الفجر. ما كان يعذّبني هو صديقي حبيب. طوال سنوات وأنا أخشى أن يعرف حبيب بطريقة ما أنني نكتُ طيز أخته. كان حبيب أخي وخِلّي وصاحبي، كاتم أسراري ورفيق الضحك والكآبة. سمعتُ بعد سنوات أن أميرة تزوّجت، ولديها ثلاثة

أولاد، وزوجها رجل دِين متشدّد، يُؤذّن في الجامع.

تفرك نرمين فروة رأسكَ، وكأنها تحاول أن تخلط الذكريات فيه، ثمّ تندسّ أسفل البطّانية، وتمصّ زبّكَ.

أحاول أن أفسح المجال للهواء، ليدخل أسفل البطّانية، لكنها تعيد إحكام البطّانية على نفسها. نرمين غاطسة هناك، ولا أدري ما الذي يجول في ذهنها..أغمض عيني محاولاً الاستمتاع بفم نرمين. ليتها تفعل ذلك إلى الأبد! تخرج نرمين من أسفل البطّانية، تصعد فوقي، وتنيكني. تمرّ في ذهني صور لنساء عجائز عدّة. ثمّ صورة صديقتي عالية. أخيراً استقرّت في ذهني صورة الممثّلة الإنكليزية جودي دينش. أعصر نهد نرمين كَمَنْ يعصر ليمونة، وأقذف.

تشعر برغبة عارمة في الكتابة. تدخل نرمين إلى الحمّام، وتستحمّ. تُعدّ أنتَ القهوة، وتفتح اللابتوب.

تخرج نرمين من الحمّام وهي تلفّ صدرها بمنشفتي البنفسجية. تقف في إطار الباب، تنظر لي بمودّة، ورائحة الشامبو تفوح من جسدها.

(هل أنتَ مشغول؟).

أتظاهر بطباعة الكلمات (نعم، لديّ قليل من العمل!).

تُلملم نرمين ملابسها، أتجنّب النظر إليها. أطبع كلمة (ينمو)، ثمّ أشطبها، وأطبع (يحترق).

((أوكي، يجب أن أذهب الآن!)).

ألتفتُ إليها ((ما تشربين القهوة؟)).

لا، شكراً! تقول. تنظر في عينَيّ مبتسمة، وكأنها تهمس (أنتَ ابن قحبة حقيقي)،

باي.

باي.

ما إن تغلق نرمين الباب حتّى أشطب كلمة (يحترق)، وأطبع : قصص من أجل قلب عالية.

هراء!

أتوقّف عن الطباعة.

أشعر بالندم، لأنني عاملتُ نرمين فجأة بجفاء، وتركتُها ترحل بهذه الطريقة السخيفة. رغبتي في أن أكون وحيداً لم تصمد لخمس دقائق، ها أنا أشعر بالوحشة وعدم الطمأنينة من جديد. ما الذي أريده؟ الكتابة! خره على الكتابة وخره على كل شي. أشعل سيجارة. أتمدّد على الكنبة، وأستمع إلى نيك كيف(*).

---

*) Nick Cave.

البارحـــة انتهيــتُ مــن المرحلـــة الأولى مـــن العـــلاج الكيميـــاوي المُنهِــك. بانتظـــار المرحلـــة التاليـــة. لا أعمل شــيئاً ســـوى التقـــاط الأنفـــاس بعـــد التجربـــة الجحيميـــة الأخـــيرة. محبّتـــي.

***

عزيـــزي حســـن. رســـالتكَ مُـــسرّة حقّـــاً. هـــا أنـــكَ الآن في (ثقـــب أســـود) آخـــر، غـــير الأوربـــي أو العراقـــي... المهـــمّ في حياتنـــا أن نفتـــح أعيننـــا عـــلى كل مـــا في الداخـــل والخـــارج، فلربّمـــا نفهم قليـــلاً بعض (الأسرار). كانـــت لـــديّ عـــادة، لا أعـــرف لـــمَ تركتُهـــا الآن: حمـــل دفتر لتســـجيل أفـــكار وانطباعـــات اليـــوم. هنـــاك كتّـــاب يأخـــذون بهـــذه العـــادة. بحـــدود تجربتـــي، أفادنـــي الدفـــتر كثـــيراً. كنـــتُ أكتـــب فيـــه ملاحظـــات خاطفـــة عمّـــا أقـــرؤه، وأضيـــف مجتـــزءات أو شـــذرات، إلـــخ. الذاكـــرة، يـــا عزيـــزي، تتحـــوّل بسرعـــة مـــن خـــزّان ثمـــين إلى برميـــل نفايـــات. توقّفـــت عنـــد كلماتـــك عـــن الكتابـــة. صحيـــح أنهـــا مـــن صنف الغرائـــب شـــأن كل شيء، لكنها قدرنـــا، وإن كنّـــا لا نفهمه كثـــيراً. شيء آخـــر مـــن تجربتـــي: لا بـــدّ للكتابة مـــن أن تكـــون إدماناً، والتعامـــل معهـــا كنـــوع لعـــين مـــن أنـــواع المخـــدّرات. وهـــي نصيحـــة ذهبيـــة مـــن طرف مَـــن قـــال: اكتـــب واكتب، ثـــمّ اكتـــب، ولا يهـــمّ هنا موضـــوع النوعيـــة، فهـــذه تأتـــي فيمـــا بعـــد. أخـــذتُ أترجـــم شـــذرات عـــن الأدب. أقـــول هـــذا بصـــدد مـــا تقولـــه عـــن الكتابـــة: فيتولّـــد غومبروفتـــش عـــرّف الكتابـــة مرّة بهـــذه الصـــورة: حـــروف مجموعة

في كلمـات، تصطـفّ الواحـدة خلف الأخـرى، وهـذا كل شيء! بالطبع، يقصـد هـذا البولنـدي السـاخر بالفطـرة، أنهـا عمليـة آليـة، لكنها سرعـان مـا تتحـوّل إلى أخـرى تصلح للنـشر مثـلاً! وقد تتذكّـر بأني كتبـتُ مـرّة عـن نصيحتـه في الكتابـة: اكتـبْ عشريـن صفحـة بـلا توقّـف، ودَوِّنْ كل مـا يصل إلى قلمـكَ، وحتّى لو كان ترهـات أو لغطاً، ثـمّ اتـركْ الأمـر لوقـت آخـر، كي يسـتعيد هـذا كلـه (معقوليّتـه)...

***

عزيـزي حسـن. كان شـهر تمّـوز وكأنـه ثقـب أسـود، ألقيـتُ فيـه عـلى يـد ربّ تـرك الرحمـة في سـمائه السـابعة...أنا لا أبالـغ، فتدهـور الصّحّـة كان ويـزال بـلا توقّـف. في الحقيقة، أنـا بعيـد عـن الشـكاية، وقـد تتّفـق معـي بأنهـا مزيـة نـادرة في مثـل هـذا الزمن الـذي سـاوى هنا بـين المعـدَم والثـري ...

صرتُ أكتب وفق الحدّ الأدنى مفضّلاً التلوين والغرق في التفكير.

***

شـكري عـلى الرسـالة والمشـاعر التـي لـم أشـكّ أبـداً بصدقهـا. رغـم أنـي مـن النـوع المتشـائم الـذي لا يُرجـى صلاحه، أجـد أن الطريـق أمامـي ليـس مقفـلاً تمامـاً. فالصّحّـة غانيـة ذات نـزوات غـير متوقّعـة تمامـاً. أواصـل العـلاج رغـم أنـه مُتعِـب جـدّاً، ولـكَ أن تتصـوّر أنـه لا يمـرّ يـوم بـدون الابتعـاد عنـه. كابـوسي الراهـن الآخـر عـدم قدرتـي عـلى الحركة، بسـبب آلام الظهـر. وهنـا يبـدو الطّـبّ عاجـزاً، فالطبيـب أعطانـي فقط الحبـوب المخفّفـة للألـم...

هنـاك الكثـير مـن الأمـور التـي آسـف عـلى أن الوقت لم يسـمح لي بعملهـا. لكنـي لا أسـتطيع الشـكاية هنا كثيراً.

قصص من أجل قلب عالية

صعدتُ للشقّة سكران صاير خره. سارة نايمة. بلت، ورحت للثلاجة. خفقت بيضتين وية الطماطة بالطاوة. سمعت سارة تسحب سيفون التواليت، وترجع لغرفة النوم. أكلت، واني افكر بسفرتي للقاهرة بكره بالليل. فرغت الصحن في بطني وخلّيته في بطن غسّالة الصحون. دخلت للحمّام، وتأمّلت لحيتي بالمراية. كنت أشبه واحد طالع هسه من الجبهة لو واحد كان نايم بالسجن سنوات. فرشت أسناني، ونزعت ملابسي، وخلّيتهم فوق الغسّالة. دخلت جوّه البطانية يَم سارة. كانت تنام عارية. خلّيت إيدي على طيزها. البطانية مدفيته بدرجة حرارة سكسية مناسبة. تحسّرت هي، وحرّكت طيزها بعيداً عن أصابعي. ما إقدر أغامر بالكلام. راح يبدأ الموضوع من جديد. سكري وتذمّرها. كنت سأكتفي بشمّ شعرة كسّها ولحس بظرها وسماع نوتة الأوركازم. لم يمضِ سوى بضعة شهور على انتقالي للعيش مع سارة، حتّى لدغت أفعى الملل سِحْرَ الحبّ وشلت مشاعرنا تجاه بعضنا. ((أوكي، سيّد حسن بومة! تقصد فوضى حياتك!)) بالومار اللعين توقّف عن تأمّلاته الفلسفية، وتفرّغ لتفاصيل حياتي ((أعتقد أن ما أخفى الحبّ بينك وبين سارة هو ببساطة الهانكوفر الصباحي الذي تعيشه منذ سنوات، وليست تفاصيل العيش اليومية والملل. خدعة مسرحية قديمة هي تعليق ضياعنا على شمّاعة الآخرين. المشكلة الحقيقة هي أن الإنسان حشرة عمياء.))

U R just shitty asshole Mr Palomar. do you speak English? Ofcourse!

إلى كم لغة ترجموا تأمّلات ذهنكَ. هل تتكلّم الايطالية؟ طبعاً خالقكَ إيطالي! لماذا لا تخرس أنتَ؟! قلّلت كثيراً الشرب والبارات. لماذا لا تحكي عن برودتها ولا مبالاتها؟ سارة تحتاج ٢٣ ساعة و٤٥ دقيقة كل يوم لنفسها. وفي الخمسة عشرة الدقيقة المتبقّية من اليوم، يمكن فيها أن تتحدّث معكَ، أو تتذمّر، أو تنيككَ ببرود. كل شي عندها (برايفت): لديها لقاء خاصّ مع أصدقائها، تحتاج إلى وقت شخصي مع اللابتوب، تحتاج إلى الاستلقاء في السرير برفقة وقتها الشخصي، لديها حفلة خاصّة مع بنات عمّها، رحلة شخصية مع أصدقاء، هواية التسلّق الشخصية، كروبات الواتساب شخصية. كنّا نعيش في شقّة واحدة وكأننا طالبان ضجران، ننيك بعضنا مرّات لكسر الرتابة، ومرّات نأكل معاً، وننظّف مقعد المرحاض. لم يكن لسارة حتّى فضول بسيط لمعرفة ماضي حياتي وأهلي وأصدقائي. الحبّ بالنسبة لي ببساطة هو مشاركة المغامرة والحكاية. بالنسبة لسارة الحبّ هو مشاركة الإيجار وغسل الصحون وطبخ الطعام والتسوّق، وفي حالات نادرة، عندما تفيق من نومها فجأة، أو تسكر تكون بحاجة إلى حضن رجل! (أعذار من أجل مواصلة الغطس في برميل الكحول)، لمَ لا تقول إنني ببساطة أشتاق للوحدة التي أظنّ أن المخيّلة تزدهر فيها! (لا أصدّق هذا أيضاً!) طير بالومار من يمي هسّه أحسنلك وارجع لصمتك الحجري وتأمّلاتك الرومانسية! المشكلة الآن هي أني تركتُ شقّتي القديمة. لن يكون من السهل العثور على مكان جديد والإفلاس رايتي التي أرفعها. ربمّا أبقى في القاهرة، سواء وجدتُ عمّي أم لا! يمكنني أن أركّز طاقتي في الكتابة للصحف والمجلات العربية، وربمّا للتلفزيون. سأعيش من ما

أكتبه! سأهذّب كلماتي، ولن أقترب لا من قريب ولا من بعيد، لا من الله ولا من الجنس. سأتوب! سأكتب مراجعات للأفلام والمسرحيات المهذّبة، أو أكتب مقالات حماسية عن السياسة في صحف مموّلة طائفياً أو قبلياً أو سياسياً، أو ربّما أكتب عن الطبخات العربية الدسمة. سأؤلّف مسلسلات عربية طويلة عن عذاب الحبّ العذري. سأكتب بلغة عربية عذراء عن مواضيع عذراء، حتّى أدخل الجنّة، وهناك سأعيش عارياً وخالداً، أنيكُ في الحوريات الجميلات ليل نهار، وآكل وأشرب وأسكن بالمجان، من دون أكون بحاجة للكتابة والبارات والظلام والحبّ البارد المتجمّد. ماذا تقول إحدى أغاني الرومي ((لاتجزع من جرحكَ .. وإلا كيف للنور أن يتسلّل داخلكَ؟!)). أتفحّص هاتفي. أدخل في الفيس، وأذهب إلى صورة صديقي حبيب، وأتأمّل ملامحه النقية والبريئة. سارة تذهب للتبوّل مرّة أخرى. أشعر أنها إشارة لبدء شجار ليلي قصير وخاطف. سيسقط فيه أحدنا باللكمة القاضية، وينام مكسوراً، حالماً بحبّ أكبر وأعمق وأجمل! وقبل أن تبدأ الجولة، يخطف الرومي من جديد في ذهني مثل نيزك: ما تبحث عنه .. يبحث عنكَ!

كان يا مكان إيميل من حبيب.

قصّة واحدة مسمومة، وينتهي كل شيء. قصّة حادّة مثل سكّين، طعنة قوية في شبكة الدماغ، ويتوقّف قلب العجوز. أرجوكَ، حسن، ساعدني! لا أريد أن أُذبَحْ. هل تعلم ما الذي فعلوه بصديقنا عمران؟ أنتَ تذكره، ابن الفيترجي. هذا الولد الحبّاب إلي كان يطيّر ٢٤ ساعة طيرات ورقية بالسطح. زرفوا قلبه بدريل كهربائي، وطلّعوا عيونه وشمروه في المزبلة. يمكن ما تذكره زين؟! إذا تذكر مرّة بالمدرسة الابتدائية استاد قادر أو أستاذ

قندره جلد عمران بحزامه، لأن ما كان حافظ جدول الضرب. خوات الگحبة خلصاناها ضرب وكتل وحروب وذبح، ويريدونه نفهم الرياضيات بالضرب. اسمع حبيبي، قبل أيّام اشتريت هواي كتب من شارع المتنبي، بس بعدني تايه! ما ادري شنو اختار ومنين ابدأ. أنتَ فنّان، وطول حياتك كنت صاحب مخيّلة، تحلم وتفكر وتكتب! أنتَ الوحيد الذي أثق به، ويقدر يساعدني. أعرف أن ما أتخيّله وما أطلبه منكَ جنون، لكنْ، هل يقارن بجنون هذه الحروب الأهلية الوحشية التي لا تتوقّف؟! القصّة الأخيرة التي أرسلتَها لي ما فادتْ. اعذرني، بس حسّيتْ انت تضحك منّي بقصة آكل الجراد. العجوز غطّت بالنوم، وشخرت قبل أن تسمع نهاية القصّة. أحتاج إلى قصص مثل قصّة الصّيّاد الياباني، قصص تلتفّ على أنفاس العجوز مثل المشنقة.

مشتاقلكْ هواي صديقي!

يا ريت قصّة قوية واحدة تريح العجوز من مرضها، وتريحني من هذه البلاد الجايفة ..

بوسات وعناق

نرجع إلى بداية السالفة.

يوم من الأيّام، اتّصل بي صديق عمري حبيب، وسولف لي على السكايب. طردوا عائلته من بيتهم، بسبب الطائفية الخايسة. إجوا أهل حبيب إلى بغداد، وعاشوا على أطرافها في خرابة في حيّ عشوائي. رايات الأحقاد العشائرية والدِّينية سحقتْ حياتهم، وبصقتْ فوقهم.

حبيب راح لابن عمّ أبوه، التاجر الغني صاحب معارض السّيّارات في

العاصمة، يطلب مساعدة. يقول حبيب: انطاني شوية فلوس، وطلب منّي أن أزوره في البيت. فد واحد أخ قحبة وبخيل وحقير. رحت له مرّة ثانية للبيت بعد أسبوع .مو بيت گواد عنده قصر! استقبلني بحرارة، وصاح على بناته السّتّة، كلهنّ لابسات أسود ومحجّبات وسمينات. سلّمتُ عليهنّ، واني حاصرتْني الضحكة على مظهرن، عبالك سرب غربان سمينة. راحن، اختفت الغربان في غرف القصر الكبير. دخلنا إلى غرفة (أبو صباح) الخاصّة والمحرّمة على بناته. مخلّي شاشة كبيرة على الحايط، وما يتفرّج بس على رقص الكاوليات. قدّم لي الويسكي وسجارة. سولف لي عن أمّه العجوز، وقال هي بمثابة جدّتي. العجوز تعيش في بيتها الريفي على أطراف بغداد، وهي عندها مزارع وحقول ورثتها عن أبيها. العجوز، واسمها عالية، تعاني من شتّى أمراض الشيخوخة. يقول قريبي إنها على وشك الموت، وتحتاج إلى مَن يعتني بها مقابل راتب شهري. وهو لا يجد شخصاً أنسب منّي لرعايتها، حسب كلامه. ثمّ شكى لي من عناد وقسوة عالية، فالأراضي الزراعية التي تملكها لا تدرّ سوى حفنة من النقود خاصّة وأن البلد اليوم يعتمد على الفواكه والخضروات المستوردة من دول الجوار. شركة أجنبية كانت ترغب في شراء مزارع العجوز، لتبني عليها مجمعاً سكنياً فاخراً وحديثاً. والعجوزعالية كانت ترفض بيع أرضها. وافقتُ أنا طبعاً على عرضه في العناية بأمّه مقابل الراتب الشهري التافه الذي عرضه عليّ. كان يعرف نيّتي في جمع المال من أجل الهروب من البلاد. أراد سجني في بيت أمّه حتّى أحقّق له هدفه القذر. المهمّ، رحتُ إلى بيت عالية. عجوز حبّابة وهادئة، وما تطلب أشياء كثيرة، وغارقة في عزلتها ومرضها. بيتها كبير وبأثاث بسيط ومتواضع، المثير في البيت هو المكتبة الضخمة التي كانت تحتوي على كُتُب بعدة لغات. بعد أسبوعَيْن من استقراري

في بيت العجوز، جاء ابن عمّ الأب لزيارتنا. سألني عن أحوال أمّه، فقلتُ، إنها امرأة طيّبة وهادئة، ولا تريد منّي سوى أن أقرأ لها من بعض الكُتُب قبل أن تنام. لم تكن إقامتي مع العجوز مُتعِبة مثل ما كنتُ أتخيّل. أقدّم لها الدواء في مواعيده، وتأتي بنت شابّة، اسمها هند من القرية المجاورة، تطبخ لنا، وتنظّف البيت، وتغسل الملابس. وهند هاي فد وحدة تخبل من الجمال، وقعتُ في حبها من أوّل نظرة. بذاك اليوم، دخل أبو صباح على أمّه في الغرفة، وسدّ الباب وراه. تنصّتّ عليه، وسمعتُهُ يصيح ويشتم الله، ويضرب كفّاً بكفّ. لم تتفوّه العجوز بكلمة. ظلّ هو مثل ثور هائج يصرخ ويكفر ويحاول يُقنعها تبيع الأراضي. طلع من الغرفة والعَرَق يصبّ من وجهه. دخل المطبخ، وغسل وجهه بالمغسلة، وصاح عليّ، وطلب منّي أجيب له خاولي نظيف. نشّف وجهه، وقال هاي عالية أمّه راح تخبله، وهي فد وحدة عنيدة وقاسية. واتّهمها بأنها كانت السبب وراء موت أبيه مبكّراً، بسبب غرورها وأنانيّتها وقسوتها. هدأ شوية، وطلعنا وتمشّينا في بستان البرتقال. اسمع حبيب، قال التاجر: أعرف أنكَ تريد هجر هذا البلد الخرائي. راح أساعدك بطريقة ما تتخيّلها. قلت لي إنكَ تريد الذهاب إلى لندن، أوكي، يمكنني أن أودّيك إلى أيّ بلد تريد. أدفع لك كل مصاريف تهريبك بأسهل الطُرُق، وأشتري لك فيزا مزوّرة مظبوطة. وراح أعطيك فلوس تخلّيك تبدأ بمشروع تجاري، وما تعيش مثل لاجئ تعبان. بس ثقْ بي، وساعدني! أمّي على أبواب القبر، يعني كم شهر يمكن تعيش؟! يمكن تموت بكره أو في أي لحظة. شتريد عالية بعد؟! أخذت حصتها من الدنيا، وعاشت حياة حلوة ورائعة وبالطول والعرض. طوال عمرها كانت امرأة ذكية، وسافرت إلى كل بلدان العالم. بقاؤها في الحياة اليوم مُجرّد عذاب لها ولي أيضاً. ربّما الموت بالنسبة لها رحمة. يا ربّ، ارحمني وارحمها!

ما الفرق إن ماتت اليوم أو بعد شهور. الفرق الواقعي والحقيقي هو أن الشركة الأجنبية لن تنتظر طويلاً، وهناك عشرات الأراضي الزراعية التي يمكن أن يشتروها ويبدؤوا مشاريعهم. الفرص في هذا البلد لا تأتي كل يوم. كل عدّة سنوات ندخل في عاصفة حروب وخراب جديدة. الفلوس هي طوق النجاة الوحيد لنا. تفهمني حبيب! إوعدك راح أخصّص راتباً خاصّاً لعائلتك مِنْ تسافر. بس أريدك تساعد أمّي على الرحيل! سأضمن بأن لا أحد سيشكّ بأمركَ. البلد في فوضى عارمة. حرب أهلية وخراب وموت. الأطفال والشّبّان يُذبَحون بلا رحمة كل يوم بالعشرات. مَن سيهتمّ لموت لعجوز تعاني من أكثر من مرض مميت، وشارفت على الثمانين. ثمّ طلّع من جيبه كومة فلوس، وخلاها بجيبي، وواصل كلامه: لن يجرؤ أحد على مَسّ شعرة واحدة منكَ! أشعل سجارة جروت، وقدّم واحدة لي، وغادر.

كان يريد منّي أن أقتل أمّه، لكي يستولي على أراضيها. كانت لديه أخت واحدة، وأنا متأكّد أنه سيخدعها، وسيرث هذه الأراضي كلها. بقيت شهراً كاملاً في منزل عالية أفكّر في كلامه. كان مُجرّد التفكير بقتل العجوز يثير خوفي وقلقي. مع ذلك، طافت في ذهني عشرات الصور عن الطريقة التي يمكن أن تُقتل فيها العجوز. أكثر صورة كانت تخطر في بالي هي صورة سينمائية شاهدتُها في أفلام عدّة، وهي خنق العجوز بالوسادة. قلّبت فكرة موت العجوز وحصولي على حُرّيّتي طوال شهرَيْن. لا أعرف كيف أشرح لكَ الأمر، لكنْ، بعد أن اكتشفتُ ولع عالية الطفولي والجادّ بالقصص، خطرتْ على بالي فكرة الموت النظيف بمفعول القصص! أنا متأكّد من إمكانية موتها عن طريق القصص، وهي بهذه الصّحّة التعبانة. المشكلة هي إذا ماتت حقّاً، ما أدري شلون راح أقنع ابن عمّ الأب، بأني أنا مَنْ قتلتها عن طريق القصص. في إحدى زيارته، أخبرتُهُ عن فكرتي عن

القصص. ظلّ يضحك مثل حمار ينهق، وسألني إن كنتُ أعرف ليش أمّه عالية تحبّ القصص. قلتُ، لا أعرف! ما انطاني جواب واضح. قال اسمع حبيب كل ما استعجلتْ أحسن. عالية تعبتْ من هاي الدنيا، ولازم تروح بسرعة إلى جوار ربّها.

طلعتْ براسه ألف ليلة وليلة.

لا أدري كيف ورّطتُ نفسي في لعبة حبيب. كانت خطّة صديقي الطّيّب هي، أن العجوز لا تتحمّل الانفعالات الشديدة، وهي تعاني من أمراض عدّة، وقلبها ضعيف، وحالتها غير مستقرّة. عالية مولَعة بالقصص بشكل جنوني كطفلة حسّاسة، حسب حكي حبيب. قلتُ له أكثر من مرّة إنني أتفهّمه، رعب الحرب الأهلية خلاه يدخل أجواء ألف ليلة وليلة، وقد اختلط عنده الواقع بالهذيان، فذهن الإنسان المرعوب ينشط دائماً باتّجاه الغرائبية. لم يوافقني حبيب، ألحّ وأصرّ، وقال إنه لا يطلب منّي غير أن أمنحَهُ فرصة، ولا يحتاج سوى مساعدته في اختيار القصص (حسن، انت كاتب، وأكيد مخيّلتك راح تساعدني!) تمام صديقي حبيب، أنا اللاجئ الذي أصابه العقم بسبب فايروس الرعب. أو أنا طبيب الأبقار الذي غرق في برميل الكحول، أم أنا مَن يرصّ الكلمات منذ سنوات طويلة، ويشيد قصوراً من رمال، لا تهمّ أحداً. لا، من الأحسن أن أكون أنا المكتبة والحريق الذي التهم قصّة الحرب والسلام. سولفلي على الدبّة! حبيب يعرف جيّداً ولعي بالكتابة والقراءة منذ أيّام الطفولة. كتبتُ في السجن، وكتبتُ في أثناء عبور الحدود، وكتبتُ وأنا سكران، وكتبتُ وأنا صاح. كتبتُ وأنا أشعر بالسعادة، وكتبتُ وأنا أشعر بالرعب. الكتابة كانت بالنسبة لي مثل حاجة الخراء والبول اليومية. أيّام دراستي الجامعية اختلطتُ بما يسمّونه

الوسط الأدبي والفنّي. كانت لي صداقات رائعة ومثيرة. لكني لم أكن أجرؤ على مشاركة نصوصي التي أكتبها مع الأصدقاء. كنتُ خجولاً، ولا أثق بما أفكّر فيه، ولا بما أكتبه. كنتُ متأكّداً أنه مُجرّد خراء! كلّما سُئلتُ عن العلاقة بين الطّبّ البيطري والكتابة، كنتُ أردّ بخجل مازجاً الجدّ بالهزل (أنا لا أحبّ الحيوانات كثيراً، لكني أثق بها، وأحبّ الناس، لكني لا أثق بهم). هربتُ من البلاد، بسبب تعبي من القهر والظلم والفقر والحروب وانعدام المساحة لأبسط الحُرّيّات الشخصية. هربتُ من نار بغداد إلى ثلج هلسنكي. هربتُ من أجل أن أحرّر حواسّي وجسدي من الزنزانة العنيفة والمعتمة. كنتُ بأمس الحاجة للنور والسماء. كانت رحلة الهروب مؤلمة وقاسية جدّاً. وصلتُ إلى فنلندا وكأني فريسة مزّقتْها ذئاب جائعة. ولم يكن لديّ سوى دوائي القديم: الكتابة! الدواء المخدّر السِّحْرِيّ والعجيب والمثير الذي رافقني منذ أيّام طفولتي، منذ أن جرحتْني وحرّكت مخيّلتي دروسُ الحياة الأولى. كتبتُ وكتبتُ وكتبتُ. وغرقتُ في المخيّلة، وداويتُ جروحاً، وفتحتُ جروحاً أخرى عديدة. كانت صديقتي عالية قد أرسلت لي، من قبل، مقطعاً لسيوران عن الكتابة، كنتُ أحفظه وأردّده كأغنيّة: ليس لديّ رغبة في الكتابة إلا حين أشعر بأني سأنفجر، حين تسيطر عليّ الحمّى ونفاد الصبر، حين أستعيد الوعي في الجنون. أكتبُ كي أسوّي الحسابات، وتحلّ الشتائم محلّ تبادل الضربات. يبدأ الأمر عادة هكذا: رجفة خفيفة متصاعدة، كما الحال بعد الإهانة التي تقبّلناها بصمت. الكلمة المكتوبة شبيهة بالرّدّ المتأخّر، أو عمل عدواني مؤجّل: أنا أكتب كي لا أنتقل إلى الفعل، كي أتفادى الأزمة. الكتابة تأتي بالراحة، إنها انتقام مَنْ لا يعرف كيف يتحمّل الخجل، وفي الكلمات يتمرّد على نفسه وأخوته. الحنق ليس ردّ فعل أخلاقياً، بل أدبياً، بل هو مصدر وحيٍ. والحكمة؟ إنها

العكس بالضبط. الحكيم فينا يُدمِّر قوانا الحياتية، وكما المُخرّب الذي يجعلنا صغاراً ومشلولين، إنه يتربّص بالمجنون المختبئ فينا، كي يُهدِّئه، كي يفضحه، كي يخزيه. الوحي هو اضطراب مفاجئ للتوازن، لذّةٌ غير محدَّدة نابعة من التأكيد على الذات أو تدميرها. كل ما كتبتُهُ كتبتُهُ وأنا محموم. لكني عَدَدتُ طوال أعوام بكاملها بأنني الإنسان الطبيعي الوحيد. هذه الغلواء كانت مُنقِذَة: سمحت لي بتسويد الورق. كنتُ أتوقّف عن الكتابة حين تهمد نوبة الجنون، وأقع ضحية التواضع المضيِّع، والقاتل للحمّى التي تشعّ بالحدس والحقيقة. أنا لا أستطيع الكتابة إلا حين أفقد، للحظة، الإحساس بالإضحاك، فأنا أعدّ نفسي العليم القدير.

من فنلندا أرسلتُ قصصي للصحف والمجلات العربية. لم تلائم قصصي مقاييس النشر عندهم. في مناسبات قليلة، نشرتْ لي بعض الصحف، لكنْ، بعد أن اقتطعوا بسكّين الرقابة العربية من لحم (القصّة) حفاظاً على شرف وتقاليد القبيلة. كانوا يخشون أن تثقب القصصُ غشاءَ بكارة الثقافة العربية الي حوّلوها بالسيف والدم إلى ثقافة عذراء (خوش سالفة، يا بو لحية، خوش سالفة، خوش سالفة، يا بو خرية، خوش سالفة.. مفجّر نفسه بسوق الطماطة مسوّي من الناس دم وزلاطة .. خوش سالفة، يا بو خرية، خوش سالفة .. مفجّر نفسه بسيّارة .. رايح للجنّة بطيّارة .. خوش سالفة، يا بو لحية، خوش سالفة) غَنِّ، فإني أحبّكَ أن تغنّي! المهمّ، الكلام ما يخلص! تجيك السالفة. فهمني حبيب، إن فكرة إيقاف قلب العجوز عن طريق القصص أجت في باله في ليلة كان يقرأ فيها لعالية قصّة لكاتب عراقي. العجوز تفاعلت مع القصّة، بشكل غريب، يقول حبيب، راحتْ تتنفّس بصعوبة، ثمّ أخذتْ تتعرّق وتتلوّى في فراشها وكأنها مصابة بالصرع. هدأت العجوز أخيراً، وطلبتْ من حبيب أن يغادر الغرفة. لا تتأثّر العجوز

حين يقرأ لها الروايات، وهي تفضّل القصص القصيرة. الروايات تجعلها تنام، أما القصص القصيرة، خاصّة القوية، حسب رواية حبيب، تخلّيها تفتح عيونها مثل البومة، وتبدأ بالتركيز وكأنها تذوب في عوالم القصّة. يكرّر حبيب ويؤكّد لي في إيملاته أنه متأكّد من إمكانية رحيل العجوز عن هذا العالم عن طريق قصّة قوية!

أرسلتُ له في البداية بضع قصص، اخترتُها من النت. لم أرسلْ له أي قصّة من قصصي القديمة وغير المنشورة. ظننتُ أن ما يفكّر به مُجرّد نزوة عابرة، بسبب فوضى حياته. فكّرتُ أنه سيتخلّى عن خطّته الطفولية الساذجة قريباً. لكن حبيب واصل الطلب على تزويده بالقصص. ثمّ راح يخبرني عن تأثير مفعول كل قصّة على قلب عالية. قصّة تخلّيها تملّ، وأخرى تخلّيها تشخر وتنام، وقصّة تثيرها وتحرّك مشاعرها. ماشيتُه في طلباته، ولم أصارحْه عن حقيقة غباء فكرة تعذيب امرأة مسنّة بهذه الطريقة. حاولتُ أكثر من مرّة أن أحثّه على أن يتخلّى عن خطّته. ولم تكن لديّ طريقة سوى السخرية من سلاحه الشهرزادي. كنتُ أخشى أن أجرحه. أفهم جيّداً ما هي ظروف حياته وحياة عائلته البائسة التي أوصلتْه للتفكير بهذه الطريقة.

ولدت قصص الأبقار.

ماذا لو ماتت حقّاً العجوز عالية عن طريق القصص؟! مَن سيكون القاتل الحقيقي، القصص أم الحكواتي حبيب أم المؤلّف؟ لكنْ، ماذا لو ماتت العجوز مثلاً وهي تختنق في حلمها بإحدى القصص؟ في الحلم يمكن أن يتضاعف مفعول القصص، ويمكن أن يتحوّل الحلم إلى كابوس خانق. هل سيكون حينها القاتل الحلم أم القصص؟!

تفاعلت العجوز مثلاً مع قصّة من رواند. قارنت القصّة مع قصّة صيّاد السمك الياباني التي كنتُ قد أرسلتُها سابقاً. فكلتا القصَّتَيْن أثّرتا كثيراً بالعجوز. قصّة رواندا مؤلّفها شابّ. بحثتُ عن الكاتب في النت، كانت قصّته من ضمن مجموعته القصصية الأولى. أما قصّة الصّيّاد، فمؤلّفها من اليابان، وهو مؤلّف شهير، وحاصل على جوائز عالمية عديدة. أجواء قصّة رواندا عنيفة، وأحداثها متسارعة، تشبه فلماً دموياً هوليودياً. أما قصّة الياباني، فهي قصّة هادئة، غامضة، وتبدو وكأنها نصّ فلسفي مفتوح. لم أعثر على ما هو مشترك بين القصَّتَيْن، لكي يسبّب للعجوز التفاعل الكبير نفسه مع الأحداث والشخصيات. كيف يمكن لقارئ أو مستمع في حالة عالية، أن تخطف أنفاسه قصّة تأمّلية هادئة مثلما تخطف أنفاسه قصّة دامية وحشية؟ ما هو المشترك بين قصص العالم كلها؟ أوكي ... أوكي (الأفلام والأعمال الفنّيّة الجيّدة والأدب العظيم مَسّ جوهر الإنسان، وحرّك أسئلة جديدة...) ذاكرتنا مليئة بمثل هذه الأجوبة الجاهزة، لا جديد تحت الشمس! كل ما قرأتُهُ في كُتُب الأدب والمعرفة والفنّ، تحوّل بالنسبة لي بعد سنّ الخامسة والعشرين من عمري إلى مُجرّد هراء. بعد عام سأحمل رَقْم ٣٥ لأواصل ركل أوهامي في ملعب الزمن. في الماضي، كانت القراءة والأفكار تهزّ كياني، وتُشعرني بأن الحياة ساحرة وغريبة، ومن الممتع والمثير حقّاً أن يبحث المرء في غموضها المثير، ويصير لاعباً نشطاً في دهاليز الحياة وحدائقها وغرفها. أثارتْني تلك الأسئلة كلها التي ردّدها الإنسان ومازال مثل الببغاء. لماذا أنا موجود في هذا العالم؟ ما الذي تعنيه الحياة، الذات، الحُرّيّة، الموت، النسيان، قوّة المخيّلة والفنّ؟ الخالق الدِّيني أم الصدفة الكونية؟ هل نحن وحيدان في هذا الكون: الزمن، الوَهْم والحقيقة. تبدأ اللعبة بذهن طفل، تثيره

أسئلة الحيرة والشكّ والذات والكون، وتنتهي بزرف طيز في بركة الواقع الخرائية: لماذ تقصف أمريكا العراق، رعب الديكتاتورية؟ ما هو الحلّ لسطوة الدِّين الإسلامي، وحشية الرأسمالية، تدهور التعليم في العالم، العنصرية والحروب، الكراهية وعنف الإنسان؟

أخذتْ فكرة حبيب تدريجياً تدخل مخيّلتي، وأخذتُ أتسلّى بها بين الحين والآخر. خلال شهرَيْن، أرسلتُ له أكثر من ٣٠ قصّة، ولم تتأثّر العجوز سوى بقلّة من القصص. طلبتُ من حبيب أن يرسل لي كل ما يمكنه من معلومات عن حياة عالية. عملها، شبابها، طفولتها، وأن يعرف ما هي قصّة المكتبة الضخمة التي تملكها، وليته يحصل لي على صورة فوتغرافية لها. ربمّا تدلّني ملامحها وبعض تفاصيل حياتها للقصّة التي ستعجبها أو حسب حبيب، قصّة تُوقِف قلبها! كنتُ أفكّر في تصميم قصص خاصّة، تناسب مقاييس حياة العجوز. بقيتُ على تواصل مع حبيب، إلى أن بدأتُ بكتابة قصصي الخاصّة عن الأبقار. كانت سبعة قصص فنتازية عن اللحم المذبوح والطبيعة. فهمتُ لاحقاً أن البنت هنداً لم تكن تأتي لأعمال التنظيف فحسب، بل لمساعدة عالية في بعض الأحيان على طباعة ما كانت تمليه عليها. كان حبيب مغرماً بهند. وكان يقول لي بتردّد (ربمّا أبقى هنا من أجل الحبّ، وأنسى فكرة الرحيل)، ثمّ فجأة انقطعتْ كل وسائل التواصل مع حبيب، إلى أن كتبتْ لي عالية أوّل إيملاتها.

أودعتْ عالية مبلغاً كبيراً من المال في حساب عائلة حبيب.

لم أجرؤ طوال شهور من العودة إلى مراسلاتي مع حبيب. كان الإحساس بالذنب يمرّد روحي. لقد خذلت أعزّ أصدقائي، ولم أتمكن من مَدّ يد العون له. إيميل بعد إيميل، كان تفوح من كلمات حبيب رائحة اليأس

والأمل والهذيان. يكتب لي حبيب عن هند. يصف جمالها ورشاقتها، صوتها الهادئ ورائحتها الطّيّبة. يكتب عن حبّه لها وخجله الذي يمنعه من مصارحتها. في الإيميل نفسه يذكّرني حبيب بحادثة كنتُ قد نسيتُها تماماً، ويصفني بالمجنون (أبو المشاكل)! في سنوات المراهقة كنّا نجتمع لشرب البيرة في بناية مهجورة، نشعل ناراً، ونسكر. ذات مساء، كنتُ قد جلبتُ معي القرآن إلى حلقة الشرب والتدخين. سألتُ حبيب والآخرين عن تفسير بعض الآيات. كنّا ندخل في نوبات ضحك هيستيرية من التفسيرات العشوائية التي كان يفتي بها كل واحد منّا. أردتُ أن أختبر حدود قدرتهم على الضحك. رميتُ القرآن في النار. فرّ الجميع، باستثناء حبيب الذي وقف مذعوراً. فرّوا بسبب ذعرهم من قدسية الكتاب الذي يحترق. فقد يغضب الله، ويُرسل ملائكته وشياطينه، وربّما يهدّون البناية القديمة فوق رؤوسنا. حبيب كان مصدوماً ((أنتَ شيطان)) قال. تبوّلتُ على القرآن، فانطفأت النار ((نعم، أنا شيطان!)) قلتُ.

في إيميل آخر، يحكي لي عن محاضرة عالية. ذات ليلة طلبت العجوز من حبيب أن يتوقّف عن القراءة. كان يقرأ لها قصّة رومانسية من أستونيا. شابّ قرصان نت من عائلة غنية، كان يحاول الوصول إلى بنك روسي. وقع الشابّ في حبّ فتاة لاجئة من سوريا. كانت الفتاة محطّمة. خسرتْ أمّها وأختها الصغيرة في قصف الطائرات الروسية لقريتها التي كانت تحت سيطرة المعارضة. التقى القرصان الفتاة صدفة على الشاطئ. دردش معها، وانسجما مع بعضهما. عبّرت الفتاة للقرصان عن حلمها في الترحال حول العالم. تخلّى القرصان الإستوني عن محاولة اقتحام البنك الروسي، وأخذ الفتاة السورية بجولة حول العالم. تنتهي القصّة بمشاهد غير مترابطة وسريعة من بلدان عدّة. حانات وفقراء وشوارع ومتاحف ولصوص وسينمات

وحفلات ومظاهرات ومطاعم وجبال وبحار وصحاري وحيوانات وحشرات وأشجار وأطفال في الشوارع وأطفال في المدارس وسماوات تمطر وسماوات عقيمة. بعد أن توقّف حبيب عن قراءة (اللاجئة والقرصان) حدّثتْه عالية عن اللغة والأدب. يقول حبيب، كانت وكأنها تحاضر في جامعة، وكان جمهورها مروحة السقف. كانت تُحدِّق في المروحة التي تدور أذرعها بسرعة كبيرة، وفي عينيها ألق، وكأنها تتأمّل نجمة تدور في السماء. أخبرتْه عالية أنها تفضّل القصص العراقية باللهجة المحلّيّة. تعتقد أن القصص المترجمة من لغات أخرى ربّما تصلح لها الفصحى العربية في الوقت الحالي، إلى أن تتحرّر اللغة العربية من سجونها الروحية والجسدية. الفصحى تضفي طابع المبالغة والمثالية والرومانسية على أدب ينتمي لبيئة، مزّقها العنف والجهل والظلم منذ قرون عديدة. المخيّلة العربية تحتضر! منذ مئات السنين لم يتحدّث الناس بالفصحى. إنها ليست لغة مشاعرهم وهمومهم وأفراحهم. إنها لغة ميتة، لا تعبّر عن الواقع وحياة الناس وأفكارهم. ثمّ حدّثتْه عالية عن مشاكل اللغة وعلاقتها بالتعليم والسياسة. يقول حبيب إن كلام العجوز ذكّره بالمثقّفين في التلفزيونات الذين يتحدّثون ليل نهار من دون أن نتمكّن من فَهْم كلامهم. يقترح حبيب أن أحاول نقل بعض القصص من الفصحى إلى العامية، فربّما تؤثّر في العجوز. ويذكّرني بأن قصّة البقرة العنصرية التي أرسلتُها مؤخّراً له، أعجبتْ عالية كثيراً. ثمّ يختم إيمله ((لا أريد قصص تعجب العجوز أخ القحبة، أريد قصّة هروين، جرعة زائدة فقط))، وينهي جملته بأيقونة وجه شيطان مبتسم.

كنتُ أنانياً وقاسياً معه! كرهتُ نبرتي الساخرة التي تتكرّر في ردودي عن محاولته في النجاة عن طريق القصص. كم كنتُ سخيفاً! لو ما كنتُ أؤمن بما يتخيّله على الأقلّ كان يمكن أن أمنحه الأمل، وأن أسانده.

أرسلتُ له أكثر من ٥٥ قصّة اخترتُها من النت، بالإضافة إلى قصص الأبقار السبعة. لكنْ، كان عليّ بذل جهد أكبر في مساعدته. آخر إيميل منه، أرسل فيه صورة تجمعنا معاً في باب السينما. أذكر جيّداً يوم التقاط الصورة. كنّا للتّوّ قد بلغنا الثامنة عشر من العمر. حبيب وُلد في أكتوبر، وأنا وُلدتُ في أبريل في السنة نفسها. شاهدنا فلم رعب هوليووديّاً في السينما. شبعْنا ضحكاً في الصالة من سخافة مشاهد الرعب. ذهبنا بعدها إلى البار. تقيّأ حبيب وهو في طريقه إلى المرحاض فوق كتف رجل خليجي، يرتدي دشداشة. فطردنا صاحب البار. ذهبنا إلى نهر دجلة، وسبحنا. تمدّدنا على ضفّة النهر ندخّن ونخطّط لسرقة بنك. اقترب منّا خمس أولاد في أعمارنا تقريباً. قلتُ لحبيب، راح يتعاركون ويّانا! طلبوا منّا السجائر. أعطاهم حبيب خمس سجائر. قالوا له إنهم يريدون العلبة كلها. كان واضحاً أننا حتّى لو أعطيناهم علبة السجائر، فهم سيضربوننا. اقترب حبيب من أحدهم، وأسقطه بنطحة من رأسه. لكمني ولد طويل يقف إلى جواري في عيني اليسرى، فسقطتُ. عدنا إلى البيت والدماء تلطّخ قميصَيْنا الصيفيَّيْن.

العجوز عالية كانت مترجمة وكاتبة، نشرتْ نصوصها باسم مستعار (ع. م) منذ سنوات السبعينيات. درستْ عالية الترجمة في بولندا في شبابها، وسافرتْ كثيراً حول العالم. وكانت تجيد ٥ لغات أوربية.

عانت عالية في السنوات الأخيرة من هجوم شتّى الأمراض على جسدها. واجهت ذبول جسدها وآلامها بمواصلة الكتابة والتفكير والترجمة والاستماع إلى الموسيقى. قالت إنها واجهت من قبل (مرض الحياة) بنفس الأدوات، المخيّلة والموسيقى. كانت عالية تلجأ للرسم والتلوين في اللاب

توب عندما تضطرّ لملازمة السرير. في نهاية ستّينيّات القرن المنصرم بدأت عالية في نشر نصوصها. لكنّ الاستخفاف بما تكتبه من قبل (رجال الثقافة) كونها امرأة دفعها للنشر باسم مستعار طوال ٥ سنوات. أثبتتْ عالية مكانتها، وعرف الجميع أن المؤلّف الذي يُدعى (ع. م) هي عالية مردان. لقيتْ التقدير والاحترام، لا من أجل كتاباتها وترجماتها فحسب، بل ومن أسلوب عملها وحياتها، المتواضع والجادّ، بعيداً عن الأضواء والمنافسة والمشاحنات التافهة بين مهرّجي الوسط الأدبي والفنّيّ في البلاد.

ارتبكَ صديقي حبيب في أوّل لقاء له مع عالية. طلبتْ منه أن يختار من مكتبتها الضخمة كتاباً قصصياً، وأن يقرأ لها. حبيب ترك المدرسة في المرحلة الابتدائية، ولم يقرأ في حياته سوى كتابَيْن عن رياضة المصارعة. لم يقرأ له أحد في طفولته من كتاب، ولم يقرأ هو لطفل. حبيب كان طفل فوضى وقسوة الحياة. تقول عالية إنها ساعدتْهُ في بداية الأمر على اختيار الكُتُب. ذات ليلة كان حبيب يقرأ لها قصّة لكاتب محليّ من جيل عالية. الكاتب تحوّل من شيوعي حقير إلى بعثي حقير في سنوات السبعينيات من القرن الماضي. كان من أشهر كتّاب السلطة في زمن الديكتاتور. بعد أن تغيّر النظام في بغداد فرّ كاتب السلطة إلى الأردن. وأخذ يكتب قصصاً عن الإرهاب في العراق، قصصاً تعبوية حماسية وغاضبة من فقدانه امتيازات كاتب السلطة الأشهر. واصل حبيب قراءة قصّة كاتب السلطة لعالية. انتاب الذعر صديقي في اللحظة التي تبلغ قصّة الكاتب الذروة ((تستلّ عشيقة رجل الأمن السّكّين، وتطعن عشيقها في ظهره))، لم يفزع حبيب من ذروة القصّة، بل من العجوز التي راحت تتلوّى وتختنق بأنفاسها. تقول عالية إنها كانت تمزح ساخرة من ذروة قصّة الكاتب السخيفة والتافهة. لم يفهم حبيب المزحة، وظنّ أن عالية تفاعلتْ حقّاً مع قصّة عشيقة رجل الأمن

الخائنة. بعد أيّام تغيّر سلوك حبيب. صار أكثر اهتماماً باختيار القصص، وأكثر تركيزاً في القراءة. لفت ذلك انتباه عالية، ثمّ أدركتْ أنه كان يريد أن يختبر انفعالاتها تجاه القصص. لعبت عالية لعبة حبيب، وراحت تدخل في نوبات انفعالية بين قصّة وأخرى، حسب مزاجها الشخصي وجودة القصّة.

في البداية، لم أدرك نيّته الحقيقية، تقول عالية: ظننتُ أنه يتسلّى فحسب بنوبات انفعالاتي. أخذ حبيب يبحث عن القصص في النت بنشاط غير عادي، وراحت اختياراته للقصص تتطوّر تدريجياً. أثار ذلك فضولي. ثمّ بدأتْ تصل القصص عن الأبقار. سألتُهُ عن اسم كاتب القصص، فقال لي إنه كاتب عراقي شابّ، اسمه شورش قادر. لم أفهم دافعه حينها للكذب. ولا أدري أين التقط خالد اسم شورش. ظنّ أنني عجوز تحتضر، ولا أعرف الكتّاب الشّبّان. أنا أعرف الوسط الفنّيّ والأدبي جيّداً، لكني لا أتواصل سوى مع قلّة من الشّبّان عبر الإيميل. وكان شورش أحدهم، وهو الأعزّ على قلبي. كان شاعراً وطبيباً. في العقد الأخير من القرن الماضي، كان شورش يعمل في مستشفى للأطفال في بغداد. كان المستشفى عبارة عن صالة لتعذيب الأطفال، بسبب النقص الحادّ في الأدوية والخدمات الطبية، بسبب وحشية حصار الأمم المتّحدة. شورش كان يتعذّب من أجل الأطفال الذين كانوا يجفّون ويموتون، بسبب أمراض الإسهال التي تفاقمت. كان ردّه على مشاهد (تعذيب الأطفال) هو شرب المزيد من الويسكي وكتابة الشِّعْر. كان يحفظ كتاب أوكتافيو باث حُرّيّة مشروطة عن ظهر قلب. بعد سقوط الديكتاتور تزوّج شورش، وأنجب طفلة. ذات صباح أفاق مبكّراً. تناول فطوره مع زوجته وطفلته. دخل إلى غرفته، وشنق نفسه. وكل واحد من أصدقائه راح يضع تحليلاً شخصياً عن سبب انتحاره. حساسيته تجاه مسلسل خراب البلاد المتواصل، خيانة زوجية، كآبة الشِّعْر وسوداويّته. ولم تكن هناك من إجابة نهائية سوى موت شورش.

أخيرا ملّتْ عالية من لعبة حبيب، فواجهتْه. سألتْه عن سبب إخفائه الاسم الحقيقي لمؤلّف قصص الأبقار. اعتذر حبيب للعجوز بخجل ولطف، واعترف بأنني أنا مَنْ كنتُ أساعده. حكى لها عنّي وعن رحلة هروبي من بغداد إلى هلسنكي. سألتْهُ عالية عن سبب اهتمامه في انفعالاتها تجاه القصص. فانهار حبيب كطفل، ولم يتمكّن من مواصلة الكذب. حكى لها عن كل ما دار بينه وبين ابنها التاجر، وعن خطّته عن قتلها عن طريق القصص. تقول عالية: ضحكتُ كثيراً من خطّة حبيب حينها. كانت فكرته بارعة، وتصلح لرواية مسلّية. أنا أموت عن طريق الاختناق بقصة جيّدة وقوية، يبيع ابني الأراضي الزراعية إلى التجّار الأجانب، ويرحل حبيب إلى جنّة الغرب، هارباً من جحيم البلاد. لا أريد أن أتحدّث عن دناءة ابني. ما فات مات. أعرف ما الذي يستحقّه. سأترك له هدية مفاجئة حين أرحل عن هذا العالم الغامض. كنتُ قد وعدتُ حبيب بأن أعطيه النقود الكافية للرحيل إلى لندن. كان شرطي الوحيد هو أن يخفي عنكَ أمر معرفتي في اللعبة، وأن يواصل سؤالكَ عن القصص حتّى عودة المحامي من السفر، ليرتّب المبلغ لحبيب. لكن أبناء الله الضالّين لم يُمهلونا، ولا حتّى أيّاماً قليلة! لم تخنق قصص حبيب أنفاسي، بل موته هو مَنْ حطّم قلبي، وأحرقه.

كتبتْ عالية إيميلاً آخر، تقول فيه إن اختياراتكَ للقصص كانت تُعجبها كثيراً. وقصصكَ عن الأبقار مدهشة. قالت: أنا لا أعرفكَ، ولستُ بحاجة لمجاملتكَ. صديقي، أرجوكَ، واصل الكتابة. أنتَ وُلدتَ لتكون كاتباً! إن رغبتَ في التواصل معي عبر الإيميل، سأكون سعيدة جدّاً. ربّما أقرأ قصصكَ الجديدة، وأبعث لكَ نصوصي. يهمّني حوار كاتب مثلكَ.

كان حبيب قد ذهب إلى المدينة لشراء دواء العجوز، وتيشيرت جديد

له. أثار فضولَه دكّان صغير لبيع الكُتُب القديمة. بينما كان حبيب يُقلّب في الكُتُب باحثاً عن القصص، انفجرت سيّارة مفخّخة. قُتل ٤٦ شخصاً. احترق حبيب، واختلط رماد جثته برماد الكُتُب.

بعد موت حبيب، تواصلتَ مع عالية عبر الإيميل لأكثر من ٣ سنوات.

ألهمتْني مخيّلة عالية، وشُغفتُ بأفكارها، وتوطّدتْ صداقتنا. طبعاً، بعد أن تعرّفتُ على هوية مردان، تذكّرتُ الكثير من تراجمها. كنتُ أتابع مقالات ودراسات وقصائد عالية المترجمة منذ سنوات مراهقتي في مجلّة الثقافة الأجنبية. كانت المجلّة أيّامها متنفّساً كبيراً ومهمّاً للاطّلاع على الأدب العالمي. لكن قصص ونصوص عالية التي كتبتْها طوال عقود لم أكن أعرفها بشكل جيّد، فالنشر العربي كان بعيداً عنها. منذ عقود طويلة والنشر العربي نايم في واد، تسرح فيه الديناصورات. لهذا أخذتْ عالية منذ بضع سنوات بنشر كل نصوصها الجديدة والقديمة في الإنترنيت بمساعدة هند. لم تكن عالية قليلة الخبرة في النشر الإلكتروني والكمبوتر، مقارنة بمجايليها، وحتّى الذين يصغرونها سنّاً. هند كانت تقدّم المساعدة فقط حين تتدهور صحّة عالية. حدّثتْني في إيملات عديدة عن نفورها من النشر الورقي! كتبتْ لي عالية ذات مرّة: عزيزي حسن. صباح الخير. شيء جيّد جدّاً أنكَ تعمل في (نصوصكَ). أنا لا أستغرب إذا كانت عندكَ شكايات، فالمراجعة والتشذيب والتنقيح إلى آخر هذه الأعمال العبودية هي مكتوبة على الجبين، كما يقول المصريون (ربّما القائل غيرهم أيضاً). أما الشكاية من ناشري المستنقع العربي، فهي طبيعية جدّاً. لا أعرف ما أقوله هنا، فأنا رغم هذا العمر الطويل يبقى هذا النشر طلسماً مجهولا

عندي. في الحقيقة، أنا أفهم الناشرين من القطاع الخاصّ، أي الذين لا تدعمهم الدولة، فهم هنا لا يختلفون عن أصحاب الدكاكين الصغيرة، وليس الماركيتات الضخمة، ولأن النشر الورقي هو باب رزقهم. ولا أتذكّر إذا كنتُ قد حدثتك مرّة عن مشروعي مع صديق حول طبع ونشر كُتبُي وكُتُب الأصدقاء بجهودنا الخاصّة، وبالفعل، اشترينا المستلزمات من ورق وصمغ وآلة قطع، إلخ، لكن الصديق دخل بعدها في أحد (زواغيره)، ووضع المشروع في المجمّدة... بالطبع هناك النشر الإلكتروني ذو (المستقبل الوضّاء)، لكنْ، للنشر الورقي جاذبيته التي لا تُقاوَم خاصّة أننا، ولسنا نحن فقط بالطبع، لا زلنا مكبّلين بسلاسل الورق.

بعد موت حبيب بعام، بدأتَ بمشروع الله ٩٩.

في المرّات العديدة التي كنتُ أبرد فيها، وأرغب في التخلّي عن المشروع كانت عالية تزوّد ناري بحطب (إيملاتها)، وتعيد اللهيب في داخلي. بقينا أنا وعالية على تواصل شبه يومي طيلة تلك السنوات، إلى أن أرسلتْ لي هند إيميلاً تخبرني فيه برحيل ملهمتي العجوز عن هذه الحياة.

كان الوقت مساء، وكانت هند تقرأ لعالية قصّة عن بنت تطارد فراشة سوداء. نامت عالية، ولم تفقْ بعدها من الحلم. ربّما كانت عالية مردان تتساءل وهي غارقة في الحلم: هل أنا مَنْ كتبتُ قصّة الفراشة السوداء أم أنه مجرد حلم عن فراشة وبنت، أم أنني ميتة، والفراشة والطفلة مُجرّد قصّة يكتبها صديقي البومة عنّي؟

عزيـزي حسـن. بعـد أشـهر قلائـل، سـأبلغ الثمانين مـن العمر. وفي بلـدان معيّنة يسـمّى العقد مـن الزمن بالصليب، وهكذا سـأحمل ثمانيـة صلبـان! ظاهـرة حياتيـة واعـدة رغـم خيانـات الجسـد. الغريـب أنـي لـم أفقـد لغايـة الآن الكثـير مـن أفـكاري القديمـة: الإنسـان ظاهـرة فريـدة في الكـون، ومن هنا يسـتحقّ السـعادة، كل شيء غـير أبـدي، فنحـن في مشـكال متحرّك طـوال الوقـت. والقضية عنـدي أن أفلـح في خلـق محـور مناسـب لأفـكاري الرئيسـة كلهـا التـي جاءتنـي مـن التجربـة والتأريـخ. في هـذا الطـور مـن عمـلي ككاتـب تبقـى النظـرة ذاتهـا إلى الإنسـان سـواء أكان مـن بلـدي أو الأسـكيمو رغـم تجـذّري النفـسي والفكـري في العـراق. صديقـي حسـن، أنتَ تتّهم، ظلمـاً، بالتفنّـن في إظهارالقبـح والانحدارالدائم إلى الأسـفل. لا شيء مـن هـذا القبيـل! ففـي الأدب، بـل في مجـال حياتي كلهـا لا بـد مـن التعـارض، ونحـن لـن نفهـم ونتمتّـع بالجمـال، إذا لـم نعـرف القبـح. وحتّـى القبـح عنـدكَ، يـا حسـن، هـو آخـر، وينضـح إنسـانية، الأمـر الـذي أحسـده عليـه.

في هـذا العمر، صنعـتُ دروعي الخاصّـة بوجه المغالطـات والزيف الـذي يقع فيـه الكتّـاب بسـهولة بالغـة، ولحسـن الحظّ هنـاك مَن يتجنّـب مثـل هـذه الـشراك. كمـا أن هـذا لا يعنـي أنـي أغلقـتُ باب التعلّـم مـن تجـارب الآخريـن، فروائـح بيكيـت وكامـي وبورخيـس ونزارعبّـاس يمكـن تمييزها بسـهولة في قصـصي وغيرها.

دعنـي أقـول بـأن انعطافـات الزمـن لا تُبـدّل شـيئاً في محتـوى أسـئلتنا الدائمـة. نحـن هنـا في عالـم غـير مفهـوم حقّـاً، ولا أعرف هـل سـنكون فيـه أيضـاً، فالمصادفـات الكونيـة قـد لا تُتيـح لنـا الاسـتمرارية في الزمـكان. والأمثلـة عـلى هـذا أكثـر من كثـيرة (كان معلّـم الجغرافيـا يقـول: كارثـة كونيـة صغـيرة قـد تقطـع عـليّ هـذا الـدرس!). أكيـد أن الحيـاة في هـذه الرقعـة الجغرافية المسمّاة بالعـراق لا تعنـي اليـوم إلا سلسـلة لا تنقطع مـن الكـوارث - كبيرة وصغـيرة. أعترف بأنـي لا أميـل إلى الالتصـاق العبودي بالواقـع، وكل مـا أفعلـه التحايـل عليـه باجتـزاء رقـع صغـيرة منـه. وهـذا مـا يفعلـه كل كاتـب بالرغـم مـن الحقيقـة المؤلمـة عـن أن لا كاتـب يعـرف أبعـاد شـخصياته كلهـا وتواجدهـا في الزمـكان. فالإنسـان كائـن غريـب، وهاجسـه الدائم أن يخـرج عـن السّـكّة الحياتية التي اختارهـا، أو فُرضـت عليـه. كما أنـي لا أتصـوّر أن فوكنـر أو بيكيت أو حتّـى غوركـي لـم يُوقِظه مـن غفوتـه الفكريـة أو العقائدية أحد تلـك الأسـئلة اللعينـة : لمـاذا أنـا هنـا والآن؟! ومـا معنى هـذا العالم الخارجـي كلـه؟ إلـخ. بالطبـع ليس عـلى الكاتـب أن يملـك هاجس الوجـود وحـده، فبحكـم تورّطنـا بلعبـة المجتمـع والبـلاد والتأريـخ علينـا القيـام بتكبـير كل مقطـع، وليس مـن الحاضر وحـده (ليس هنـاك مـن فـرق جوهـري بـين بطـل غوغـول الـذي سرق معطفـه وبـين منتظـري غـودو ...).

***

النفق

في الطائــرة تقــرأ روايــة تانغــو الخــراب للهنغــاري لاســلو كاراســنا هــوركاي.

تُرجمَتْ الرواية حديثاً للعربية. المفروض أن تحطّ الطائرة بعد ساعة في مطار القاهرة. الرجل الذي يجلس إلى جواري يتلصّص على صفحات رواية الخراب. قريباً سيتكسّر جليده الفنلندي، ويسأل. ربمّا يحتاج إلى يالو! كم واحداً سيحتاج؟! خلّيت نسبة ٩٥ بالمية في رهان مع نفسي: راح يسأل إن كنتُ أقرأ في كتاب ديني! ما إن صرنا فوق الغيوم، حتّى سأل: اللغة العربية جميلة، هل هذا قرآن؟! تبادلنا الكلام، فعرف أني كاتب، وأعيش في فنلندا، واطمأن لخلفيّتي الدِّينية: ملحد! اعتذر الرجل عن مقاطعتي في أثناء القراءة، وحكى لي عن رجل اسمه اسيسو، وقال ربمّا تفدني هذه الحكاية القديمة يوماً ما:

كان اسيسو رجلاً ضخماً وفخوراً بقوّته. كان يكره ضعف البشر، ويستحقر همومهم. يسخر من تذمّرهم من الحياة، ومن خوفهم من الموت. كان الكرفان هو بيت اسيسو. يجرّه بسيّارته متنقّلاً بين بارات المُدُن الصغيرة. لم يكن يدخل مدينة لا تُطلّ على بحيرة. وكان عليه أن يسرق قارباً في كل مدينة. ملامح اسيسو تشي بأنه رجل ودود وحكيم. أما اسيسو نفسه، كان يعتقد أن الحكمة هي مُجرّد أداة وَهْمية، اخترعها الضعفاء من أجل

المواساة! يجب وضع فكرة الحكمة في متحف تاريخ البشرية. يجب أن نختبر مدى فعالية غرائز الصيد في داخل الإنسان. غرائز يجب تطويرها، والتوقّف عن كَبْتها بذريعة القانون الإنساني. أسيسو كان يصطاد في البارات. يشرب الكحول القوي على مهل، ويبحث بصبر عن فريسة. لا يهمّ أن تكون الفريسة رجلاً أو امرأة، ولا يهمّه عمرها. ما يبحث عنه هو نوعية أفكار الفريسة. يقدّم اسيسو نفسه لسكّان البارات، كونه باحثاً مستقلاً في الطبيعة، يتنقّل عبر البلاد من أجل بحوثه وتأمّلاته. لا يفترس أسيسو الذين يتّفقون مع آرائه. المختلفون هم طعامه. ولا يفضّل مناقشة عن أخرى. بالنسبة له المواضيع كلها هي مناسبة لإيصاله لهدفه، تحدّي القوّة! اصطاد اسيسو خمسة فرائس حتّى دخوله بار الثقب الأسود. فريسته الأخيرة كانت معلّمة، اصطادها في بار مجتمع الإشارة الضوئية. كانت المعلّمة تجلس وحيدة تقرأ في جريدة المساء. اقترب اسيسو بلطف من طاولتها، واستأذن بالجلوس. هل تؤمنين بالأغنيّة التي تقول إن الحياة قصيرة؟! سأل اسيسو. ابتسمت المعلّمة ((أوه، إنها أغنيّة كلاسيكية جدّاً.. ربّما من المريح والجميل أن يسمعها الإنسان بين الحين والآخر)). حدّثها اسيسو عن عمله في الطبيعة، وحدّثته المعلّمة عن مدرستها وهمومها مع زوجها الذي انفصلت عنه قبل عام. قرّر اسيسو في تلك الليلة أن تكون المعلّمة فريسته، اختارها بسبب آرائها عن تعليم الأطفال. كانت المعلّمة تعتقد أن الأطفال بحاجة إلى التعلّم عن طريق اللعب. من المهمّ أن يتمّ تطوير ألعاب جديدة باستمرار للأطفال، ألعاب تجمع بين الفنّ والتفكير والتسلية. لم يتّفق معها اسيسو، قال للمعلّمة ((الأطفال بحاجة إلى المزيد من التمارين المدروسة والمخطّط لها بشكل صارم، تمارين واقعية بعيدة عن العاطفة. ألعاب تجعلهم أقوياء ومتنافسين فيما بينهم. الفنّ والأدب المتعارف عليه

أغلبه هلوسات أحلام تافهة، تخلق المزيد من البشر الضعفاء والمهزومين. نحن بحاجة لفنون جديدة لتجديد مخيّلاتنا. نحن أسرى مخيّلات واهنة، أثبتت فشلها في هذا العالم.)) كانت ليلة سبت. راق للمعلّمة الكلام مع اسيسو، ووجدته مثيراً. سَكِرَت المعلّمة. أغلق البار في الثانية ليلاً. انتظر اسيسو المعلّمة خارج البار، وعرض عليها شرب النبيذ، فهو قد ركن كرفانه قرب البحيرة. سَكِرَت المعلّمة، وغنّت بصوت عال ثمل عن الحبّ والطبيعة. اقترح اسيسو مغامرة. أن يسرقوا أحد القوارب، ويجدّفان إلى وسط البحيرة. وما إن وصلا إلى هدفهما حتّى رمى اسيسو المجداف إلى الماء، ودفع المعلّمة إلى البحيرة، قائلاً (هذا ما أعنيه! هذه هي اللعبة التي تحتاجين.. اسبحي الآن من أجل حياتكِ، واستمتعي باللعب..)، ثمّ قفز بدوره إلى الماء. قَتَلَ اسيسو ضحاياه كلهم بالطريقة نفسها، التخلّص من المجداف، دفع فرائسه إلى الماء وهم سكارى، وتحدّيهم إن كان بإمكانهم السباحة حتّى الضّفّة. وكانوا يغرقون، وكان هو الوحيد الذي يصل سابحاً إلى الضّفّة. بحثتُ أنا عن اسيسو طوال سَنَتَيْن. ذات مساء، تشاجرتُ مع ابنتي التي بلغت للتّوّ الثامنة عشرة، خرجتُ من البيت غاضبة، ولم نعثر عليها إلا بعد أيّام في بحيرة اسيسو. خصّصتُ كل وقتي وطاقتي للعثور عليه قبل الشرطة، وقتله. درستُ تحرّكاته وتنقّلاته عبر أخبار الصحف التي كانت تتابع جرائمه. فتّشتُ عنه في أغلب بارات المُدُن الصغيرة على طول الحدود الشرقية، إلى أن وجدتُهُ في بار الثقب الأسود. كان الوقت مساء من يوم أربعاء، ولم يكنْ هناك الكثير من الزبائن. جلستُ إلى البار، أشرب الويسكي، وأتفحّص وجوه الزبائن. كان البار مان أجنبياً. كان هناك لابتوب، يمكن للزبائن أن يختاروا منه الأغاني التي يحبّون سماعها. كانت أغنيّة توم

ويتس(*) (سيّئ كما أنا) تصدح في البار. بعد ثالث كأس ويسكي أشربه، تقدّم رجل، واختار أغنيّة أخرى في اللابتوتب، وهو يتذمّر من خراء أغنيّة توم. أخبرتُهُ أن الأغنية تعجبني، وتبادلنا الكلام. جلس إلى جواري، وطلب لكلَيْنا الويسكي. قال لي، مشيراً إلى البار مان (أكره هؤلاء الأجانب، إنهم ضعفاء مهزومين، تركوا بيوتهم وبلدانهم، وكان من الأفضل لهم أن يبقوا هناك، ويحاربوا من أجل حياتهم، إنهم لا يستحقّون حتّى النظر إليهم، أو التفكير في منافستهم، إنهم مُجرّد حشرات، يمكن أن ندوسها في أي لحظة)، ثمّ راح حديثنا يدور عن الموسيقى والمخدّرات. لم أشكّ في الرجل إلا حين دعاني بعد إغلاق البار إلى كرفانه قريباً من ضفّة البحيرة (ربمّا يكون هو اسيسو!) تحسّستُ السّكّين في جيبي، وتأهّبتُ. ذهبنا إلى البحيرة، شربنا، وسكرنا. جدّفنا إلى وسط البحيرة. كنتُ أنتظر إشارة صغيرة أخرى للتأكّد نهائياً من أن الرجل هو نفسه اسيسو، لأطعنه في قلبه بكل ما أُوتيتُ من قوّة. لكن الوغد فاجأني، ودفعني بقوّة إلى الماء. سبح مبتعداً عنّي، فسبحتُ خلفه. كان الماء بارداً جدّاً، وكانت السماء غائمة وغاضبة. ظنّ أنني سأغرق، وأموت كضحاياه. كان اسيسو يجثو على ركبَتَيْه على الضّفّة لاهثاً من التعب، حين خرجتُ من البحيرة خلفه. وضعتُ السّكّين على رقبته، ما اسمكَ؟: اسيسو، قال باعتزاز وفخر. نايس تو ميت يو اسيسو، أنا سلامي ياكي! قلتُ، وذبحتُهُ!

((حقا، ذبحته!!))

لا تقلق.. أمزح معكَ! قال سلامي ياكي: لا أدري إن كان بإمكاني قتل إنسان. تمكّنتُ من السيطرة على اسيسو، اتّصلتُ بالشرطة، وألقوا القبض عليه.

(*) Tom Waits

تهبط الطائرة في مدرج مطار القاهرة بسلاسة. تستقرّ الرحلة، ونفتح أحزمة الأمان. يمدّ سلامي ياكي يده للمصافحة، أهزّها قائلاً: نايس تو ميت يو، أنا حسن بومة.. هل ممكن أن آخذ إيميلكَ، ربّما كنتَ راغباً في قراءة إحدى قصصي. لديّ قصّة بعنوان (بحيرة البومة)، أعتقد أننا التقينا في تلك القصّة في أحد البارات.

تـودّع سـلامي ياكـي، وتأخـذ تاكسـياً إلى الفنـدق. (حقّـاً، اسـم الرجـل سـلامي ياكـي؟!) يســأل بالومــار.

كانت فكرة البحث عن عمّي في القاهرة التي يقطنها حوالي ١٠ ملايين، تبدو عَبَثية، أو أنها مُجرّد مزحة. لكني كنتُ شبه متأكّد أن التواصل عبر مواقع التواصل الاجتماعي سيفيد كثيراً. العراقيون، ومنذ سنوات السّتّينيّات من القرن الماضي، صاروا يعيشون في بقاع الأرض كلها. صاروا مواطنين عالميين مشرّدين، رغماً عنهم أو بإرادتهم. قبل شهور، كنتُ قد نشرتُ بوستاً في صفحتي في الفيس، أسأل فيه الأصدقاء والمعارف إن كانوا يمتلكون أيّ معلومات عن عمّي البي بي سي في القاهرة. وصلتْ رسالة. أحد أقاربي الذي يعمل صيّاد سمك في جنوب العراق، يقول إن ابن عمّه الذي يعيش في تكساس، ويعمل مهندساً ربّما يفيدني. من تكساس، وصلتْ رسالة المهندس التي تقول، إن ابن خال أمّي الذي يعيش في ماليزيا، ويعمل في السفارة العراقية يعرف أحد أقاربنا يعمل طبيب أسنان في القاهرة. اتّصلتُ بماليزيا، وحصلتُ على رَقْم هاتف الطبيب، وهو من أقرباء أمّي، واسمه نبيل. طبيب الأسنان كان قد هرب من بغداد إلى القاهرة أيّام الدكتاتورية. لقد أتعبه وأفزعه تعذيب المساجين بقلع أسنانهم. كانت الأجهزة الأمنية تُجبر، نبيلاً، على فعل ذلك في سجونها السّرّيّة.

في اليـــوم التـــالي، التقيـــتَ الطبيـــب في وســـط القاهـــرة. حـــين اســـتيقظتَ في الصبـــاح، شـــعرتَ بعقـــارب تزحـــف في معدتـــكَ. لـم تكن تشـــعر بألـــم. بـــل مخيّلتـــكَ هـــي التـــي كانـــت تتكلّـــم.

كان الطبيب رجلاً كريماً ولطيفاً. تطوّع لاصطحابي بجولة في شوارع القاهرة، وذهبنا إلى الأهرامات. ولبّى لي رغباتي السياحية للتعرّف على المصريين ويوميات حياتهم، التي كنّا نحفظ الكثير من تفاصيلها منذ سنوات طفولتنا. لعقود طويلة هيمن الفنّ المصري على تلفزيونات بيوت العالم العربي عبر الأفلام والمسلسلات الدرامية والمسرحيات والأغاني. طبعاً أكلتُ (الفول) طعام الفقراء الذي شفناه في الفنّ المصري ألف مرّة ومرّة. ووقفتُ في طابور رغيف العيش. واستمعتُ إلى أغاني الحواري الشعبية. وأكلتُ الكوشري، ورحتُ للسّيّدة زينب، وبحثتُ في المقاهي عن شبح نجيب محفوظ، العربي الوحيد الذي أخذ نوبل الأدب.

روى لي الطبيب، ونحن نأكل مخّ بالكاري، قصصاً مخيفة، ولا تُصدّق عن قلع الأسنان في السجون. ثمّ حدّثني عن حياة عمّي في القاهرة قبل أن يختفي من جديد. اشتغل عمّي في أثناء وصوله إلى القاهرة في أعمال التنظيف في عدّة مطاعم. إلى أن عثر على عمل في مقهى عراقيّ، اسمه (استكان)، يديره باحث جامعي عراقي. لم يكن عمّي من المعجبين بالشاي المصري، ولا بطريقة تقديمه في الأكواب الزجاجية. كان عمّي مازال مدمناً على الشاي العراقي الأحمر الذي يُقدَّم في استكانات صغيرة، ملاعقه مزخرفة، وصحونه منقوش عليها طيور ونباتات وزهور. لهذا كان فرحاً بعمله الجديد في مقهى استكان. كان أغلب زبائن المقهى من العراقيين. افتتح (الباحث) المقهى بعد أن هجر البلاد، وترك بحوثه ودراساته هناك.

كان باحثاً في الحضارات العراقية القديمة وعلم الأديان. اختطفوا ابنه المراهق في أثناء الحرب الأهلية، وذبحوه. الباحث كان مُولَعاً بالأصوات الغنائية النسائية العراقية. كان مقهاه لا يصدح سوى بأصوات النساء التي انحسرتْ بشكل كبير في العقدَيْن الأخيرَيْن. فقد هيمن الذُّكُور على الغناء والموسيقى، وعلى مجالات الحياة الأخرى كلها. شكّلت الأصوات النسائية منذ ثلاثينيات القرن الماضي الذائقة الموسيقية لهواة الطرب في العراق. وكان حضور الأصوات النسائية لافتاً ومدهشاً طوال عقود طويلة، فظهرت زكية جورج، سليمة مراد، منيرة الهوزوز، زهور حسين، صديقة الملاية، أمل خضير، سيتاهكوبيان، مائدة نزهت، أنوار عبد الوهاب، وأخريات كثر. إلى أن نزل الله جديد من السماء بزيّ إسلاموي مقاتل، فاختفت أصوات النساء وملامحهنّ.

يقول طبيب الأسنان، إن عمّك البي بي سي واصل عمله في استكان الشاي، إلى أن تعرف على داود الفلسطيني. أقنعه داود بهجر (الشاي)، والالتحاق به للعمل في الأنفاق.

كانت أنفاق التهريب مزدهرة في تلك الفترة. يعود تاريخ حفر الأنفاق بين مصر وغزّة إلى أوائل الثمانينيات من القرن الماضي بعد ترسيم الحدود بين مصر وإسرائيل في اتّفاقية كامب ديفيد. كانت الأنفاق حينها تُستخدم لتهريب السجائر والذهب والسلع الأخرى والعملات الأجنبية. مع انتفاضة ١٩٨٧ استُخدمت الأنفاق لتهريب الأسلحة. في تلك الفترة، كان النفق يربط بين منزلَيْن متقابلَيْن على جانبَي الحدود. بدأت السطلة الفلسطينية في عام ١٩٩٤ في مكافحة الأنفاق في إطار التنسيق الأمني مع إسرائيل، بعد اتّفاقية أوسلو للسلام. دمّرت إسرائيل آلاف المنازل المحاذية للشريط الحدودي، الأمر إلى اضطرّ الفلسطينيين إلى زيادة

طول الأنفاق. ومع اشتداد وطأة الحصار الذي فرضتْه إسرائيل عام ٢٠٠٧ على قطاع غزّة، اتّجه الفلسطينيون للأنفاق لسدّ رمق حاجاتهم، وتهريب الأدوية والأغذية والدواء والوقود، وأنواع مختلفة من السلع. ثمّ خُصّصت أنفاق جديدة لنقل موادّ البناء والماشية وتهريب قطع الغيار، وأجهزة الاتّصالات الحديثة، والسّيّارات والآليات بمختلف أشكالها وأنواعها. وطبعاً كانت هناك أنفاق السلاح المهرّب. بعدها ظهرت أنفاق جديدة أخرى مختصّة بإدخال الحيوانات البرّيّة، إلى أن افتتح العديد من حدائق الحيوان (الصغيرة) في قطاع غزّة. وكانت تضمّ أسوداً ونموراً وضباعاً وقردة ونَعَام. تطوّرت قدرة الفلسطينيين على حفر الأنفاق، وأخذوا يلجؤون إلى تِقْنِيّات حديثة ومعدّات آلية بدل الوسائل البدائية. فصارت الأنفاق أمتن، وتقلّصت سرعة إنجاز النفق إلى أقلّ من ثلاثة شهور. وصار هناك مصمّمون للخرائط، وحفّارون مختصّون، ومهندسون يشرفون على العمل. وصارت الأنفاق المنفذ الوحيد بين قطاع غزّة والعالم الخارجي، فأصبحت تُستخدم لتهريب الفلسطينيين من خارج فلسطين، والمغتربين الذي يودّون العودة إلى بلادهم.

رحتَ إلى المقهى للسؤال. لم تكن لدى الباحث في الحضارات وصاحب الاستكان أيّ معلومة أو أخبار عن عمّكَ البي بي سي، ولا عن صاحبه دواد. أعطاكَ عنوان فلسطيني آخر، اسمه سليمان.

طلب سليمان منّي نقوداً، مقابل مساعدتي! قلتُ له، ونحن ندخّن الأركيلة في مقهى الاستكان (أوكي.. يعني فلوسي قليلة جدّاً.. بس كم تريد؟) قال ((١٠ آلاف يورو)) ((شنو؟!)) كدتُ أن أغصّ بلقمتي، قلتُ: أنتَ تمزح، صحيح؟ نظر سليمان لي بجدّيّة، ثمّ ارتختْ ملامحه، وضحك. ضرب كتفه بكتفي ((أنتَ عراقي، لا تهتمّ، تدلّل عيوني، أمزح معاك!))

فكّرتُ أن سليمان يحبّ العراق بسبب صدّام حسين، الذي يحبّه أغلب الفلسطينيين، لأنه آخر زعيم عربي قصف إسرائيل. سليمان أثبت غباء الصورة النمطية التي استنتجتُها. أخبرني ونحن في الطريق إلى الحدود مع غزّة، أنه عاش في العراق فترة طويلة، وهو رسّام. ومازال يتذكّر أيّامه الجملية في بغداد رغم قسوة الحصار والديكتاتور. مع ذلك، كان الأمان كافياً للحزن والتفكير، يقول سليمان: صحيح أن قبضة الديكتاتور كانت خانقة نتنة ومقرّزة، لكنكَ لم تكن تشاهد أطفال مذبوحين نايمين في برك دم. أعرف جيّداً ما هي وحشية ديكتاتورية صدّام. بس لو!! لو زرعوها ما خضرت.. مو هيج يقول أهل بغداد، عيوني آغاتي إنت سيد حسن بومة!

تبادلنا الكلام والذكريات عن الوسط الفنّيّ والأدبي في بغداد. تبيّن أنه كان لدينا أصدقاء مشتركون كثر. وتعجّبتُ لأنني لم أسمع عنه في بغداد، ولم ألتقِهِ. سليمان كان يعمل ناشطاً متطوّعاً في نقل المرضى عبر الأنفاق. النظام الصّحّيّ شبه منهار في غزّة، والناس يحتاجون إلى مستشفيات أفضل. وكان سليمان يساعد المرضى على عبور الأنفاق الطويلة والمخيفة من غزّة إلى مصر. في أيّ لحظة ممكن أن تقصف إسرائيل النفق، أو تُغرقه مصر بالمياه. أُعجبتُ بسليمان كثيراً! صاحب نكتة، شجاع وطيّب. كانت لسليمان علاقات جيّدة مع عالم الأنفاق. وكان الجميع يحترمه ويقدّره بسبب نزاهته وصدقه. كانت ملامح سليمان تبدو متعبة جدّاً، وكأنه مسافر منذ زمن طويل، في رحلة طويلة شاقّة، تائهاً، بعيداً عن بيته. هل يكون سليمان هو نفسه النبيّ سليمان؟! في اليهودية هو أحد ملوك مملكة إسرائيل. في الإسلام هو أحد الأنبياء. وحسب القرآن، إن سليمان تعلّم منطق الطير والحيوانات والحشرات. وله جنّ وعفاريت مسخّرون لخدمته. ومن أشهر الصفات التي اشتُهر بها سليمان هي الحكمة. وورد ذلك في

كتاب التوراة والقرآن أيضاً. اليوم سليمان الحكيم يُمسك بأيادي المرضى، ويعبر بهم أنفاق القرآن والتوراة.

في الحدود كانت هناك أكثر من رواية عن مصير عمّكَ.

كانت هناك روايتان معقولتان. الأولى أن عمّي كان يعمل مع حماس لتهريب الأسلحة، وقُتل حين قَصفتْ إسرائيلُ النفقَ. والثانية تقول إن عمّي كان يهرّب خروفاً لذبحه في عيد الأضحى حين قامت السلطات المصرية بإغراق النفق بالمياه. نجا عمّي بأعجوبة، وصار أعمى. وهو يعيش اليوم في غزّة.

قـرّرتُ التأكّـد مـن الروايـة الثانيـة. عـبرتُ النفـق للقـاء الأعمى راوي القصص المشوّشـــة.

لم يكن لديّ المبلغ الكافي لدفعه من أجل تهريبي عبر النفق. توسّط سليمان لي عند جماعة، تهرّب موادّاً غذائية وسلعاً استهلاكية. وافقوا على عبوري النفق برفقتهم على شرط أن أحمل معهم بضاعة. شكرتُ سليمان كثيراً، ودّعتُهُ ووعدتُهُ بأن أبقى على تواصل معه. قال لي بكل صدق وطيبة، بأن لا أتردّد بطلب أيّ خدمة منه بعد عبور النفق. كنتُ قلقاً وخائفاً من تجربة العبور تحت الأرض. شعرتُ حينها أنني بحاجة كبيرة إلى عالية. فتحتُ إيميلي، وقرأتُ مرّة أخرى آخر إيميل منها. شعرتُ بالحسرة والغباء، لأنني لم أردّ على إيميلها الأخير. كان مزاجي خرى يومها، وكنتُ سكران. بعدها بيومَيْن كتبتْ لي هند عن موت عالية. ناداني المهرّب، وشرح لي طريقة عبور النفق، ثمّ أشار لي إلى البضاعة التي سأحملها. بضاعة على الظهر، وبضاعة في جيوب معطفي. حمل ليس بالثقيل، لكنه حمل مُقلِق ومُتعِب وغامض، مثل الحياة! يقول ظلّي بالومار.

أنــتَ في النفــق. على ظهــركَ تحمــل حفّاظــات الأطفــال، وجيوبكَ تمتلئ بالســاعات.

آخر إيميل من (ع.م)

عزيــزي حســن. كيف هــي أحوالــكَ؟ فيما يخــصّ الكتابــة يكون الآمن الأكثــر فائــدة أن لا تُرغــم النفــس عــلى الكتابــة! حقيقــة عرفتُهــا في وقــت مبكّــر رغــم هجمــات المــرض الشرســة في الأيّــام الأخيرة، لــم أبتعــدْ عــن الكتابة وتنظيــم أمــور مــا كتبته قــي الفترة الأخــيرة. أنتَ تشــكو من شــحّة الوقــت، وعلى أكــبر احتمال، يشــكو الجميــع منــذ زمــن أريســتوفان مــن مثل هــذا الشــحّة.

ليــس بالاحتمال البعيــد أن يُرســلوني إلى المستشــفى مــرّة أخرى. ســأحاول أن آخــذ معــي الكومبيوتر.

في الأيّــام الأخــيرة اشــتدّ التفكــير بأنــي أبتعــد عــن هــذه الحيــاة، ولا أعــرف مــن أيــن هذا الهــدوء الداخــلي الــذي لا يعني استســلاماً لـــ (النهايــة)، بــل لكونــي عاجــزاً عــن إدارة الدفّة صــوب حيــاة أخرى. فــالأوان قد فــات، وكل مــا عــليّ فعلــه أن أكون هادئــاً إلى النهايــة ...

هنا ترجمتي لبعض شذرات سيوران

- نحن نعاني طالما نحتاج إلى أحد، أو شيء.

- مع التقدّم في العمر ليس ما يَضعف هو قدراتنا الفكرية، بل تلك القوّة، قوّة اليأس التي لم نعرف تقدير سِحْرَها ولا إضحاكها عندما كنّا شباباً.

- هذه اللحظة اختفتْ إلى الأبد، ضاعتْ في كتلة مجهولة من الأشياء النهائية. لن تعود أبداً. أنا أعاني بسبب ذلك، ولا أعاني أيضاً.

- على الإنسان أن لا ينبش في الذاكرة، إذا أراد أن يكون سعيداً.

- مع مرور الزمن، ألحظ أن الناس الذين أفهمهم بأقلّ درجة هم الذين أعرفهم أحسن من غيرهم. إن أصدقائي ألغازٌ.

- الأطفال يتوجّهون ضدّ الآباء، وهؤلاء يستحقّون هذا المصير. فكل شيء يتوجّه ضدّ كل شيء، وكل واحد يخصب عدوّه. فهكذا هو القانون.

- الناس مستعدّون إلى التصديق بكل شيء عدا الحقيقة.

- هناك نفوس يعجز الله نفسه عن إنقاذها، وحتّى لو سجد وصلّى من أجلها.

- قولٌ زائفٌ أن الإنسان لا يقدر على الحياة من دون آلهة. أوّلاً هو يصنع ما يحاكيهم، ثانياً هو يعرف كيف يتحمّل كل شيء، وكيف يعتاد عليه. لكنْ، ليس لديه القدر الكافي من النُّبل، كي يموتَ بسبب الخيبة.

- الطغيان يكسر عود الفرد، ويقوّيه أيضاً، أما الحُرّيّة، فتضعفه، وتعمل منه دميةً. لدى الإنسان فرصة أكبر في أن يُنقِذ نفسه بفضل الجمال، وليس السماء.

- إذا كان الإنسان ينسى بسهولة أنه ملعون، فالسبب هو أنه ملعون منذ البداية وإلى الأبد.

- تتحسّن طبيعة الإنسان في حالة واحدة لا غير: حين يفقد الطموح في أثناء مصادفة ما.

- الاستسلام أمام الموت هو علامة الضعف، أما تدمير الذات، فهو علامة القوّة.

- هاجس الانتحار هو خصيصة الإنسان العاجز عن الحياة والموت، والذي لا يصرف انتباهه أبداً عن هذا العجز المضاعف.

- طالما لا أسمح لنفسي بنسيان أني سأموت، فأنا بانتظار الموت، ولذا بمقدوري نسيانه.

- في الأخير، نحن لا ننتحر، ولأن الأسباب هي كثيرة للغاية.

- لا ينتحر أحد غير المتفائلين، وحين يعجزون عن أن يكونوا متفائلين. الآخرون الذين لا يملكون أيّ أسباب للحياة، لماذا عليهم أن يموتوا؟!

- مَنْ لا يرى الموت بألوان وردية يعاني من عَمَى ألوان القلب.

- لا نفع من قَتْل النفس، فنحن نقتلها دائماً بصورة متأخّرة جدّاً.

- مَن لم يمتْ في شبابه أبقى فقط صورة كاريكاتورية لكبريائه.

- تريد الأخلاقيات كلها أن تعمل من هذه الحياة مجموع فرص مفقودة.

- الطريقة الوحيدة للبقاء هي التقليل من أهمّيّة كل ما نلقاه. فلا شيء يملك أهمّيّة بحدّ ذاته، وفي هذه الحالة تكون الحياة أمراً يُطاق.

- حين أدركُ أن الأفراد هم مُجرّد لعاب تبصقه الحياة، وأن الحياة نفسها لا تعلو بالقيمة على المادّة، أدخلُ إلى أوّل بار ألقاه، كي لا أخرج منه أبداً. لكنْ، حتّى لو أفرغت ألف قنّينة، فلن أجد لها طعم اليوتوبيا، ذلك الإيمان في أن هناك شيئاً لا يزال ممكناً.

- سعداء جميع الذين وُلدوا قبل ظهور العِلم، فهم حصلوا على امتيازِ ترك هذا العالم، بسبب أوّل مرض أُصيبوا به.

- عند الكلام، وفي الأخيرعند الكتابة أيضاً، لا نقوم بحلِّ أيّ شيء. قد يكون هناك حلّ فيما يخصّ الداخل حين نُفرغ ما فينا، ونرمي القليل من النفس. بعدها ننظر بلا مبالاة معيّنة إلى كل الأسئلة الأكثر حرجاً، والأخرى المقلقة... حينها تعذّبنا الأسئلة إلى درجة أقلّ.

نموذجي المثالي في الكتابة: أن تُغلق إلى الأبد فمَ الشاعر الذي نستره في النفس، ومَحْق آخر أثرٍ للغنائية فينا - المضي ضدّ تيّار كل شيء يكونه نحن، وإضاعة إلهامنا الخاصّ، ومَحو اندفاعاتنا، بل حتّى تعابير الوجه.

- النقد شيء محروم من المعنى. ينبغي القراءة، وليس من أجل فَهْم الآخرين، بل النفس.

- يصيب الضجرُ الفنّان الباحث دائماً، وبكل ثمن، عن غير العادي، فليس هناك من شيء لا يُطاق أكثر من اللاعتيادية. ليس هناك من فنّ حقيقي من دون الحدّ الأدنى – بل ماذا أقول؟! – من دون جرعة كبيرة من المبتذل.

- ينبغي أن تحيا وجهاً لوجه مع الوجود، وليس مع العقل.

- ما يُحسَب له حساب حقّاً هو أن تفهم، وليس أن تُنتج.

. لا ينبغي الاتّفاق مع الجمع، وحتّى حين يكون هذا محقّاً.

- مَن أسعدكَ ستعرف بسببه الشقاء أيضاً. لتبارك الآلهة مَنْ لا يتعلّق بأيّ أحد.

- لا نقترب من الصفاء النسبي للروح إلا حين ينفد الإشفاق على النفس.

- كل واحد سجين لعبه، وطالما نحيا لا نفعل شيئاً سوى زيادة الرهان.

- لا على نهايتكَ أن تكون على الصليب، فأنت وُلدتَ مصلوباً.

- التشاؤم، وهو في الأخير كما التفاؤل، علامة على فقدان التوازن العقلي.

- الحزن : رغبة لا يُشبعها أيّ شقاء.

- فنّ الحبّ؟ إنه مهارة الربط بين مزاج مصّاص الدماء وبين رقّة زهرة الريح anemone.

- لو كان نوح يملك هبة التنبّؤ، لأغرق سفينته.

- لا تنظر إلى الأمام، ولا إلى الوراء، انظرْ في أعماق نفسكَ، بلا خوف وبلا شكوى: لا أحد قادراً على التعمّق في نفسه طالما يبقى عبداً للماضي أو المستقبل.

- إذا لم ترد أن يَقضي عليكَ السعار، عليكَ أن تترك الذاكرة لحالها، ولا تنبش فيها.

- أن تفعل شيئاً، أو لا تفعل - كلا الأمرَيْن سواء.

- وحتّى أفظع مرض يمكن تحمّله، إذا لم نقمْ بتسميته.

- الروحُ تَستغلّ، إلى حدّ بعيد، هزائمَ الجسد. وهي تغتني على حسابه، وتنهبه، وتبتهج من عذاباته، وتعيش على السطو. الحضارت تدين بالفضل على تطوّرها لأفعال قاطع طريق.

- نبقى في منطقة العموميات عندما نقول: بالأحرى أنا أميل إلى هذا

النظام، وليس إلى آخر. ولكان أكثر دقّة لو قلنا: أفضّلُ هذا البوليس، وليس الآخر. فالتأريخ يقود، بالأحرى، إلى تصنيف البوليس، وعن أيّ أمر آخر يكتب المؤرّخ، إذا لم يكن عن الجندرمة التي أخضعت البشرية خلال قرون؟

- أنا أحبّ شعوب الفلكيين: الكلدانيين والآشوريين وشعوب أميركا ما قبل كولمبوس، والتي كلها، بسبب محبّتها للسماء، لقيت الهزيمة في التأريخ.

- العلاج النفساني يزدهر بين الشعوب الشبعى، فانعدام الهموم المباشرة يُبقي لديهم المناخَ المَرَضيَّ. ولكي يحافظ على صحّته النفسية يحتاج الشعب إلى شقاء فعلي - موضعٍ لحالات قلقه، إلى خوف حقيقي يُبرّر (عُقده النفسية). المجتمعات يتراصّ بنيانها عند الخطر، وتفنى في الحياد. وهناك حيث يسود السلام والشروط الصّحّيّة والترف تتضاعف حالات المرض النفسي. أنا أنحدر من بلد أعطى، لكنه لا يعرف ذلك، محلّلاً نفسياً واحداً فقط.

- الشعوب الخاسرة وحدها تقترب من النموذج (الإنساني)، فتلك البقية التي نجحت تحمل مَيسم مجدها، ميسم روعتها الوحشية.

- كل شعب يعدّ نفسه في لحظة معيّنة من التاريخ بأنه ***المختار***. وحينها يعطي كل ماهو أفضل وأسوأ.

- حين تكون الحيوانات غير مُجبَرَة على أن يخاف أحدُها الآخَرَ، تقع في حالة الخدر، ويصبح منظرها حزيناً كالذي نشاهده في حدائقها. وتملك الشعوب والأفراد المظهر نفسه، إذا عاشت بانسجام، ومن دون ارتجاف ظاهر أو خفي.

- أساس المجتمع، كل مجتمع، هو نوع من الفخر بأنكَ مُطيع. وحين يختفي هذا الفخر يختفي المجتمع.

- على هذا الخداع أن ينتهي. أنا بوذيّ حين أقبل الأحكام عن العذاب والشيخوخة والموت حسب. لكنْ، حين يتكلّم بوذا عن وجوب نبذ الرغبات ودَحْر الأنا، يكون هذا أمراً فوق قدرتي.

- لربمّا بوذا هو الأقرب إليّ، فهو قد أدرك القضية الحقيقية. إلا أني أملك مزاجاً عنيفاً أكثر من اللزوم، ويحول دون أخذي بطريقة بوذا. ففيّ سيكون دائماً النزاع بين ما أعرفه وبين ما أشعر به.

- بُعدُ الله عن الناس أكبر من ُبعدهم عنه.

- وحتّى لو اعتقدنا بأننا قد أزحنا الله عن النفس، فهو باق فيها. ونشعر تماماً بأنه ضجِر، لكننا لا نملك القدر الكافي من الإيمان، كي نُبدّد ضجره.- يا للخسارة في أنه لا يمكن الوصول إلى الله، إذ لا بدّ هنا من الإيمان!

- لكم هي خسارة في أن الله لم يحتكرْ لنفسه الكلام بصيغة المفرد المتكلّم، وسمح لكل واحد أن يتكلّم باسمه الشخصي، ولو لم يحصل هذا، لكنا بمنجى عن وباء الـ (أنا).

- إن أفظع أشكال الطغيان هو النظام system - في الفلسفة، وعموماً في كل شيء.

- ما هو تأنيب الضمير؟ إنه الرغبة في الشعور بالذنب، واللّذّة في امتلاك الهمّ، ورؤية سواد أكبر ممّا هو في الواقع.

ملاحظة

رسائل عالية مردان في هذه الحكاية هي مختارات من عشرات الإيملات التي أرسلها لكَ شخصياً عدنان المبارك.

صحيح! إيملات تواصلتْ لأكثر من ١٢ سنة. رسائل عدنان المبارك كانت محطّة مهمّة من محطّات التنفّس والتعلّم في حياتي. اكتشفت في (المبارك) الإنسان الذي أتوق إليه : شيء ما بين القدّيس والشيطان. قداسة روحية. وشيطنة إبداعية. فوسواس الشكل عند المبارك يشتغل بصورة جلية في مختلف أصنافه الإبداعية. أما إنسانيّته، فهي مصونة مقدّسة ومُغلّفة بورق ذهبي من التواضع والمحبّة. في ذروات يأسي الكبيرة والكثيرة، حين همس لي شبح الرحيل، وغالباً ما يجذبني النهر، كي أغطس فيه، وأستريح، كانت الكثير من رسائل المبارك، طوق نجاة من نوع خاص. فعدنان المبارك يمتلك سِحْر تلك الشجاعة - شجاعة الوعي النبيل. لقد تعلّمتُ الكثير من إبداعه المدهش. ولكم أحبّه، وأحترمه، وأشتاق في كل يوم إلى كتاباته وألوانه وإيملاته. المبارك هو معلّمي وصديقي العزيز. كان يعيش مع زوجته (المريضة وطريحة الفراش) في جزيرة لولاند في الدنمارك يكتب ويترجم ويفكّر ويصارع سرطان الدم. وصول إيميل منه كان يعني بالنسبة لي أن نافذة قد فُتحت، نافذة تطلّ على حديقة، هي من نور ونبات، حديقة من معرفة وأحلام معرفية.

يذكر الراوي في بداية الكتاب قصّة (البقرة التي يخرج كسّها مجلات سكسية)، لكنه لا يعود إليها مرّة أخرى.

وهل يحبّ أن يعود إلى كسّ البقرة؟

أوكي.. ربّما كان قصدي، أنه عنوان القصّة طريف.

أوكي!

فقط من أجل التوضيح مرّة أخرى، نقصد أن الرسائل في هذا الكتاب هي رسائل عدنان المبارك لكَ شخصياً كمؤلّف، وليس كراوٍ.

ما أفهم الفرق أني .. أنتَ، والله، تُشوّشني.

أوكي.. أوكي.. بلا تشويش مثل عمّكَ ملك الشاي، قصدي عمّ الرواي! راح تواصل المقابلات بعد عبور النفق.

أقسم لكَ بكل أسماء الله الحسنى، ما أدري! خلّي نشوف...

- عدنان المبارك. وُلد في البصرة (١٩٣٥ـ٢٠١٧).

- أنهى دراساته العليا في تاريخ الفنّ في جامعة وارشو.

- أقام في بولندا لغاية ١٩٩١.

- عمل في صحافة بغداد ووكالة الأنباء العراقية.

- عمل مراسلاً للصحافة الثقافية في السبعينيات والثمانينيات.

من مؤلّفاته:

- الاتّجاهات الرئيسة في الفنّ الحديث على ضوء نظرية هربرت ريد. ـ فلسفة التكنيك.

- فنّ الشمولية. الطليعة الروسية نموذج.

- إشكاليات أساسية في الفنّ:المحاكاة،المخيّلة،التعبير، التشخيص والتجريد ـ القرن العشرون ـ التحوّلات الكبرى في تاريخ البشرية.

- برج بابل الإلكتروني - في إشكالية المواجهة بين الإنسان والماكنة.

- يوتوبيات القرن - الأنظمة الشمولية.

- في التشكيل، في علم الجمال.

- في مدارات الثقافة.

- الفنّ السابع. إضاءات.

- أطياف الكتابة.

- مقاربات في الفنّ.

- في متاهة الحاضر.

- ماتريكس وثنائية الواقع.

يوميات الملح.

روايات: (الزاغور)، (ترس السلحفاة أو الموت في كل يوم)، (تحت سور الصفيح)، (رسائل إلى موتى)، (بالمقلوب)، (حكايات السيجارة الأخيرة)، (ما قبل الطوفان الثاني).

ترجم العديد من الكُتُب، منها:

- الكاتب وكوابيسه لأرنستو ساباتو.

- معالجات في الأدب لأرنستو ساباتو.

- الفنّ والكومبيوتر، للعالم البولندي مارك هيولسكي.

- فنّ الصورة الشخصية للباحث البولندي فويتشيخ شتابا.

- سيناريو فلم أنغمار برغمان (وجهاً لوجه).

- مسرحية (خيانة) لهارولد بنتر.

- رواية (٠) للشاعر الروسي أندري فوزوينينسكي.

- كتاب (مكتبة القرن الحادي والعشرين) للكاتب البولندي ستانسلاف ليم.

- قام بترجمة العديد من أعمال أخرى لكتّاب بولنديين، وآخرين من أمثال فيتولد غورمبروفتش وسوافومير مروجيك وتاديوش روجيفتش وصوفيا ناوكوفسكا وكارين بلكسن ولويس خورخه بورخيس وسيوران.

- مذكّرات المخرج الإيطالي فيتوريو دي سيكا.

- نشر الكثير من المقالات والدراسات والقصص المترجمة في الصحف والدوريات العراقية والعربية. معظمها منشور في موقع القصّة العراقية.

حسن بلاسم راوي هذه الحكاية. كان قد شارك المبارك في الإشراف على موقع القصّة العراقية في شبكة النت لأكثر من ١٠ سنوات. وقد نشر بلاسم والمبارك (قبل رحيله) كتاب الكتروني في موقع القصة العراقية يضم إيملاتهما بين عامي ٢٠٠٦.٢٠٠٨ عنوانه: الغرق في الوجود. ومازال هناك كتاب مراسلات اخر غير منشور.

فهرس المحتويات


تمت
4/4/2018



حسن بلاسم: كاتب وسينمائي عراقي مقيم في فنلندا. كتب في السينما والمسرح والشعر والسرد. تُرجمت قصصه إلى لغات عديدة حيث صدرت مجموعته معرض الجثث بالإنكليزية عن دار بنغوين الشهيرة. رُشح ونال أكثر من جائزة عالمية هامة وفي عام ٢٠١٤ حصل على جائزة الإندبندنت المرموقة في إنكلترا وكان بذلك أول كاتب عربي يحصل على هذه الجائزة.

كتبت عن قصصه كبريات صحف ومجلات العالم، وشارك في العديد من المهرجانات الأدبية العالمية. وصفته صحيفة الغارديان بأنه (أفضل كاتب عربي على قيد الحياة).

منشورات المتوسط

قصّة واحدة مسمومة، وينتهي كل شيء. قصّة حادّة مثل سكّين، طعنة قوية في شبكة الدماغ، ويتوقّف قلب العجوز. أرجوكَ، حسن، ساعدني! لا أريد أن أُذبَحْ.




ISBN 978-88-85771-10-9
9 788885 771109

المتوسط